تداعيات مدينة

الطبعة الأولى

١٤٤٤هـ - ٢٠٢٣م

اسم الرواية: تداعيات مدينة

اسم المؤلف: يوسف رمضان

التدقيق اللغوي: هدير محمود

تصميم الغلاف: وحيد محمد

الإخراج الداخلي: خالد محمود

رقم الإيداع: ١٦٢٧٠ / ٢٠٢٢

الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٨٦٢٣٣-٠-٧




ش- حسن خطاب - قسم يوسف بيك - الزقازيق - الشرقية


01020439639


massar.pub1@gmail.com

تداعيات مدينة

زمن انهيار القناعات





إهداء

إلى كل من لديه جرأة الخروج من انتماءاته الفئوية وجسارة الانتماء إلى وطن أرفع هذا الكتاب.

توهّمتُ أني عرفتُ سبيلي ألفـتُ وأحـببتُ هذا السبيل
وسرتُ عليه يقــيني دليلي وشيئاً فشيئاً أضعت الدليل

مقدمة

في كتابه "حياة الحقائق" يبين غوستاف لوبون أن حقائق الحياة - ككل نتاجات الحياة الأخرى - لا يمكنها أن تخرج عن شرطها الحياتي، الشرط الذي يمنحها ميلاداً وعمراً وموتاً. نعم، تموت الحقائق، وعندما تموت لا تجد من يبكي عليها لأنها تموت أول ما تموت في نفوس معتنقيها. بل لعلها لم تكن موجودة أصلاً إلا في زوايا تلك النفوس وعندما تبرحها تتلاشى في ملكوت العدم.

"نحن نعيش في رحاب كذبة كبرى" لعل هذا أصدق توصيف لواقعنا الذي نعيش فيه. فنحن لا نملك مرجعية موثوقة في الحكم على أمر ما هل هو صدق أم كذب، حقيقة أم وهم، موجود في المطلق أم موجود في دائرة مداركنا وحسب. هل المرجعية في ذلك هي العقل أم الذاكرة أم الحدس؟ وإن كان ثمة من مرجعية يمكن الركون إليها فعلام التباين الذي نراه في كل ثوابتنا وحقائقنا. أم أن هذا التباين هو نتيجة رغبة مبيتة لدينا في التزوير ومناكفة الحقيقة، ومن ثم ترويض عقولنا على أننا غير واعين لما يحصل. أدياننا طالها التحريف والتزوير، وعموماً فإن عدد الرافضين لأي دين في العالم هو في أحسن الأحوال أضعاف عدد المؤمنين به، وحتى الديانات التي تعتبر واسعة الانتشار فقد انتشرت نتيجة لظروف تاريخية لا تخفى على أحد. ما نطلق عليه اسم الحقائق العلمية يتهاوى بين الحين والآخر هشاً مهلهلاً كأن لم يكن من

قبلُ في وهمنا ركناً ركيناً في صرح الحقيقة، وحتى ما يبدو منها حتى الآن متيناً ومحكماً يبقى مشكوكاً بأمره، لأن الأمور بخواتيمها، وعلومنا ما بلغ واحد منها بعدُ مداه الأخير، وبالتالي فهي عرضة لأن تصل إلى طريق مسدود. أما تاريخنا، فإضافة إلى كل ما يكتنفه من دجل وأباطيل، فإنه يسير جنباً إلى جنب مع موروثنا الشعبي، وثقافتنا الشعبية، فتختلط فيه الأحداث التاريخية مع أحداث السير الشعبية، ما يجعل رجالاً يُفترض أنهم ليسوا بالحمقى يتفوّهون وهم يروون أحداثه بأحاديث هي الحمق بعينه.

هل قام العقل البشري "بمنتجة" الحقائق والوقائع، ليعيد إنتاجها بنموذجها الحالي المسخ والمشوّه، لعل العقل غير مسؤول عما حصل، فهو بطبيعته لو تُركت له حرية التوجه لاتّجه صوب الحقيقة، كما تتوجه البوصلة صوب الشمال المغناطيسي إذا أمنّا لها شرط الأفقية وأزلنا من حولها ما يؤثر على توجهها الصحيح، ولكن هل أمنّا للعقل البشري شروط عمله النظامية؟ وهل أزلنا من حوله ما يجهز على موثوقية توجّهه؟ وهل تركناه يقودنا صوب حقائق الحياة والوجود. الواقع أننا فعلنا عكس ذلك تماماً، قسرنا عقولنا على تفسير وتبرير أفكار مسبقة الصنع، واستنفدنا طاقاتها بشق وتمهيد وتعبيد سُبُل ومسالك وعرة، لا تؤدي بأية حال من الأحوال إلى "روما" وتركنا الدروب الصحيحة تُخفي ملامحَها أشواكُ الإهمال، وتمحو معالمَها نباتات الضلال الضارة. كم من الأكاذيب نطلقها ونعيش فيها ونحبها، ويشقّ علينا أن نخرج منها فنُدخلها عالم الحقيقة ثم نغدو أول من يصدقها. نُدرّب حواسَنا على أن تلتقط واقعاً مزوّراً ونُقسر عقولنا على قبوله، ثم تتواطأ الذاكرة فتورّط نفسها في الجريمة، وتوثّق كل ما سبق في

سجلات أرشيفها، فإذا كانت الذاكرة التي هي "أثبت ما في سديمنا" كما قال عنها مترلنك على هذا المنوال فما عسى أن يكون حال بقية أجزاء السديم. يقول أرسطو إن المنطق - والذي هو طريقة لتصويب عمل العقل - هو علمٌ وفن، علم لإمكانية قوننته وتَعلّمه، وفن لإمكانية اكتسابه بالممارسة، نحن ندرّب عقولنا بالممارسة على نقيض المنطق، فنكتسب بتلك الممارسة ما يمثل حرباً شرسة على قوانا العقلية، وتدميراً مبرمجاً لمنهجنا الفكري. حتى كتاب الله لم يسلم من البدع والتأويل رغم احتفاظه بنصه الصحيح، فكم تم استغلال بعض الإشارات والكلمات القليلة الواردة في القرآن، لتتحوّل لدى كتب التراث الإسلامي إلى قصص مطوّلة نُسبت بكاملها إلى القرآن الكريم في استغلال مشبوه للكلمات القليلة الواردة فيه، فطوفان نوح الذي يورده القرآن كعقاب أصاب الله به قوماً بعينهم، كما أصاب أقواماً آخرين بألوان مغايرة من العقاب كالريح والجراد والصيحة، تُحوّله كتب التراث إلى قصة غير منطقية يُصاب من خلالها بالطوفان كوكب الأرض برمّته، متغافلة تلك الكتب عن أن قصة الطوفان قد وردت في تراث شعوب بلاد ما بين النهرين، ولم ترد في تراث كلّ شعوب الأرض، كما تتغافل أيضاً عن أن مصطلح "الأرض" القرآني لا يعني الكوكب الثالث في مجموعة الكواكب السيارة، هذا المصطلح العلمي الذي لا يمكننا أن نفرضه على البيان الإلهي بأي شكل من الأشكال. الفلك المحدود والواقعي في القرآن، والذي يوعز الله إلى نوح أن يحمل فيه من اتّبعه من أهله - وهم محدودون للغاية لدرجة أن زوجته وابنه ليسا منهم - وزوجين من كل نوع من حيواناته، كي يستأنف حياته العادية بعد الطوفان، هذا الفلك الذي لم يصفه القرآن بأية صفة توحي

بإعجازه، تحوّله كتب التراث إلى بارجة أسطورية، حملت فيما حملت كل أنواع المخلوقات من السباع والأفاعي والحشرات وربما وحيدات الخلية أيضاً، والتي حشرها الله من حول نوح "فكان يقذف بكلتا يديه في الجو فتسقط يمناه على الذكر ويسراه على الأنثى فيقذف بهما إلى السفينة" هذا ما تورده كتب التفسير!. أما سورة الفيل، فإن القرآن الكريم لم يحدد للقصة الواردة فيها زماناً ولا مكاناً، فتأتي كتب التراث لتنسبها إلى غزوة أبرهة الحبشي، وتحدد لها تاريخاً عام ميلاد الرسول. كيف لنا أن نصدّق أن حادثة غرائبية كحادثة الطير الأبابيل، قد حصلت في مكة حيث يقام سوق عكاظ وفي عز زمن المعلقات دون أن يرد لها أي ذكر في الشعر الجاهلي، المصدر الوحيد لتاريخنا في تلك الحقبة من الزمن، سيما وأن تاريخ أبرهة الحبشي مدوّن في وقته وزمنه ومنقوش على سد مأرب في اليمن الذي احتله على ظهور الفيلة، ولم يرد في ذلك التاريخ أي ذكر لغزوة حبشية توغلت في الصحراء العربية حتى بلغت مكة. أليس من الأقرب إلى العقل أن يكون القرآن يحدثنا عن حادثة قديمة حصلت في مكان وزمان ما، وهو ما يفعله القرآن في سور كثيرة أخرى، سيما وأن صفحات الإنترنت تتناقل صورة لنقش صخري يمثل طيوراً ترمي جيشاً بحجارة في مناقيرها، هذا النقش يعود تاريخه إلى ما قبل ميلاد الرسول بمئات السنين.

الآية القرآنية التي يقول الله فيها : "ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً . . . " أغلب الظن أن القرآن يشير فيها إلى "بينلوب" إحدى أهم شخصيات الأوديسة، كما أشار في آيات كثيرة أخرى إلى أشخاص آخرين، ومن شعوب مختلفة كفرعون ولقمان وذي القرنين . . . يأتي المفسرون

ويقولون إن المقصودة بها امرأة حمقاء من مكة! لست أدري ما هو شعور تلك المرأة الحمقاء عندما سمعت القرآن الكريم يسخر من حمقها، بل ما هو موقف أولادها وسيرة أمهم الحمقاء على كل شفة ولسان يرتلها المؤمنون والمتهجدون ولا ذنب لها إلا حمقها.

ولعل أغرب إبداعات المفسرين هو تفسيرهم لما جاء في الآية الكريمة: "وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبّه لهم . . . " ، فعبارة "شُبّه لهم" هي تعبير لغوي متداولٌ وواسع الانتشار وهو يأتي بمعنى "خُيّل إليهم" فكيف تحوّل لدى المفسرين بقدرة قادر إلى أن شخصاً آخر قد أصبح يُشبه السيد المسيح، وقد تم صلبه بدلاً منه. ألا نقول لأي شخص يتوهم حصول ما لن يحصل : "أنت مشتبه" هل يعني هذا أن أحداً ما سيشبه أحداً آخر؟

بعد تلك الجولة السريعة على بعض الأمثلة القرآنية السابقة، سأنصرف إلى التركيز على القصة الأهم والأسبق والأكثر استحواذاً على اهتمامي، إنها قصة البداية، إنها قصة آدم وحوّاء. ورغم شغفي الكبير بقصة البداية تلك فقد كنت على الدوام متأكداً أن الوصول إلى حقيقتها هو ضرب من الخيال، وأن جُلّ ما يمكننا القيام به هو تقديم مقاربات لتلك الرواية، تقترب أو تبتعد عن حقيقتها بمقدار ما. ولهذا لن أدّعي أنني سأقدم فيما يلي رواية قرآنية، لكنني سأستفيد - وبطريقة شخصية - من بعض التلميحات القرآنية في صوغ أحداث يمكن أن تكون قد حصلت ذات ماض سحيق.

قد يقول قائل ولِمَ يلمّح القرآن تلميحاً بدلاً من التصريح؟ لهذا القائل أقول "لِمَ لا تسأل اللؤلؤة النفيسة عن سبب اختفائها في جوف محارة في قاع

البحار". ويحضرني في هذا السياق بيت من الشعر للشاعر عمر أبو ريشة:

"أنريدُ الوجودَ منهتك الستر يرينا أسراره عريانا"

لا، لم أسقط في الفخ ولم أقع بما رميتُ به الآخرين، فألتقط تلميحاً ما، وأنسج منه حقيقةً مفترضة. فأنا أعترف أنني أقدم مجرد مقاربة ولا أنسبها إلى كتاب الله، مقاربة لك أن ترتاح إليها، ولك أن تسخر منها، ولكن حتماً ليس عليك أن تصدّقها.

الكون الزمني

جرى هرج ومرج في الكون الزمني بسبب حدث غريب غير مسبوق وغير مختبر يتنافى مع طبيعة هذا الكون ومع نواميس وجوده. فأحد رعاياه قد اختفى بطريقة غامضة، دون أن يترك أي أثر يدل عليه، أو يشير إلى مكان اختفائه. ولدى تحقيق السلطات المعنية في الأمر، تبين لهم أن المدعو "ميثاق" بشطريه الذكري والأنثوي، قد اختفى أثناء أدائه طقوساً للطاقة في أحد النوادي الشعبية التي راج انتشارها، وبدأت تستقطب أعداداً كبيرة من رعايا هذا الكون. رئيس الأكاديمية العليا للعلوم الطاقية في الكون الزمني أعرب عن ألمه الشديد لما حدث، واستيائه الكبير بسبب تقاعس السلطات المعنية عن حظر هذا النشاط خارج نطاق أكاديميته، وأكد أن ما يحدث في تلك النوادي الشعبية مبتذل لدرجة يمكن اعتباره معها شكلاً من أشكال الشعوذة، ومؤشراً خطيراً على بدء انحدار وتردي قيم وأخلاقيات الكون الزمني، مما ينذر باحتمالات خطيرة لا تُحمد عقباها، قد تودي ببهاء هذا الكون وأسس استقراره، وتجعله عرضة لانتهاكات محتملة وخطيرة من قبل الكونين الآخرين الكون المكاني والكون الكتلي. وقد أعرب رئيس الأكاديمية العليا عن كل تلك الهواجس والمخاوف أثناء لقائه مع وزير النشاطات الذهنية على خلفية الحدث الخطير. أكّد وزير النشاطات الذهنية:

– معك كل الحق فيما قلته أيها البروفسور، وأظن أن هذا الحادث كفيل

بحمل البرلمان على سن قانون يحظر نشاط هذه النوادي، وسأتابع هذا الأمر شخصياً إلى أن نصل إلى ضبط هذه الأمور. ولكن هل تعتقد أن الفقيد قد نفذ إلى أحد الكونين الآخرين الكون الكتلي أو كون المسافات؟

– لا يمكن له أن ينفذ إلى الكون الكتلي يا سيادة الوزير، فالكون الزمني لا يملك أي تقاطع بينه وبين ذلك الكون. وبالتالي لا يمكن الانتقال ما بين هذين الكونين مباشرة دون المرور بكون المسافة. أما بالنسبة لكون المسافات أو الكون المكاني فالأمر وارد نظرياً، وإن كنا لا نملك تصوراً كافياً عن إمكانية النفاذ تلك، ويلزمنا المزيد من البحوث حول هذا الموضوع.

– ألا يمكنكم التعاون مع إدارة النادي الذي حصل فيه الحادث، والاستفادة من تجربتهم جراء ذلك؟

– لا يا سيادة الوزير، إن ما تقوله لا يليق بمكانة الأكاديمية العليا للعلوم الطاقية، فكما أسلفت لك سابقاً، فإن تلك النوادي مبتذلة ولا تنتهج منهجاً علمياً، والتعاون معها كما أنه يودي بمكانة أكاديميتنا فإنه سيمنحها شرعية لا تستحقها، وسيشجع مواطنينا على التعاطي معها أكثر فأكثر.

– حضرة العالم الجليل إن استعادة المفقود أغلى من كبريائكم، هذا من جهة ومن جهة أخرى أما تمكنوا في ذلك النادي من تحقيق الانتقال بغض النظر عن أكاديميتهم؟

– لا يمكن القول إنهم تمكنوا من تحقيق الانتقال، فلا شك أن شروطاً مجهولة قد تحققت بمحض الصدفة، أدّت إلى ما حصل بدليل أن بقية مرتادي النادي لم يتمكن أحد منهم من النفاذ من هذا الكون. وتحقيق شروط مجهولة

بمحض الصدفة لا يعتبر إنجازاً، ولا يمكن التعويل عليه، فحتى نتحدث عن التمكن من تحقيق الانتقال يجب أن نقدم طريقة للنفاذ من هذا الكون إلى هناك وطريقة للعودة أيضاً.

– هل يعني هذا أن نقف مكتوفي الأيدي متنصلين من مسؤوليتنا عن إعادة الفقيد.

– طبعاً لن نقف مكتوفي الأيدي، وعموماً إن أبحاثاً محدودة للغاية تفصلنا عن الوصول إلى معرفة طريقة النفاذ تلك ومع انتهائها ستحل المشكلة بإذن الله.

بين الجد والهزل نفذ ميثاق من كون إلى آخر، بين الجد والهزل خسر كوناً يعرف عنه كل شيء، ليربح كوناً لا يعرف عنه أي شيء. خسر كوناً يمتلك كل مقومات الاستقرار والحياة الكريمة، ليربح كوناً يفتقر إلى كل أساسيات التفاهم والتناغم بين مكوناته المختلفة، كوناً لعل كل ربح فيه خسارة، وكل هداية فيه ضلالة، وكل حياة فيه هي معبر إلى الموت. ولئن كانت خسارته الخارجية تلك فادحة بما لا يقاس، فإن خسارته الداخلية كانت أشد وأدهى، لقد خسر كيانه المزدوج بكل ما ينطوي عليه من ألفة وطمأنينة، ودفء وحميمية، ليغدو كيانين مبتورين ناقصين يحتاج أحدهما أن يسأل الآخر فيم يفكر وماذا ينوي أن يفعل. لقد كانا كمن يفقد في لحظة فارقة إحساسه بأطرافه أو بأعضاء جسده، أو كمن يغترب فجأة عن ماضيه وذاكرته وإحساسه بكينونته، ويجد نفسه في حالة تشبه انعدام الوزن، وانهيار الكيان. ويهمس الشطر لشطره الآخر متسائلاً:

- هل تعرفينني؟

تجيبه من غير وعي وقد تشظى تفكيرها في كل الاتجاهات:

- كما أعرف الآخرين.

- الآخرون! وأين الآخرون؟

لقد وجدا نفسيهما في أرض خاوية من أي شكل من أشكال الحياة المتحركة. مما أضاف إلى اغترابهما الداخلي اغتراباً خارجياً أيضاً. نظرا حولهما يمنة ويسرة كأنهما هما يستجديان من الحياة لفتة عطف أو حبل نجاة، ولكن الحياة على جاري عادتها كانت أكثر جديّة وانضباطاً من أن تأبه بهما، أو أن تقدم لهما أي تنازل على حساب دقة نظامها وصرامة قوانينها. وإذ يئسا من معجزات أو خوارق تعيدهما إلى ما كانا عليه، أخذت عيونهما تتنقلان يميناً ويساراً، وفي كل الاتجاهات، في محاولة يائسة للتعرف على واقعهما الجديد. ولكن - وكأنهما عقلاهما كانا يرفضان القبول بالأمر الواقع - فقد كانا يريان الأشياء وكأنهما لا يريانها، كانت نظراتهما ترتطمان بالأشياء دون أن تعقلاها، كما ترتطم الحزم الضوئية بالأجسام الصلبة مخلفة عليها آثاراً وبقعاً ضوئية، فالظرف المتجاوز كل امتداد المدركات أحال فيهما إلى العدم كل الأفعال وردود الأفعال التي يتقن الوعي ممارستها. يتلاشى العقل أمام واقع يجهل أبسط مكوناته ومنطلقاته الأولى، ومصير يعجز عن مقاربة أي من خياراته. ينكفئ الفرح والحزن، الخوف والطمأنينة، والشك واليقين بانتظار تعاريف ومصطلحات جديدة تتسلقها تلك المفاهيم معلنة كينونتها من جديد. ينحسر البكاء عن ساحة الوعي والإدراك كرد فعل زائف مثقف، لتحل مكانه ردود

فعل غرائزية مشوشة ما تدخل فيها عقل ولا أنقتها إرادة. ومن خلال كل تلك الفوضى الغرائبية، أو الأناقة الفطرية بديعة التكوين، تتدحرج من بين شفتيه عبارة استعادها من العالم الآفل، أراد أن يرفع من خلالها بعضاً من معنوياتها المنهارة في محاولة يائسة منه للإيحاء لنفسه بأنه يقف على أرض متماسكة وصلبة:

- "الطيور الكريمة لا تتلجلج في أقفاصها".

ورأت بعينيها الزائغتين العبارة البائسة وهي تنسكب من شفته السفلى منسابة على ذقنه، لتتساقط أرضاً كقطرات من اللعاب سالت من فم فقد التحكم. واستعارت هي الأخرى من عالمها المتهاوي خلف الأمداء السحيقة طيف عقل صاغ فكراً ذاوياً مضمحلاً يستجدي الأبجدية:

- "الطيور الكريمة لا تتلجلج في أقفاصها" عبارة لها سقف ولها عتبة، لها حدود تحول دون تحويلها مصطلحاً فلكياً تنحني مفاهيمه لتحتضن أبعاد كون كامل.

منصاعين لجاذبية البقاء وحتمية التأقلم، كان عليهما أن يقبلا بالأمر الواقع وأن يتعاطيا معه راضيين بذلك أو غير راضيين. كان على ردود أفعالهما السلبية التي أشهراها في وجه واقعهما الجديد، أن تضمحل شيئاً فشيئاً مفسحة هامشاً ضيقاً للعقل كي يتلجلج فيه، ليخلق ردود فعل أخرى يصنّعها وفق مقتضيات الظروف الراهنة، هامشاً عليه أن يتسع مع مرور الوقت مانحاً العقل سلطاناً أقوى وحيزاً أوسع، محيلاً ما سواه إلى هامش ضيق ينكفئ متلاشياً أمام سطوة واقع جديد يفرض نفسه. ومن خلال هذا

الموقع الجديد العقلاني يتساءل:

– والآن، ماذا بعد؟

وأدركت أن عليها أن تمضي معه قدماً على طريق الانقياد إلى مرامي عقليهما، ولكن كمن يحاول أن يكثف حالة شعورية لديه، ويوثّقها لا رغبة بها بل تمهيداً لطي صفحتها والبدء بصفحة جديدة أجابته:

– أخشى أن يشرعن التفكير ما نحن فيه الآن.

– لا شرعية إلا لما هو موجود وقائم.

– هذا يعني قبولنا بالأمر الواقع.

– أولدينا خيار آخر؟

– هل أنت متأكد تماماً أننا لن نستطيع العودة إلى ما كنا عليه؟

– وهل نعرف كيف غادرناه كي نعود إليه؟ لقد كانت طقوساً عشوائية قمنا بها أنّى لنا أن نعيد ترتيبها من جديد؟

لم تكن تحتاج من يؤكّد لها تلك الحقيقة، ومع هذا فقد أجهشت في البكاء.

– تبكين! إذاً أنت تستعيدين نفسك الآن.

عام ٢٠٢٥ ميلادية

في مركز استقبال الإشارات الفضائية في دمشق، تبادلت الدكتورة لمياء مع معاونها المهندس طارق نظرات ارتياب ودهشة قبل أن يزدرد المهندس ريقه ويتساءل:

- لعلّ الإشارة غير خاضعة لمعيار المسافة.

بحيادية تامة أجابت:

- بل هي خاضعة له تماماً.

لقد اعتاد المركز أن يلتقط بين الحين والآخر إشارات فضائية من مجرات باهظة البعد عن الأرض، أما الآن فالإشارة تبدو وكأنها على مسافة لا تتعدى عشرات الأمتار من أجهزة الاستقبال. نهضت لمياء والتوتر باد على كل حركة من حركاتها، ومضت فأدارت المفتاح في قفل باب المكتب، ابتسم طارق ابتسامة هزيلة صفراء، وقال كمن يتحدث عن الآخر كي يعترف بما في نفسه:

- أجادة أنت بما تفعلين؟!

أجابته بهزّة متوترة من كفيها وعيناها ملتصقتان بالشاشة الإلكترونية قبل أن تهتف مذعورة:

- انظر، انظر، لقد تجاوزوا مرحلة إرسال الإشارات الفضائية، وهم الآن

يطرقون أبواب شبكتنا الخاصة.

- هل ندعّم كلمات المرور؟

- لا أهمية لذلك إنها تنهار واحدة إثر أخرى.

فعلاً كانت الأسوار تتهاوى والقلاع تتقوض، كانت الدكتورة لمياء ومعاونها المهندس طارق في تلك اللحظات، يعيشان إحدى الحالات الاستثنائية جداً، والتي قد يختبرها الإنسان في حياته، حالات لا تنعدم فيها إمكانية اتخاذ القرار فحسب، بل تنعدم فيها أيضاً إمكانية اتخاذ موقف واضح مما يجري، في مثل تلك الحالات قد يموت المرء في سبيل دفع أمر ما عنه، أو قد يموت في طلبه دون أن يدرك لسلوكه سبباً ولا لحماسه مبرراً، ومثل تلك الحالات هي من صنع لنا المفاصل الكبرى في تاريخ الحياة، ثم حملت الحياة فيما بعد هذا الإرث قدراً لا مفر منه، وتمترست الأجيال فيما بعد كل في خندق تياره، في حين لو أن أصحاب هذه التيارات ابتلع كل منهم ريقه قبل أن يتصرف لكان من الممكن أن يقوم بنقيض ما قام به، أو ربما كانوا قد تبادلوا الأدوار أو المواقف. ووسط تلك اللحظات الغرائبية استطاع طارق أن يجد لحظة يتكلم فيها بواقعية:

- دكتورة لمياء، عليك أن تبلغي السلطات المعنية.

- السلطات المعنية! عن أية سلطات تتحدث؟ إننا أمام قضية علمية ونحن أعلى جهة يمكنها التعاطي معها.

- لا، لا، الوضع خطير جداً وينبغي إحاطة السلطات السياسية والأمنية

بالأمر.

لم يكن ليغيب عن ذهن الدكتورة لمياء مثل هذا، ولكنها كانت تعلم أن هذا الأمر سيبدو مبتذلاً جداً بالنسبة للسلطات في ظل غياب أية معطيات حول ما يجري، وسيكون الإعلان عنه والحالة تلك أشبه ما يكون بتوقعات رأس السنة، يقدمها متنبئ ما على شاشة التلفزيون. ولكن لا بد مما ليس منه بد ، فعلاً يجب الاتصال بالجهات المعنية.

أجاب مدير مكتب الوزير:

- تفضل، من المتحدّث؟

- أنا الدكتورة لمياء رئيسة مركز استقبال الإشارات الفضائية، لديّ أمر خطير ينبغي ان أحيط سيادة الوزير به علماً.

- إنه الآن في اجتماع هام، سأبلغه بذلك عندما يفرغ من اجتماعه.

- أرجوك، الأمر لا يحتمل التأخير.

- سأحاول.

باستغراب أجاب الوزير:

- وهل لدينا مركز لاستقبال الإشارات الفضائية؟

أجابه مدير مكتبه:

- يبدو أن الأمر كذلك.

- قل لهم أن يعاودوا الاتصال بي غداً.

كانت الأحداث أسرع بكثير مما توهم السيد الوزير، فبعد دقائق معدودة تلقى مركز استقبال الإشارات الفضائية أول رسالة نصية وباللغة العربية:

"نحن شركاؤكم في الحياة، لكننا ننتمي إلى كون آخر هو الكون الزمني، أي أننا نسكن الزمان لا المكان. لدينا ما نقوله لكم فهل أنتم مستعدون؟"

وكمن يتصرف لأن عليه أن يتصرف، لا لأنه يعرف ما الذي ينبغي عليه فعله، وبعيداً عن أي وعي لما تقوم به، أو أي تحكم فيه أجابته الدكتورة لمياء برسالة جوابية:

"لا تسكنون المكان! لكن إشارتكم كانت خاضعة لمعيار المسافة".

وأتى الجواب الصاعق:

"نعم، ذلك لأننا تمكنّا من النفاذ إلى كونكم ونحن الآن على مدخل بنائكم"

لم تستطع لمياء وزميلها أن يتبادلا النظر هذه المرّة فقد تجمّدت عيونهما.

***

كانت سوريا لا تزال تحصي خسائر الحرب الشرسة التي دارت على أرضها، حرب تحلّقت دول العالم على مائدتها، وقد استدرجتها رائحة الدم وعروض المكتسبات الممكنة على حساب وطن يتداعى وشعب يسحق وشرف عالمي يداس. هذه الحرب التي امتد لهيبها من مدينة إلى مدينة، ومن بلدة إلى أخرى، غطّت تقريباً كامل الجغرافيا السورية مداً وجزراً، ولعلّ دمشق كانت الناحية رقم واحد في سجل كارثتها. صحيح أن النار قد امتدت لتحرق أطراف

ملاءتها، لكن قلب المدينة نجا بأعجوبة تباينت أسبابها بين تيار وتيار، وهذا التباين بين التيارات المختلفة ليس غريباً على دمشق، أقدم مدينة في العالم والتي كانت على مدى مراحل التاريخ ملتقى ثقافاته وحضاراته، وفي بعض من تلك المراحل كانت منطلق الثقافة والحضارة. دمشق التي كانت يوماً عاصمة لواحدة من أكبر إمبراطوريات التاريخ وأعظمها، لم تعرف يوماً من الأيام الرأي الواحد أو اللون الواحد، بل كانت على الدوام تتسع لكل وجهات النظر، وتستوعب كل بنات العقول. لذلك لم تكن دمشق بعين الأديان يوماً مدينة مؤمنة ورعة لأن الأديان - كل الأديان - دائماً لا تعترف إلا بنفسها، ولا تقبل وجهة النظر الأخرى. كانت دمشق من وجهة النظر الدينية ضيقة الأفق مدينة زنديقة منافقة وكان هذا بحق سر عظمتها وخلودها شاءت الأديان ذلك أم أبت. ولكنها ولأنها اعتادت أن تفتح قلبها وعقلها لكل التيارات الفكرية، فقد وجدت السلفية الظلامية في فترة ما قبل الحرب أبواب دمشق مشرعة، فدخلتها تحت جنح الليل بغطاء من مال قذر وسفارات متواطئة، وشكلت في أنحائها بؤر إرهاب وخلايا نائمة، حاولت عبر سنوات الحرب أن تُدخل المدينة في دوامة العنف التي دخلتها أكثر المدن السورية، لكن كل تلك المحاولات ذهبت أدراج الرياح، فالاقتتال الداخلي والحرب الأهلية فكرة غير موجودة طيات الفلسفة الدمشقية.

وبعد انتهاء الحرب أخذت دمشق - وهي الناجية بذاتها - تتحسس جراح الوطن عامة، تستقرئ الواقع الذي حصل، وتستخرج منه النتائج والعبر. أسرع الارتكاسات وأكثرها سهولة كانت ردّات الفعل التلقائية والسطحية. فالإلحاد في مواجهة جرائم المجموعات الدينية المتطرفة، والتنكر للعروبة في

مواجهة مؤامرات بعض الدول العربية على سوريا. حيث إن سلوك طريق اللامبالاة، والتنصل والتخلي، هو دائماً أسهل ما يمكن أن نواجه به واقعاً أليماً تصعب دراسته، ويتعقد تحليله واستنباط أسبابه، والمؤثرات التي أدّت إليه، وصولاً إلى تشخيص علله ومعرفة العلاج الناجع له. وإضافة إلى ردات الفعل التلقائية والسطحية تلك، كان هناك من يحاول أن يضع للبلاد برامج للنهوض من جديد اعتماداً على مرتكزات تاريخها، وخصوصيات مجتمعها، ومميزات مكوناتها المختلفة. في حين رأى آخرون أن ما أوصل البلد إلى ما هو فيه هو ذلك التاريخ وتلك الخصوصية، ولا نهضة من هذا الواقع المرير الذي نعيشه إلا بفرمتة عقول أبناء هذا البلد، وإعادة تشكيلها من جديد. وهناك الفئات التي كانت مهمشة تاريخياً، وبعيدة عن سجال الأحداث، ومواقع اتخاذ القرار، والتي رأت فيما حصل فرصة لها لتظهير نفسها، ومحاولة إقناع الآخرين أن الحل كان دائماً في جعبتها، وتحت عباءتها، لكن الخطأ الجسيم الذي حصل كان في الإعراض عن نهجها، وعدم اعتماده. وهكذا انتشرت في طول دمشق وعرضها تجمعات ونواد متعددة، كل منها يعبر عن شريحة ما من المجتمع، قد تكون كبيرة أو صغيرة، لكنها بكل الأحوال تنتمي إلى نسيج المدينة وتشكل طيفاً ما من أطيافها. ففي المزة كان "لقاء ثراء الأسبوعي" وفي أبو رمانة كان "منتدى زكي الأرسوزي" وفي القصاع "خمارة جورية" وفي العفيف "تجمع أنطون سعادة" وفي حي الأمين "ملتقى سيد الشهداء" وفي حي الشيخ محيي الدين "نادي سلطان العارفين".



ما من شيء في الحياة لا يملك وجهاً إيجابياً، ذلك سرّ من أسرارها يفصح عن عبقريتها التي لا تنفد. فحتّى العبارة الأقسى والأكثر تجهماً التي قرأها دانتي على بوابة الجحيم "دعوا كلّ أمل وراءكم أيها الداخلون"، حتى هذه العبارة تمنح النفس شيئاً من الراحة والاستسلام للقضاء المحتوم الذي لا دور لنا في اتقائه يرتب علينا أي واجب يفترض بنا الاضطلاع به. هكذا واجه ميثاق حياته الجديدة أو هكذا واجهته، مضى عبرها كما لو أن أفعاله فيها مجرد ردّات فعل ليس أكثر. كل عمل يقوم به يضاف إلى تفاصيل قدره، ويغدو جزءاً من الأمر الذي يبنى عليه مقتضاه. وما جعل القضية أكثر بساطة أن لا مرجعية لخطأ أو صواب، ولا شاهد على هذا ولا متضرر جرّاء ذلك . وبصورة مماثلة، وبذات الأفعال المقنّعة بردود الفعل التي لا يتخذها قرار ولا يبدي رأياً بها عقل، وجدت الدكتورة لمياء وزميلها المهندس طارق نفسيهما في جلسة مغلقة مع اثنين من علماء كون الزمن. جلسة على هذا القدر من الأهمية لا يعلم بها إلّا أطرافها الأربعة.

ساد الصمت والوجوم جوّ اللقاء لبرهة من الزمن. فبالرغم من تزاحم الأسئلة على لساني لمياء وطارق، فإن شعوراً غريباً وغير مبرر تملكهما معاً، شعوراً بأن في واقع الشخصين أمامهما عاراً ما وهما يتحرجان من استيضاحهما عنه، أو حتى النظر إليه أو محاولة استكشافه. على الضفة الأخرى كان الزائران في موقع آخر تماماً، لا يتملكهما ارتباك ولا يعوزهما وضوح رؤية أو تحديد مسار. وإن كانا قد التزما الصمت في الدقائق الأولى، فليس مرد ذلك إلى عجزهما عن التعاطي مع الموقف الذي هما فيه، بل إن لهذا سبباً واحداً فقط، وهو إفساحهما المجال لمضيفيهما كي يبادرا بالترحاب

بهما كما تقتضي الأصول والأعراف. تفحصت عيون لمياء وطارق الضيفين من أعلى رأسيهما إلى أخمص قدميهما، كل ما فيهما كان يبدو عادياً للغاية، من مظهرهما العام إلى لباسهما إلى لغتهما العربية المتقنة التي ألقيا بها التحية لحظة دخولهما وتعريفهما المبدئي عن نفسيهما، كل هذا كان يربك المضيفين أكثر فأكثر، لقد كانا بحاجة ماسة إلى العثور على أي شيء غريب في ضيفيهما يبرر لهما حالة التوتر والارتباك التي تسيطر عليهما، وتجعلهما لا يعرفان كيف يبدأان الحديث. كسر الرجل الضيف حاجز الصمت مازحاً، وهو يشير إلى كيس احتوى بعضاً من مناقيش الزعتر الساخنة:

- لقد ابتعناها من الفرن الذي على ناصية الشارع.

- ولكن كيف حصلتما على العملة السورية؟

- الأمر بسيط جداً، بعت خاتماً ذهبياً كنت أحمله إلى أحد الصاغة في دمشق.

كان واضحاً أن الضيفين يحاولان بعفويتهما تلك أن يحطما الحواجز بينهما وبين مضيفيهما وقد نجحا في ذلك قليلاً، وبعد أن استنفد الموقف الغريب مداه واستعاد طارق وعيه وتوازنه شيئاً ما سأل ضيفه قائلاً:

- قلتما في رسالتكما الإلكترونية إنكما قادمان من الكون الزمني، ولكن الزمن هو أحد مكوّنات كوننا أيضاً!

- ما تتمتعون به من الزمن لا يعدو كونه قنصلية لكوننا لدى كونكم، كون المسافة

- وكيف ذلك؟

- ماذا تعرفون عن الزمن؟ وهل يمكن أن تقارنوا إحساسكم به وامتلاككم له بإحساسكم بالمسافة وامتلاككم لها؟ أنتم مثلاً تستعملون في علاقاتكم الفيزيائية مقدار الزمن مضروباً بنفسه كما في علاقة السقوط الحر، ولكن هل يمكنكم استيعاب المعنى الفيزيائي لذلك؟ أي هل تستوعبون معنى الزمن المربع أو الزمن المكعب كما تستوعبون معنى المسافة المربعة والمسافة المكعبة؟

- ما تقولونه عن علاقتنا بالزمن ينطبق على الكتلة أيضاً.

- تماماً، ذلك لأن للكتلة كونها الخاص بها أيضاً. ولعلكم تقاربون الكتلة أكثر مما نقاربها نحن لوجود تقاطع بين كون المسافة والكون الكتلي كما هو الحال بين كون المسافة والكون الزمني. أما نحن فلا تقاطع أبداً بين كوننا والكون الكتلي.

- حسن، ولكن كيف تمكنتما من النفاذ من كونكم إلى كوننا؟

ببساطة وبدون تردد أو مجاملة أجاب الضيف:

- عملنا على جهازنا الطاقي، فقمنا بتثبيط الملكات العليا لدينا، وتحفيز النوازع الدنيا حتى تمكنا من النفاذ إلى كونكم.

قاطعته الدكتورة لمياء محتجة:

- أرجوك، هذه إهانة!

- أنا من يرجوك سيدتي، لا مجاملة في عرض الحقائق وتوصيفها.

اتسم الموقف بعدائية ما على الأقل بالنسبة لممثلي المسافة، ومن هذا الموقع الجديد تتساءل الدكتورة لمياء:

- هل لنا أن نعرف من تمثلان؟

أجابها الضيف:

- أنا البروفسور شيث رئيس الأكاديمية العليا للعلوم الطاقية في كون الزمن.

- تشرفنا بمعرفتك بروفسور.

ثم التفتت إلى السيدة مبتسمة ابتسامة بروتوكولية متسائلة:

- وحضرتك؟

- نحن شخص واحد.

- ماذا؟!

- أجل، نحن شخص واحد بجسدين.

تبادل المسافيان ما بينهما نظرة حيرى قبل أن تتابع السيدة الزمنية قائلة:

- لماذا تتقبلان أن يكون للواحد منكم يدان وترفضان أن يكون للواحد منا جسدان؟

أوضح الرجل الزمني قائلاً:

- "شيث" هو الكيان المزدوج الممثل لنا كلينا، ولكن هذا لا يمنع أن يكون لكل من شطرينا اسم خاص به، فأنا أدعى حزقيل والسيدة التي معي تدعى راحيل. هذا في كوننا، الكون الزمني. ولكن عندما نفذنا إلى كونكم فقد انشطر كياننا، ونحن حالياً شخصان منفصلان فعلاً، ولكن ما إن نعود إلى كوننا حتى نستعيد ثنائيتنا من جديد.

عاد الوجوم يخيم من جديد على المجلس، فما سمعه المسافيان كان أغرب من أن يتفهماه فوراً ويمعنا في مناقشته، لكن حزقيل قطع هذا الوجوم الذي لا طائل منه بقوله:

- حسن، لنتحدث الآن عن السبب المباشر لزيارتنا، إن أحد أبناء كوننا واسمه ميثاق، قد نفذ إلى كونكم مصادفة، وبطريقة غير علمية أثناء ممارسته طقوساً طاقية في ناد شعبي، وبالتالي فهو عاجز عن العودة بمفرده، ونحن هنا للبحث عنه وإعادته.

- ولماذا تم اختيارنا بالذات بين دول الأرض؟

- معلوماتنا تفيد أنه في مكان قريب من هنا.

- ومتى حدث هذا؟

تبادل الزمنيان ما بينهما نظرة سريعة لم تكن لتخفى على لمياء، قبل أن يتابع حزقيل:

- نحن لا نؤرخ لأحداثنا، فالزمن ملك لنا نتجول فيه جيئة وذهاباً حيث نشاء.

- تتنقلون في الزمن حيث تشاؤون؟ أي أنكم لا تموتون!

- لا، نحن لا نشيخ ولا نموت.

- وكيف تحلّون مشكلة التزايد العددي لديكم؟

- نحن لا نتكاثر.

ساد الصمت من جديد أجواء اللقاء. ولكن قبل أن تطول فترة الصمت والوجوم، نهض الزائران الزمنيان استعداداً للانصراف، وبابتسامة ودودة قالت راحيل:

- كانت زيارتنا اليوم مفاجئة، ستكون لنا لقاءات كثيرة أخرى تكون أفكارنا فيها أكثر ترتيباً واتساقاً، وسنعرفكم من خلالها أكثر فأكثر، كما ستعرفون عنا كل ما تحبون معرفته. كما أننا نأمل بالعثور على مواطننا ميثاق في أسرع وقت ممكن كي لا تطول فترة تطفلنا عليكم.

أجابت لمياء مبتسمة بدورها:

- فعلاً كانت الزيارة مفاجئة، فلم نتمكن من ترتيب استقبال لائق لكم. ولكن هل لنا أن نعرف إلى أين أنتما ذاهبان الآن؟ ألا يفترض أن تتريثا إلى أن نتدبر مع الجهات المعنية أمر إقامتكما؟

- لا عليكما لقد تدبرنا أمرنا تماماً، فقد حجزنا في فندق قريب دون أن يرتاب أحد بأمرنا، هذا سيمنحنا يوماً من الحرية والتعاطي العفوي مع مجتمعكم للتعرف عليه بلا رتوش. غداً سيكون لنا لقاء آخر، وسنخضع بعده تماماً لكل الترتيبات الشكلية التي ترونها مناسبة.

ثم خرجا ببساطة وعفوية، وكأنهما ضيفان عاديان أمضيا بعضاً من الوقت مع صديقيهما، ثم ذهبا لشأنهما تاركين هذين الصديقين في حالة من انعدام الوزن والكثافة والحضور. بعد أن غادر الزمنيان المبنى كان طارق ينظر إلى لمياء بعينين بلوريتين كمن هو واقع تحت تأثير تنويم مغناطيسي:

- هل حصل هذا فعلاً أم أنني يُهيّأ لي؟

قالت لمياء بعد فترة صمت قصيرة نجحت خلالها باستعادة بعض مما تشظى من كيانها:

- برغم كل شيء أجد في ذهني متسعاً لربط الأمور بعضها إلى بعض، إنهما يعرفان عنا كل شيء، يعرفان طريقة النفاذ إلينا وواثقان من قدرتهما على العودة أيضاً، تحدثا عن علاقاتنا الفيزيائية، يستوعبان كل مفاهيمنا المكانية والمسافية، يتكلمان لغتنا العربية وكأنهما طويا عمريهما يتنقلان ما بين تيماء وذي سلم، لوهلة تراءى لي أنهما سيقرأان على مسامعنا أبياتاً من المعلقات العشر، ولو طلبنا إليهما ذلك لفعلا . فقط يجهلان سيرورة الزمن لدينا - وهم أبناؤه - فلا يعرفان متى فقدوا المدعو ميثاق. لاشك أنهما يخفيان عنا شيئاً.

انتشرت قصة الزائرين الزمنيين في طول دمشق وعرضها انتشار النار في الهشيم. نسي الناس تمرّد مصروفهم اليومي الذي لم يعد يخضع لقواعد الجمع ولا لجداول الضرب، نسوا نفقات مدارس أولادهم وأجور الدروس الخصوصية وأثمان الدواء وكشفيات الأطباء، نسوا رواتبهم الممزقة بين هذا وذاك وذلك، ودفعهم فضولهم أن يستعلموا عن ذلك المبنى الذي قيل لهم أنه يدعى "مركز دمشق لاستقبال الإشارات الفضائية" ويعبروا عمداً أمامه،

فكان إقفاله يرجح في أذهانهم صحة ما يسمعونه. وسرت أقوال في الشارع الدمشقي مفادها أن كل العاملين في المركز المذكور هم قيد التحقيق الأمني، حتى الفندق الذي نزل فيه الزائران كان خارج الخدمة أيضاً، والفرن الذي ابتاعا منه مناقيش الزعتر، بل إن كثيراً من الصاغة في دمشق باعوا خواتم لديهم بأسعار خيالية على أنها هي الخاتم الزمني، ولكن لا إعلان رسمياً حتى الآن عن أي شيء. خطيب الجامع الأموي تحدث بطريقة مواربة لا يُخطئها فهمٌ فقال إن كل ما اكتشفه العلم حتى الآن، وما يمكن أن يكتشفه لاحقاً في قادمات الأيام لا يمكن إلا أن يصب في خانة قدرة الله على كل شيء، فكانت خطبته بمثابة تأكيد لما يتناقله الشارع. أما كبيرة الراهبات في الكنيسة المريمية فقد رسمت على صدرها إشارة الصليب وغمغمت: "قدوس، قدوس". تحدث كثيرون عن التطابق المذهل في كل شيء بين الزائرين والبشر، وكثيرون آخرون اعتبروا أن كل ما يقال محض شائعات لا أساس لها من الصحة. ناشط على الفيسبوك قال إن حجم الكائنات الزمنية لا يتعدى حجم الدمى التي يلهو بها الأطفال، ويبتسم في المرآة لركابه سائق سرفيس "كفر سوسة" مؤكّداً لهم أنهما أكبر حجماً بقليل، في حين أن بائعة خضار على بسطة قرب أحد مداخل ساحة المرجة همست بسرية تامة أنهما أشبه بأكياس من النايلون مملوءة بسائل أخضر مائل إلى الصفرة. وبعد أن فاض كأس الشائعات بما امتلأ به وسالت محتوياته في كل حدب وصوب، أنهى مسلسل التخرصات تلك خبر عاجل ورد على تلفزيون دمشق الرسمي وبالخط العريض: "خبر من العيار الثقيل سيتم الإعلان عنه في غضون ساعة من الآن". انتقل بعدها التلفزيون إلى بث لقطات مصورة لمدينة دمشق

مصحوبة بأغنيات وطنية تتغنى بالمدينة العريقة.

تناقلت فضائيات العالم خبر "الخبر العاجل" على تلفزيون دمشق وسط تكهنات متباينة حول مضمونه، وبعض منها عمد إلى بث مباشر مستضيفاً إحدى الشخصيات المعارضة للتفاعل الفوري مع الخبر فور إعلانه.

قبل دقائق من إعلان الخبر، كانت كل فضائيات الأرض تتوجه إلى تلفزيون دمشق، لتنقل وعلى الهواء مباشرة ما يبثه، بعد أن وصلت وبشكل متزامن إشارات فضائية إلى كبريات المراكز الفضائية في دول العالم مصدرها الكون الزمني، تعلن فيها أن تواصلاً قد حصل بين الكون الزمني وبين مركز استقبال الإشارات الفضائية في دمشق، وأن التلفزيون الرسمي هناك على وشك إعلان التفاصيل. وظهر على شاشة التلفزيون رئيس الحكومة في دمشق ترافقه الدكتورة لمياء مسلحة ببريق مزدوج، شطر منه طفح على محياها نابعاً من أعماقها ولّدته لديها صدفة من كون آخر، وشطر زُيّن في عيون مشاهديها الذين كانوا جميعاً يغبطونها على ما هي فيه، هذا البريق جعلها تبدو وكأنها تصطحب رئيس الحكومة معها في لقاء تلفزيوني، كخطوة أولى في رحلة نجومية قادمة ستتجاوز كل الأطر والحدود. أعلنت للعالم أجمع نبأ الوافدين الزمنيين، وكيف أنهما فرضا نفسيهما أمراً واقعاً في دقائق متسارعة بدون مقدمات وبدون أية ترتيبات مسبقة، محتكرين لنفسيهما كل خيارت الحدث، تاركين مضيفيهما أعزلين من كل قرار. وتحدّثت عن مواصفاتهما الشكلية المطابقة لنا تماماً، وعن طبيعتهما المزدوجة والغريبة التي تجعل من الواحد منهم اثنين، اثنين يتماهى أحدهما بالآخر كما يخلد الشخص منا

لنفسه، ولم تغفل أثناء حديثها أن تنوّه عن شبابهما الدائم وخلودهما في وجه الموت، ثم أوضحت ملابسات مهمتهما وأسبابها والمصادفة التي جعلت من دمشق محط هذه المغامرة، في حين تحدث رئيس الحكومة بمزيد من الأسف والبروتوكولية عن محنة المواطن الزمني ميثاق متمنياً العثور عليه في أقرب وقت، وواعداً حكومة الكون الزمني بتقديم كل المساعدات الممكنة ووضع كل الإمكانيات المتاحة تحت تصرف المندوب الزمني الضيف.

***

عبرت مياه الفرات منسابة بطريقة كان لها فعل التنويم المغناطيسي على حشد الجمهور الذي اكتظت به الصالة الكبيرة، جمهور اجتذبه اسم ساحر آمر معاً لنجمة التمثيل الأولى والدكتورة في الدراسات الفلسفية ثراء. وبعد أن استسلم الجميع لسحر إيقاع الفيلم، تتابعت لقطاته كاشفة عن ساحة معبد إنليل المحارب وقد احتشد فيها كل القادرين على حمل السلاح، احتشدوا ليتلقوا بركاته سائلين إياه ان يهب لهم بعضاً من فنونه وقدراته الخارقة قبل أن يتوجهوا إلى ميدان المعركة، فقد أحدقت جيوش بابل بمملكة الفرات وألحت على غزوها، فكان لا بد أن تعلن ماري حالة النفير العام لمواجهة جيوش العاصمة الكبيرة وردها على أعقابها. كان الإصرار والإيمان الباديان على وجوه المحاربين الأشداء يؤكدان أن الهزيمة محظورة على ماري، وأن النصر آت لا ريب فيه.

وبعد أن أدى المقاتلون طقوس إنليل اتجهوا لملاقاة رجال بابل، فخلت ساحات ماري وأزقتها، وأقفرت ميادينها وأسواقها، وانغلقت أبواب

المنازل ونوافذها على النساء والأطفال وعلى الانتظار القلق والترقب القاتل.

ورأت أبراج إنليل أبراج عشتار تهتز نشوة وطرباً، فأدركت أن أورنينا ماضية إلى ربتها، كانت الطريق الملتوية على ضفاف الفرات، المؤدية إلى معبد عشتار، تميد تحت قدميها، وهي تشخص إليها كيف تميس بقدها المشيق، المنتصب كرمح سمهري، مختالة بشلال شعرها الفاحم المنسدل على كتفيها العاجيين الملتف حول عنقها المديد. وعندما بلغت بوابة المعبد، قبلت حجارتها فردد تجويف المعبد الهائل صدى القبلة قبلة أخرى طبعها على خدها، فصعرت خدها زهواً ونشوة، ودلفت إلى الداخل، وهناك تعلقت بأستار نصب عشتار الصخري ضارعة ببوح مهموس:

- أيتها الربة الجليلة والجميلة عشتار!

ليس من أجل آريان وسواه من أطفال ماري خرج رجال ماري إلى الحرب.

وليس من أجل أن تغدو ماري سيدة لسهل شنعار خرج رجال ماري إلى الحرب

بل من أجل ألا تستبدل بابل آلهتها بك أيتها الربة الجميلة والجليلة.

أجل من أجل هذا . . . من أجل هذا.

ثم كررت ما قالته غناء هذه المرة، كررته وكررته حتى بحّ صوتها من الغناء، إذ ذاك تكلمت الربة الجليلة عشتار، وحدثت أورنينا بصوتها العذب الشجي:

- أباركك أيتها العابدة المؤمنة بعبادتها.

أباركك أيتها التقية الورعة بتقواها.

أباركك أيتها المحبة الخصبة بحبها.

وأعدك بالنصر وأقول لك:

أحبك أحبك أحبك.

عندما سمعت أورنينا كلام عشتار، نسيت آريان طفلها الرضيع الذي يتلظى بدائه في مهده، نسيت شقيقها وزوجها ماريان اللذين ذهبا هذا الصباح إلى ميدان المعركة، نسيت كل شيء، وعاشت فقط جو الحب الغامر الذي هطلت عشتار به على أرجاء المعبد، فأخذت تغني وترقص إلى أن سقطت مغشياً عليها. وعندما أفاقت من غيبوبتها، قبلت أقدام عشتار، ومضت إلى بيتها لتجد آريان يضحك ويمرح وقد أبلّ من دائه تماماً.

كان نزار يتابع أحداث الفيلم بانسجام كامل، فكون بطلته الدكتورة ثراء هي كاتبة قصته أيضاً يلقي إضاءات واضحة على شخصيتها التي ما تزال مستعصية على فهمه. تمرّد شروده على انسجامه فدخل دون أن يدري حالة من الغيبوبة انفلتت فيها هواجسه وذكرياته بفوضوية مارقة على نواميس الزمن الصارمة. تذكر لقاءه الأول بالدكتورة ثراء، كان إذ ذاك مشتت الذهن يتساءل كيف ستقابله، وبأي الأساليب ستحاول احتواءه، بل كيف سيقابلها هو؟ أيخاطب فيها الدكتورة في الفلسفة، أم الأديبة المتفردة، أم نجمة التمثيل الأولى؟ النقطة الأكثر خطورة هي أن تكون أخته سحر قد أخطأت في رسم

شخصية ثراء في دفتر مذكراتها، فهذا احتمال وارد جداً، رغم نجاحها غاية النجاح في تحديد كامل أبعاد شخصية ابنة أختها وربيبتها لميس، ولكن واضح سلفاً أن لا مجال للمقارنة بين المرأتين. أدرك بحاسته السادسة أن وصول ثراء بات وشيكاً، وخلاف ما كان يتوقع، فقد أحس بشجاعة وليدة في كيانه تؤهله لمقابلة تلك المرأة مهما كانت مواصفاتها. وما هي إلا لحظات حتى بدت الدكتورة ثراء ضمن إطار الباب كمن يعبر برزخاً بين عالمين، وبمنتهى الهدوء والثقة بالنفس وقف قائلاً:

- أهلاً دكتورة ثراء.

قالت وهي تقترب مادة يدها للمصافحة:

- أهلاً بك يا عزيزي.

كانت سيدة أربعينية جميلة الوجه مشيقة القامة يطل من عينيها ذكاء وقاد وترتسم على محياها أمارات تسلط واضح، قد جمعت شعرها الأشقر الذهبي إلى قمة رأسها بوساطة عقد لؤلئي، مما أعطى عنقها الطويل النافر إلى أعلى مهابة خاصة. رأت لميس أن عليها أن تلعب دوراً ما كهمزة وصل بين الغريبين، فنظرت إليه وقالت وهي تشير إلى خالتها:

- خالتي، الدكتورة ثراء.

أجاب متظرفاً:

- علم في رأسه نار.

فانبرت ثراء بسرعة وكأنها تعلن لابنة أختها أن ابقي أنت جانباً:

- أنا عرفته أيضاً هو زميلك نزار.

انكمش على نفسه قليلاً، فهذا الجانب الفظ في شخصيتها لم يعلن عنه دفتر مذكرات أخته، لكنه واسى نفسه قائلاً:

- "رغم كل شيء فأنا أعرف عنها الكثير وهي لا تعرف عني شيئاً".

أحس بعينيها تخترقانه من كل الجهات، فتحاشى النظر إليها تاركاً لها مسؤولية البدء في الحديث.

- رغم كونك لست أول من أتعرف عليه من الأصدقاء عن طريق لميس مع ذلك أحس أن لك وضعاً مختلفاً.

أحس بالارتباك وهو يعلم أن ذكرى أخته سحر تطوف الآن في مخيلتها، فهي الوحيدة قبله التي دخلت هذا المكان عن طريق لميس، لكنه حاول أن يصطنع الهدوء:

- هل أفهم أنني حظيت بشرف صداقتك؟

ابتسمت وهي تنظر إليه نظرة قادرة على رؤية كامل دائرة الأفق:

- يبدو أنك ممن يجيدون اللعب على الألفاظ.

قال مرتبكاً:

- عفواً لم أكن أعني . .

قاطعته وهي لا تزال مبتسمة:

- أبداً، لقد أسعدتني محاولتك الساذجة.

وتابعت بلهجة رقيقة آمرة، ترافقها ضحكة مكتومة كخلفية تتراقص عليها نبرات صوتها:

- قم معي أعرفك على أقسام بيتي.

كانت فرصة بالنسبة إليه للإفادة من معلوماته المسبقة عن ثراء ومنزلها. فهي ولا شك تريد إبهاره بفخامة البيت وغرابته، في حين يعرف كل شيء عن تفاصيله عبر صفحات ذكريات أخته. ولكن ماذا يمكن للسطور أن تصف من عالم متكامل بديع التكوين والتنسيق؟ هل يمكنها أن تتحدث وبما فيه الكفاية عن طريقة الإضاءة في أبهاء هذا القصر، وانعكاساتها عبر مرايا مثبتة في مواقع مدروسة بطريقة هي غاية في الدقة، وعن اختلاج ظلال الطيور المحنطة أمام أضواء الشمعدانات الشاحبة، مما يكسبها هيئة الطيور التي تهم بالطيران، أم هل يمكنها أن تصف صوت الخطوات على بلاط الممرات الطويلة، وما يتركه في النفس من إحساس غامض مجهول. ها هو ينبهر ورغماً عنه فيتحقق لثراء مأربها.

حاول نزار أن يستعيد متابعته لأحداث الفيلم، ورغم أن المعركة بين ماري وبابل كانت رهيبة جداً تحبس الأنفاس في الصدور، وتجعل العيون تلتصق بالشاشة وبشكل قسري. فإن شروده عاد يستولي عليه، وعادت نبرات ثراء ترن في أذنيه:

- البيت ليس مجرد جدران يختفي المرء وراءها عن عيون الآخرين، بل هو جزء من ساكنه، يكمله ويعمل على استقراره النفسي والروحي. وبما أن الناس ضروب شتى في ميولهم وأهوائهم وأذواقهم، فهذا يستدعي ألا

يتشابه بيت مع بيت آخر. قد توجد بيوت كثيرة تفوق بيتي جمالاً وروعة في التصميم، لكنه قطعاً أكثر البيوت ملاءمة لطريقة حياتي، وطبيعة شخصيتي، لذا تنساب أيامي ضمن جدرانه بسلاسة وعفوية مطلقة.

- لا أفهم لماذا يلعب البيت هذا الدور البطولي في حياتك.

- إنه ليس مجرد بيت ، عندما تعرفني أكثر ستفهمني أكثر.

رأى أن يستغل معلوماته السابقة عنها في توجيه دفة الحديث نحو وجهة يعلم أنها تهيم بها، علّ ذلك يختصر عليه مشوار الوصول إلى عالمها الخاص.

- إنني مذ دخلت هذا المكان وأنا كمن يعيش في حكاية من عالم ألف ليلة وليلة.

- إطلاقاً، فأنا أبعد ما أكون عن شخصية شهرزاد.

- لست أدري ، المهم هو أنني أشعر أن هذا البيت ينطوي على جانب أسطوري.

قالت ثراء وقد سرت بالفرصة السانحة كي تتحدث فيما تحب:

- يحلو لي أن أشبهه بال "لابورينث"، هل سمعت به؟

هز رأسه أن لا، فأردفت:

- إنه قصر التيه، القصر الذي بناه مينوس ملك كريت، وجعل من قبوه متاهة حقيقية أسكن فيها "مينوتورس"، المخلوق العجيب، الذي نصفه ثور ونصفه الثاني إنسان، والذي أهداه إياه الإله بوسيدون. وعندما قتل ملك

أثينا ابن مينوس الرياضي الشاب، أعلنت كريت الحرب على أثينا، وهزمتها، وفرضت عليها معاهدة جائرة، تقضي فيما تقضي أن ترسل أثينا وبشكل دوري مجموعة من خيرة شبابها وشاباتها وجبة مقدسة للمينوتورس، إلى أن جاء دور ثسيوس ابن ملك أثينا، الذي استطاع بما أوتي من عزم وقوة، وبتآمر أريادني ابنة مينوس معه أن يقتل المينوتورس وينجو بنفسه.

استمع إلى حكايتها الطويلة تلك وهو يشعر أن الأسوار بينهما بدأت تنهار واحداً إثر آخر، وأنه يمكنه الآن أن يخاطبها بشيء من الندية:

- وهل يوجد هنا مينوتورس؟

- توجد نسخة عصرية منه.

- وتسكن في القبو؟

- بل تسكن القصر نفسه.

وحين نظر إليها مستغرباً أردفت:

- أنا مينوتورس هذا البيت.

- وهل لك ضحايا بشرية؟

- بطريقة ما.

- من هم؟

- زوار هذا البيت.

تجرأ وقال:

– هل تأكلينهم؟

– بطريقة عصرية، فأنا نسخة عصرية من المينوتورس كما قلت لك.

نظر إليها ملياً ثم قال:

– هل تعتقدين أنك واقعية؟

– إن كنت تقصد بكلمة "واقعية" أنموذجاً من البشر تجده وراء كل باب، فلا، أنا لست واقعية. أما إن كنت تعني بها أنني يمكن أن أنتمي إلى هذا الواقع، فأنا أكون إذ ذاك واقعية جداً لأنني أنتمي إليه كما ترى.

ثم تابعت بلهجة أكثر جدية:

– أن يكون لي بيتي المميز، فهذا حق شرعي لي. وأن أعيش بأسلوب متفرد أيضاً، فهذا حق آخر لي سيما وأنني أبداً لا أفرضه على الآخرين، ولا ألزم به أحداً. أنا أعترف بغرابة بيتي وأسلوب حياتي، ولكن هذا ليس ارتجالاً أو رغبة مجردة في التمايز، بل كل ما تراه أمور موظفة بدقة لتخدم هدفاً محدداً بعناية.

***

انطوى خالد داخل نفسه في إحدى زوايا صالون بيته الفسيح في "أبو رمانة" كمن هو مكبّل في وجار وحش كاسر. فالأماكن الواسعة تغدو - وهي خاوية - متوحشة تفترس أصحابها، خاصة إذا كان القابع في إحدى زواياها هو أصلاً فريسة أفكار وهواجس تقض مضجعه وتقلق راحته. ضيوفه الذين اعتادوا اللقاء في بيته أسبوعياً، والذين يمثلون البقية الأخيرة المتبقية

من أنقاض حزب البعث، بدؤوا يتناقصون أسبوعياً، ليس لإحساسهم بعبثية انتمائهم الذي أصبح منقرضاً في أعين الغالبية العظمى من المجتمع فحسب، بل أيضاً لأن أمه غزوة خانم كانت ترسل إليهم وباستمرار – وإن كان بشكل غير مباشر – رسائل كراهية، تحاصرهم وتشعرهم على الدوام أنهم مدفوعون بقوة خفية شبحية صوب باب البيت.

والده رشيد بك - رحمه الله - كان أحد أكبر تجار دمشق، وكان يملك سلسلة من المحال التجارية في مختلف أسواقها الرئيسة. ولكنه لم يكن من الذين أحسنوا ركوب الأمواج المتبدلة في بدايات النصف الثاني من القرن الماضي، فاعتقل زمن الوحدة بين سوريا ومصر وهو لما يبلغ العشرين من عمره بعد. ولم يكن حظه أوفر فيما تلا زمن الوحدة أي في زمن الانفصال. سوء طالعه هذا جعله يفقد مواقعه في السوق تدريجياً - وإن كان قد صان نفسه من الانحدار نحو الإفلاس - وجعله أيضاً يرجئ موضوع زواجه لحين تحسن حالته المادية، هذا التحسن الذي لم يحصل. زواجه فيما بعد أثمر عن ابنه البكر "طه" وعن وفاة زوجته أثناء الولادة. ومن زوجته الثانية غزوة خانم أنجب ابنه خالداً، ليتركها بعد سنتين مع طفليه طه وخالد، ويسلك طريق الراحة الأبدية.

انتمى خالد إلى صفوف حزب البعث العربي الاشتراكي أثناء المرحلة المدرسية رغم معارضة أمه، وكان من القلائل بين زملائه الذين انتموا إلى الحزب بدافع رغبة حقيقية. كان مأخوذاً بما يقرأ عن التاريخ العربي الإسلامي، وعن الفتوحات العربية الإسلامية. وقد وضع خارطة كبيرة

مرفقة بمخطط زمني على جدار غرفته، وضحت وبمصطلحات لونية الحركية المكانية والزمانية لدول الخلافات الإسلامية المتعاقبة. كان يفكر أحياناً "ماذا لو أن العرب المسلمين لم يفتحوا دمشق؟" ثم يحمد الله على نعمه، فهو لا يطيق حتى مجرد التفكير بعدم حدوث هذا الفتح. أكثر ما كان يسكره وهو يقترب من سن العشرين، ما كان يقرؤه عن حصار المسلمين لدمشق، ثم دخولهم إليها دخولاً مزدوجاً: سلماً على يدي أبي عبيدة بن الجراح، وحرباً على يدي خالد بن الوليد . "خالد بن الوليد"! أية هبة إلهية جعلت والده رشيد بك - رغم كونه غير مهتم بهذه الأمور كما علم من أمّه فيما بعد - يخلع عليه اسم هذا الرجل العظيم؟ بالتأكيد ليس من فراغ قام الفاروق بعزله، نعم كي لا يفتتن به الناس.

عندما دخلت أمه وجلست قبالته في الصالون صامتة، كان خالد يعرف مسبقاً ما هو الحديث الذي يتحضر في رأسها، ثم تترتب كلماته وجمله خلف شفتيها، والذي ستبدو عند البدء به كمن يهذر بكلمات هي بنت لحظتها. وهي لا تملّ أبداً من الاضطلاع بهذا الدور التمثيلي مهما أشار المحيطون بها - تلميحاً وتصريحاً - إلى أن استراتيجيتها تلك أصبحت بائدة ومكشوفة جداً، بل وتدعو إلى السخرية أيضاً. على حين غرّة، وبدون ترتيب مسبق خطر لها أن تتساءل:

- قلت لي سيعود طه من فرنسا بعد أسبوع أليس كذلك؟

- نعم، قلت هذا.

كان طه قد رحل إلى باريس حيث يقيم خاله بعد حصوله على الشهادة

الثانوية لمتابعة تحصيله الجامعي هناك، وفراراً من واقع لم يسترح إليه، ولم يجده منطقياً ولا مقبولاً، بعد زواج زوجة أبيه من رجل آخر هو عبد الواحد، وإقامته معهم في نفس البيت. كان طه لا يزال يومها في الخامسة من عمره. والآن يعود إلى دمشق بعد غياب خمس عشرة سنة لم يزر دمشق خلالها قطّ. صمتت غزوة خانم للحظات ثم استدركت وقد انتبهت لموضوع مباغت لم تفكر فيه من قبل:

- أين سيقيم؟

- هنا طبعاً.

- أنت مجنون. كيف تقبل بإقامة رجل غريب مع أختك في بيت واحد؟

- وهل طه غريب في بيت والده؟!

- غريب عن أختك، ما بك تصطنع الغباء؟

أخته هي خولة ابنة غزوة من زوجها الثاني عبد الواحد، خريجة كلية الشريعة في جامعة دمشق وقبيسية ناشطة ، كانت أصغر المشاركات في المولد الشهير الذي أقامته القبيسيات في رحاب مسجد بني أمية الكبير، والذي أثار ذهولاً عارماً في الشارع الدمشقي آنذاك.

- في مثل هذه الحالة يغادر الطرف المتضرر إلى أن تتم تسوية الأمر.

- يا للنباهة! أنسيت أننا هنا أمر واقع أولاً، وثانياً نصيبنا معاً في البيت أكبر من نصيبه؟ فمن هو الطرف الذي ينبغي أن يبتعد إلى أن تُحل المشكلة؟

– بكل الأحوال لن تكون إقامة طه في بيت أبيه أكثر غرابة واستنكاراً من إقامة زوجك فيه.

– كان عليك أن تكون أكثر تهذيباً وتقول "عمي". بكل الأحوال أيضاً هو لم يعد مقيماً هنا.

فعلاً، لقد غادر عبد الواحد البيت والبلد ككل، غادرها باسم وهمي وهوية مزورة هرباً من مطاردات قانونية لاحقته بسبب تورطه في الاتجار بالرقيق الأبيض، وذلك إبان استفحال الأصولية الإسلامية في سوريا، وانتشار أعمال السبي وأسواق النخاسة في بعض مدنها، حيث لعب دور الوسيط في صفقات مشبوهة وسرية، كان يتم من خلالها تهريب الجواري من الإيزيديات وسواهن ممن هنّ في حكم "ملك اليمين" إلى خارج سوريا، حيث كانت تلك الصفقات تجد وبسهولة من يموّلها، ويمنحها الحالة الشبحية التي تضعها خارج كل أشكال الرقابة، وعلى كل المستويات. وقد تضاربت الأخبار حول مكان إقامته الجديدة.

بدت على وجه غزوة خانم ملامح الانزعاج وأمارات الاستياء، فنهضت مغادرة الصالون صاعدة الدرج الخشبي إلى غرفتها في الطابق العلوي، وما إن خرجت أمه حتى استعاد خالد موقفه الأصلي من إقامة طه في المنزل والمطابق إلى حد ما لموقف والدته، إذ لا يعقل أن يقيم هو وخولة في بيت واحد. وبنفس الوقت من المحرج جداً واللامعقول أيضاً أن يقول له لا شأن لك ببيت أبيك. وتزداد المشكلة أكثر فأكثر كونه غير قادر على أن يدفع له ثمن نصيبه في البيت. أسوأ ما في الأمر أن خالداً فكر بطرح فكرة بيع البيت

على الأطراف المعنية وتقاسم ثمنه كحل وجيه لأمثال تلك الحالة، واستبق الأحداث بعرضه على بعض المكاتب العقارية في الحي لمعرفة البدل المادي الذي يمكن الحصول عليه، ولكن صدمته كانت من العيار الثقيل عندما علم أن بيتهم جرى تصنيفه في الحي على أنه مسكون بالأشباح، بعد أن أدمنت والدته على إقامة جلسات تحضير الأرواح فيه. وبالتالي فإن أحداً لن يرغب بشرائه، وإن اشتراه أحد ما فسيكون ذلك بسعر مخفّض. بعد أن استعاد خالد موقفه من إقامة طه معهم في نفس البيت بمجرد خروج أمه وقف وجهاً لوجه أمام تناقضاته، وتلمس ندوب روحه التي خلفتها حالة التشظي التي يعيشها الآن والتي تفرض عليه ردود فعل متباينة إزاء قضية واحدة بين موقف وآخر.

***

آبت جحافل ماري من الحرب تهزج وتطرب والنصر معقود على أسنة رماحها. وخرجت النسوة يستقبلن الأزواج والأشقاء والأبناء المتحلقين في ساحة معبد إنليل يؤدون له طقوس النصر. وعندما انفض الجميع، بقيت أورنينا بين مجموعة من النسوة حكمت عليهن الحرب باليتم أو الثكل أو الترمل، يبحثن بين الجثث عن الأحبة الراحلين. وتعرفت أورنينا على جثة شقيقها، أما زوجها ماريان فلم تعثر له على أثر. وبينما أخذت النسوة يملأن المكان صراخاً وعويلاً، مضت أورنينا بهدوء إلى معبد عشتار، يحدوها حزن صامت شجي، ونشوة صوفية مسكرة. وهناك قالت لها الربة الجليلة:

- "مبارك حزنك المهيب يا بنتي

ومبارك رضاك وتسليمك بقضاء الآلهة في أمرك

فليكن من فقدت قرباناً لي، وأنا قبلت هذا القربان"

أثارت مشاهد العويل والجثث ذكرى مريرة في حياة نزار، كانت هي الحلقة الأولى في رحلة الضياع التي يعيشها الآن. فمنذ نحو عام كامل أقدمت أخته سحر الطالبة في كلية الصيدلة بجامعة دمشق، على الانتحار بإلقاء نفسها من فوق سطح العمارة المشرفة على البحر في مدينة طرطوس لأسباب مجهولة. كانت أمها المحامية ناديا مرزوق قد لاحظت مظاهر القلق والشرود على ابنتها، ولكنها عزت ذلك لتغير ظروفها وانتقالها من الحياة الأسرية الحميمة إلى حياة مختلفة في دمشق. ولكن يبدو أن حسابات الأم المحامية لم تكن دقيقة، فحياة ابنتها في طرطوس لم تكن الحياة الحميمة المستقرة والصحيحة، بل كانت تربة مريضة أنبتت نبتة هشة سرعان ما انحنت أمام أول هبة ريح عصفت بها.

في الوقت نفسه الذي كان فيه نزار يجلس في الصالة المظلمة، يتابع الدكتورة ثراء وهي تؤدي دورين، أحدهما على الشاشة تقمصت فيه شخصية أورنينا مغنية المعبد، والثاني دورها الحقيقي في حياته، وهو يتتالى شريطاً ملوناً على صفحة أوهامه. في هذا الوقت، كانت أمه ناديا في طرطوس تجول بعينيها بين عناوين الكتب في مكتبتها المتواضعة والقيمة في آن واحد، كتب تمتد فترة تواريخ اقتنائها على مدى نصف قرن من الزمن، قد رتبت على رفوف المكتبة لا بحسب التسلسل الأبجدي لعناوينها أو لأسماء مؤلفيها، ولا بحسب مضامينها، بل بحسب تاريخ شرائها وقراءتها. لذا كان يكفي

أن تنظر إلى العناوين المرتبة كي تستعيد مراحل ميولها واهتماماتها الثقافية. هذه مرحلة الطفولة، وتلك مرحلة المراهقة، ثم المرحلة الجامعية. من مغامرات السندباد وقصص سندريللا، إلى روايات جبران والمنفلوطي، إلى كتب سارتر وسيمون دو بوفوار. ثم تـأتي المرحلة المهنية مترافقة مع مرحلة الاستقرار الثقافي، وإعادة جدولة المعلومات حسب تسلسلها الزمني. تلك هي تواريخ الشعوب الغابرة وشرائعها ومعتقداتها تتوالى أمام عينيها، من شريعة حمورابي وتعاليم بوذا، إلى فلسفات الإغريق، إلى إبداعات مفكري الإسلام . . .

انهارت على كرسيها متمتمة بصوت كاد أن يكون مسموعاً:

- "وها هي النتيجة الآن، لقد تحولت إلى مكتبة متحركة، وأحلامي أحلام الشباب المتحمس، اختنقت وتموتت ضمن أسوار مدينة صغيرة تنتمي لعالم يسمونه العالم الثالث، حيث تصلب الأحلام، وتطارد المواهب والإمكانيات عبر دروب ملتوية إلى غير مكانها المناسب".

لقد اختارت ناديا كلية الحقوق، وهي تتصور أنها ستعمل في يوم من الأيام على دك وتحطيم قوانين كانت تراها بمثابة جثة هامدة عفنة، تطوق بساعديها المتشنجين أعناق أحياء هذا المجتمع، وتتشبث بها دون رحمة. لكنها انتهت محامية مغمورة محبطة في مدينتها الصغيرة، تغل خطاها نحو الشهرة والغنى قيم ومبادئ ارتضتها لنفسها، وآلت ألا تحيد عنها.

- "كنت موقنة أنني لن أمر في دنياي مرور الكرام، وأن سيكون لي بصمة ما ضمن دائرة معينة، توسمت فيها اتساعاً يرضي طموحي، ولكن ها أنا

الآن أعيش ضمن دائرة ذاتي وحسب، تحيط بي القضايا التافهة، ومنزل يضيق علي ويضيق".

ورغم أن السنين عملت حثيثة على تكريس ما تعيشه ناديا أمراً واقعاً، فإنها لم تكن تعدم لحظات تفلت فيها من إسار الواقع، لتقارن بين ما كانت ترجوه من مستقبلها، وما أتى به عليها حاضرها. خاصة في السنة الأخيرة، حيث كانت تعيش وضعاً نفسياً متأزماً إثر مصابها الأليم في ابنتها سحر.

سرقها من تداعياتها تلك صرير مفتاح زوجها في قفل الباب، فنهضت نحو النافذة وأزاحت الستارة عنها، علها تطرد من الحجرة اللحظات السابقة المشحونة.

- ما بك يا ناديا؟

- لا شيء أحس ببعض الاكتئاب.

بدا على وجه عبد القادر علامات من يهم بدخول حديث سبق أن طرحه من قبل دون جدوى، ثم أحجم قليلاً اتقاء لردة الفعل لدى زوجته، لكنه تشجع في النهاية وقال:

- صدقيني يا ناديا إن إقلاعك عن الصلاة هو السبب فيما أنت فيه الآن.

انفجرت في وجهه غاضبة:

- وأنت إلى متى تظن نفسك قيّماً على دين الله بين الناس؟ أم تراك تحسب أن محاضرات التربية الدينية التي تلقيها في المدرسة على تلاميذك، يجب أن تستكمل بعد عودتك إلى المنزل.

ومضت إلى الشرفة وهي ترتجف من شدة الانفعال، فتبعها عبد القادر ملاطفاً:

– هدئي من روعك يا ناديا، هذا لا يجوز.

– لا يجوز، لا يجوز، وهل ما أنا فيه يجوز؟

– حسناً، هدئي من روعك لأجلك أنت لا لسبب آخر.

أشاحت بوجهها عنه في محاولة منها لإخفاء حقيقة أنها تبكي، وحين استعصى عليها ذلك أجهشت في البكاء علناً وهي تقول:

– أكان سيهتز عرش الله لوهم صلوا عليها قبل أن تدفن؟ أكان ضرورياً أن يضيفوا إلى مأساتنا جرحاً آخر، ويجعلوا من مصيبة الفراق غصة مزمنة لا تعرف سبل النسيان.

قال عبد القادر:

– مضى على الحادث نحو عام من الزمن ألا يجمل بنا أن ننسى؟

غرقت في دمعها وقد انهارت تماماً:

– كلكم تقسون عليّ، كلكم، حتى نزار ابني الوحيد أكان ضرورياً أن يسافر إلى الشام ويتركني هنا وحيدة؟ متى كانت كلية الحقوق توجب على طلابها حضور محاضراتهم؟ هو في السنة الرابعة الآن هل داوم من قبل؟

– عليك أن تسعدي لابتعاده عن الجو الذي تشيعينه في هذا البيت.

– يسهل عليك أن تقول هذا لأنه ليس ابنك.

أطرق قليلاً ثم قال:

- بعد وفاة سحر تعلمين جيداً أنه لم يبق لي إلا نزار.

***

لم يكن سماحة السيد المجتبى أحد أعضاء نادي "سيد الشهداء" الذي يديره في بيته في حي الأمين الناشر حمزة الهاشمي، صاحب دار "العرفان" للطباعة والنشر. ولكنه كان حاضراً هذه المرّة بعمامته السوداء نتيجة مفاوضات وترتيبات مطوّلة قام بها أعضاء هذا النادي، رغبة منهم في مواجهة مباشرة بين ممثل شرعي وتقليدي للمذهب الجعفري وحمزة الهاشمي، الذي وصفته المرجعية الشيعية في دمشق بالمهرطق. لم يهدم حمزة الهاشمي ركناً من أركان المذهب الجعفري، ولم يتطاول حتى على تفاصيله، بل على العكس من ذلك، كان مستغرقاً بهاجس أن على الشيعة أن يستغلوا الواقع الراهن، ويستقطبوا الجموع النافرة من المذهب السني، بسبب الممارسات والأفكار التي أشاعتها الجماعات التكفيرية المتشددة المنضوية تحت عباءة ذلك المذهب، والتي رفضت المرجعيات السنية الرصينة التبرؤ منها. هذه الجموع، كان يرى حمزة الهاشمي، أن الشيعة يجب أن يجتذبوها، بدل تركها تتوجه إلى تيارات الإلحاد. وكان يرى أن أنجع السبل لذلك، هو تنقية المذهب الشيعي وكتبه التراثية من الشوائب التي علقت به عبر مئات السنين، حتى تصبح مقبولة أكثر للوافدين الجدد. موقفه هذا هو ما أثار حفيظة المرجعية الشيعية ضده. دخل سماحة السيد المجتبى وأمارات التردد والاستياء ما زالت مرسومة على وجهه، ولكن واجبه يحتم عليه حضور مجالس الضلال، فلعلّ وعسى

تتم على يديه العودة إلى جادة الصواب. نجحت طقوس الترحيب به في امتصاص بعض مشاعر استيائه، خاصة ما بدر منها من قبل حمزة الهاشمي:

- نحن لسنا أعداء يا سيدنا، ولا على طرفي نقيض. وما يجمعنا أكثر بكثير مما يفرقنا، ألا يكفي أننا نجتمع على مائدة حب الحسين؟

- تحت الراية الحسينية هناك من يتعاطى معها بطريقة إيمانية، وهناك من يتعاطى معها بطريقة سياسية.

- وهل أنا سياسي؟!

- لم أقل هذا، قلت إن طريقة التعاطي هي طريقة سياسية. إن من يؤمن بقضية معينة ويريد أن ينتصر لها، ينتصر لها كما هي، لأنه أصلاً مؤمن بها. أما عندما يحرّف الكلم عن مواضعه كي تصبح القضية مقبولة للآخرين، فإنه يتعاطى معها تعاطياً سياسياً، وهو يسعى إلى انتصاره لا انتصارها.

- فإن كان هناك عبر مئات السنين من نجح بفعل ما تقوله، حتى وصلت القضية إلينا مثقلة بأهوائه، ألا يجدر بنا الآن أن نزيل ما علق بقضيتنا من مراميه ومقاصده؟

- هل تشكك بالإمام الصادق عليه السلام؟

- يا إله العرش! أليس هذا هو المنطق السنّي نفسه، الذي يجبهنا إن شككنا بصحيح البخاري بعبارة "هل تشككون بسنة النبي".

- تتجاهل أنه على المقلب الذي ذهبت إليه، انتمى طلقاء ما آمنوا بالإسلام يوماً، وقبل أن تمر ثلاثون سنة على وفاة الرسول كانت مقاليد الخلافة قد آلت

إليهم، ومن هذه الثغرة نفذت الأحاديث المنسوبة للرسول زوراً وبهتاناً. هل هذا الواقع موجود لدينا؟

– المندسون موجودون في كل زمان ومكان، وأخطر من المندسين ذوو النوايا الحسنة والعقول الصغيرة، الذين يتوهمون أن النبي وآل بيته لم يحسنوا الدفاع عن مواقفهم كما يجب، فيقومون بإعارتهم بعض الأفكار والأقوال بغية نصرتهم. تصفح الإنترنت، واقرأ الأشعار السخيفة والركيكة المنسوبة للإمام علي، إن من ألفها ونسبها إليه كان يعتقد أنه يسدي إليه معروفاً، وأنه يحتسب تقدمته هذه عند رب العالمين.

– وهل هذا النادي من سيجترح المعجزات، وينقي تراث مئات السنين، ويعيد الأمور إلى نصابها؟

– إنه خطوة على الطريق الصحيح، تزداد أهميتها بمقدار ما تلقى من التفهم والدعم من الآخرين. أنا بدوري سأسألك: لماذا تبادر إلى ذهنك كيف تستخف بها وتعرقلها، بدل أن يتبادر إليه كيف يمكنك دعمها وتصويب مسارها إن وجدت فيه شططاً ما؟

كان الترجمان المحلف زين العابدين، الابن الأكبر لحمزة الهاشمي، يتابع باستخفاف سجال والده مع السيد المجتبى متعجباً من هذه الهوّة الوهمية التي يستعصي عليهما ردمها. لقد درس اللغة الألمانية في الفترة التي رافقت بداية الأزمة في سوريا، حيث انتعشت هجرة السوريين الشرعية وغير الشرعية إلى ألمانيا. وعلى يديه راسل عشرات الشباب السوريين الجامعات في مختلف المدن الألمانية بغية الحصول على قبول للدراسة هناك. ما زال يتواصل مع

بعض منهم، كما يتواصل مع أصدقاء كثر له يقيمون في أوروبا وأمريكا على رأسهم طه ابن رشيد بك، والجميع يؤكدون له أنهم هناك قد محوا تماماً من ذواكرهم سقيفة بني ساعدة، ومعركة الجمل. لكنه في نفس الوقت يعرف بين رواد نادي أبيه أشخاصاً أقاموا هناك ردحاً من أعمارهم، ثم عادوا، وبمجرد عودتهم استعادوا كل ما محوه من ذواكرهم. عندما نزع السيد المجتبى عمامته السوداء عن رأسه، ووضعها على الأريكة المجاورة، حدّث زين العابدين نفسه وهو المهتم بالدراسات التي تتناول حركات الجسد ودلالاتها، بأن السيد يهمّ بتقديم تنازل ما. قال السيد موجهاً كلامه إلى حمزة الهاشمي:

- وما الذي تطلبه الآن من المرجعية تحت السقف المقبول؟

- لقد انتشرت بشكل مخيف ظاهرة الفضائيات المارقة، الفضائيات والفضائيات المضادة من الطرفين، والناس تورطوا بها في البداية من قبيل التسلية والتفكه، لكن فيما بعد، وجدوا أنفسهم في مواجهة ما كانوا يجهلونه في مذاهبهم، بعد أن فضح كل تيار ما خفي من نقائص التيار الآخر. من حقنا على مرجعياتنا أن تنقح وتدقق كتب تراثها، ثم أن تتبرأ مما هو مخز ودافع لأتباعها إلى الخجل بانتمائه.

- لا حاجة بنا إلى من يخجل بانتمائه.

- ها أنت تعيد الحوار إلى نقطة بدايته، أنت تتمسك بتلك المخزيات لا رغبة فيها، ولكن خوفاً على تفاصيل أخرى، تخشى أن يصلها الدور بعد أن نفرغ من سابقاتها. وهو ما فعلوه ويفعلونه على المقلب الآخر، هل تظن أنهم وعلى مدى ألف وأربعمائة من السنين كانوا يحاربون كرمى عيني معاوية

ويزيد؟ ما كان أسهل عليهم أن يتخلوا عنهما، ولكنهم يخافون إن فُتح هذا الباب ألا يغلق أبداً، يخافون على هذا الكيان الهلامي المسمى "الصحابة" أن يتبخر ويتلاشى بمجرد التشكيك بكتب التراث، إذ لا تحديد ولا سند له إلا هذه الكتب. من هم الصحابة؟ يقولون لك هم كل من جالس النبي وخالطه، لقد كان من بين هؤلاء خالد بن الوليد، ولكن حتى كتبهم تعترف أن النبي قال له: "مالك ولأصحابي، والله لو أن لك مثل أُحد ذهباً، فتصدقت به، ما عدلت روحة من روحاتهم، أو غدوة من غدواتهم".

تململ الحاضرون الذين كانوا يريدون مناقشة تفاصيل بذاتها، لا حديثاً عمومياً كهذا. وعلت أصوات عدة مطالبة بالدخول إلى تلك التفاصيل. ولكن حمزة احتج قائلاً:

– قبل أن نحدد ضوابط للنقاش تبين وتوضح حدود ساحة الخلاف وسقفها، فإننا سندخل متاهة تقديم الدليل من ضمن منطقة الخلاف، وإذ ذاك لا جدوى من الدخول إلى التفاصيل، ألا يقال "إن الشيطان يسكن في التفاصيل".

قال زين العابدين مصطنعاً أكبر قدر من الجدية على ملامح وجهه:

– الخوف من الشيطان يعني مهادنته، لن تُحل المشكلة دون مواجهة الشيطان في قلاع التفاصيل. نريد أن نعرف "مفاخذة الرضيعة" حلال أم حرام؟

تناول السيد المجتبى عمامته عن الأريكة المجاورة، فوضعها على رأسه وانصرف خارجاً.

***

مرت السنون رتيبة بطيئة تجتر أيامها يوماً بعد يوم ولم يعد ماريان، انتظرته أورنينا بالأيام والساعات حتى لامها على طول انتظارها اللائمون. أما آريان فإنه كبر وكبر حتى غدا شاباً، وخلال ذلك أحاطته الآلهة بعنايتها تعويضاً له عن أبيه الذي اختفى في سبيلها، وإكراماً لأمه التقية الصابرة. فقد منحه إنليل القوة والصحة والعافية، وحبته عشتار القلب الفتي النابض بالحب، حتى غدا فخر ماري، ومعقد رجائها. ورأى إنليل فتيات ماري يرمقنه بإعجاب، ويتنهدن بلوعة وصبابة، فنهشت الغيرة قلبه. لكنه عاد فتأمله، تأمل ذلك الفتى الجميل القوي ذا الجسد الناضح بالصحة والعافية والقلب العامر بالحب الخصيب، فرأى فيه اقتراباً من حدود الكمال البشري التي هي في الوقت نفسه حدود قدرات الخلق عند الآلهة، فانفطر قلبه من شدة الانفعال، ومنحه المزيد المزيد. وكانت أورنينا ترقب ابنها كيف يتأنق ويتكامل بين أيدي الآلهة، التي حلا لها أن تتعبد في محراب قدراتها القصوى على الخلق من خلاله، فتغمر السعادة قلبها، وتمضي إلى الربة عشتار تغني وترقص شكراً لها، فتكلمها عشتار كلمات تعيدها إلى بيتها وكأنها تطير بين السماء والأرض.

وفي يوم يشبه كل الأيام، دُقّ الباب، وفتحته أورنينا، فأطل ماريان. لقد أُسر في المعركة، لكنه تمكن من الفرار من أسره، ثم ضل الطريق، وهام في أربع جهات الأرض، إلى أن وجد الفرات، فمضى بمحاذاته حتى بلغ ماري، دون أن يدري أنه أنفق في ذلك سبعة عشر عاماً. عانقته أورنينا طويلاً طويلاً، ثم أخذته من يده واقتادته إلى معبد عشتار وجماهير المدينة تسير خلفهما في

مهرجان احتفالي صاخب. وأمام دهشة الجميع وذهولهم، خرجت عشتار من هيكلها، وعانقت أورنينا في ساحة المعبد مهنئة إياها بعودة ماريان. وإذ ذاك تقدم من بين الجمع آريان يريد معانقة أبيه، ودُهش ماريان وسأل أورنينا:

– من هذا الشاب يا أورنينا؟!

أجابته والسعادة تكاد تصرعها:

– إنه آريان، هو ابننا آريان يا ماريان.

تبدلت ملامح ماريان وهو يتساءل:

– أين شقيقك يا أورنينا؟

أجابته بذهول وقد انكمش خيلاؤها قليلاً:

– لقد مات في الحرب، لماذا؟

وهنا خاطب ماريان أهل ماري والدموع تنهمر من عينيه:

– عندما مضيت إلى الحرب كان آريان على فراش المرض يعاني من داء عضال، وقبل أن أجتاز حدود المدينة، نذرت للربة الجليلة عشتار أن أذبحه على قدميها إن هو أبلّ من مرضه، وطلبت إلى خاله أن يفي بنذري إن عاد ولم أعد أنا، ثم حدث ما حدث، وغدا آريان شاباً الآن. فماذا تنظرون؟

حدث في المعبد هرج ومرج، اتفق الحاضرون بعده أن النذر نذر، سواء أكان آريان طفلاً أم شاباً، ولكن آريان كان قد توارى عن الأنظار، أما عشتار فقد مضت إلى هيكلها، وعادت تمثالاً صخرياً هناك، دون أن تجيب على

تساؤلات الجماهير المحتشدة حولها، بمن فيهم أورنينا التي مضت خلفها تتوسل إليها أن ترشدها إلى الطريق القويم، ولكن دون جدوى، فلم يجب الصخر الأخرس، ولم يرتسم على وجهه أي تعبير.

أدرك الجميع أن غضب عشتار سيحيق بهم، وأن لعنتها ستنزل على ماري بأسرها، إن هم حنثوا بعهدهم، وتجاهلوا نذرهم، فمضوا يبحثون عن آريان دون جدوى.

وعندما أطبق الليل على المدينة، آب كل من أبنائها إلى بيته، والذل والوجوم يعلو الوجوه المصفرة. أما أورنينا الشقية، فقد مضت إلى عشتار تبكي على قدميها، تستميحها الغفران، وما إن نطقت بأولى كلماتها، حتى خرج آريان من إحدى زوايا المعبد قائلاً:

- أتوسل إليك يا أمي ألا تشي بي لأهل المدينة فيقتلوني، هنا آخر مكان قد يخطر ببالهم أنني مختبئ به.

قالت وقد شرقت بدمعها:

- آريان! أية مصيبة نحن بها يا آريان.

قالت هذا، والتفتت صوب عشتار، فوجدتها تعقد حاجبيها غضباً، فانبرت تعول بصوت مكتوم:

- لِمَ أخبرتني أنك هنا؟ لِمَ فعلت هذا أيها المجنون؟

- أريدك أن تحضري لي طعاماً، فالجوع يقتلني يا أماه.

عادت أورنينا فنظرت باتجاه عشتار، فوجدتها ترتجف من شدة الغضب، في الوقت الذي كان فيه صوت ابنها يضج في أذنيها هامساً:

- لن تخبري أحداً بمكاني، أليس كذلك يا أمي؟

انسحبت أورنينا من المعبد، ودموعها تغسل حتى قدميها، وعلى البوابة وقفت ونادت بصوت مجروح ما اعتاد قبل اليوم إلا الغناء:

- يا أهل ماري، هو ذا آريان في المعبد فأمسكوا به.

وما هي إلا لحظات حتى كان أهل ماري يحيطون بالمعبد من كل الجهات، أتوا من كل حدب وصوب، رجالاً ونساء، أطفالاً وشيوخاً، والجميع الجميع أمسكوا بآريان وعلى قدمي عشتار ذبحوه. ثم أدوا طقوس عشتار كاملة، وانصرفوا وقد ابتعد عنهم شبح الويل والهلاك الذي خيم عليهم طيلة ساعات هذا اليوم.

كابرت لميس كثيراً دون جدوى كي تمنع دمعتها من السقوط، وعندما تأكدت أن نزار الذي يتابع الفيلم إلى جوارها قد لاحظ بكاءها، أحنت رأسها مستسلمة للدموع. علّق نزار مازحاً:

- من المؤسف حقاً أن يذبح شاب كآريان.

- بلا ريب، أتظنني أخجل أن أبكي على موقف كهذا؟

وصمتت للحظة ثم أردفت:

- لكنني في الحقيقة أبكي لسبب آخر. نزار ألا ترى معي أنني أختنق،

وأن حياتي مع خالتي تكاد لا تطاق، غموض ومزاج متطرف ومنزل فسيح تتحرك فيه الأشباح. حتى على الشاشة، هل تذكر أنك رأيتها في دور عادي كأية امرأة في هذا البلد؟

قاطعها هامساً كي يذكرها بشكل غير مباشر أن عليها أن تخفض صوتها:

– على العكس تماماً، إن خالتك تكسر روتين الحياة اليومية.

– تكسر روتين الحياة اليومية بالنسبة لكم، أنتم الذين تقتربون منها بمقدار ما تحبون، حتى إذا أحسستم بالحاجة إلى الحياة العادية، ابتعدتم إلى حيث الحياة تتفاعل بمنطق وواقعية. أما بالنسبة لي أنا، فإن ما تسميه كسراً للروتين اليومي هو أقسى روتين في الوجود.

انكمش نزار على نفسه قليلاً، وهو يستشعر عقدة الذنب من موقفه حيال فتاة معذبة كلميس. لقد تعرف عليها غيابياً من خلال مذكرات أخته: طالبة في كلية الصيدلة، رقيقة، حساسة، عاشت حرماناً عاطفياً مبكراً، حين فقدت والديها وهي ما تزال طفلة في المهد، لتعيش في بيت خالتها ثراء حياة غير طبيعية، جعلتها تتشوق إلى إقامة علاقات وصداقات مع أناس آخرين تلبية لحاجاتها الفطرية التي حرمت منها، وفي الوقت نفسه تعجز عن تحقيق تلك الرغبة، لأنها لم تكتسب أصلاً خلال تنشئتها ما يمكنها من لعب هذا الدور الاجتماعي النشط. لقد استغل نزار وبذكاء كل ما عرفه عن نفسية وطبائع لميس، كي يعقد معها صداقة متينة، تجاوزت قليلاً حدود الصداقة شيئاً ما، دون أن تدري أنها لم تكن بالنسبة إليه إلا بوابة يدخل عبرها عالم خالتها الدكتورة ثراء، العالم الذي قتل أخته سحر. وهمس لنفسه:

- "ولكن مهما يكن من أمر فإنني الآن أحبها فعلاً".

سكنت ماري، ونام كل من فيها قرير العين خلي البال، إلا تلك التي كانت على موعد مع فرحة العمر الكبرى. وحدها تلك العابدة المعبودة، كان في قلبها غصة، وخلف محجريها طوفان دموع يغلي، أبى الخشوع والإيمان عليه أن يتفجر على الخدين الشاحبين. وعندما استسلمت المدينة تماماً لخدر الليل، مضت أورنينا على الطريق الملتوية على ضفاف الفرات، المؤدية إلى معبد عشتار منحنية الظهر كشجرة عصفتها الرياح، وعندما بلغت بوابة المعبد، قبلت حجارتها، فملأت رائحة الدم التي امتلأ بها تجويف المعبد أنفها. دلفت إلى الداخل ورنت إلى عشتار بعينين كسيرتين، فإذا عينا عشتار تقدحان شرراً، وإذا هي تتحدث إلى أورنينا بصوت هادر من الغضب:

- أيتها المرأة، لقد أحببتك ومنحتك شرف صداقتي يوم كنت تجسيداً لما أمثله من معاني الحب والجمال. أما وقد اغتلت اليوم أنبل وأعظم ما استطعت أن أطرحه في قلوب مخلوقاتي، ألا وهو عاطفة الأمومة، فقد حقت عليك لعنتي وسينزل بك عقابي.

تفجر طوفان الدموع دفعة واحدة من عيني أورنينا، وقالت وهي تتفجر نحيباً:

- لقد فعلت ما فعلت إكراماً لك أيتها الجليلة ووفاء لنذرك.

- أيتها الغبية، لقد شفت الآلهة ابنك من دائه إكراماً لطقوس الحب والتقوى التي كنت تزجينها في معبدي، لا من أجل نذركم المجرمة، وعباداتكم الخرقاء.

– ولكننا كنا نفعل ذلك دائماً.

– ودائما كنتم تهزون عروشنا. شقي هو الإله يعذبه عابدوه.

غمغمت مسحوقة:

– لم أكن أدري. رأيت الغضب على وجهك فظننت أن مرده لترددي بوفاء النذر.

– ذلك لأنك أردت العبادة متعة ليس إلّا، تمارسينها كما تحتسين قدحاً من الخمر بغية النشوة والسكر بعيداً عن عناء التفكير. أين كان عقلك؟ أين كانت فطرتك؟ بل أين كان قلبك الذي أسبغت عليه الحب من روحي وجوهري، فحوّلته برعونتك إلى حجر أصم لا يرق حتى لتوسلات وحيدك الملهوف والجائع. والآن، وقد تحجر الجانب الإلهي في كيانك، لن تخسري كثيراً إن تحجر الكيان برمته.

ذعرت أورنينا، وتشنج كل ما في وجهها خوفاً وندماً، وقبل أن تسترد وعيها، نفذت بها مشيئة عشتار، فإذا هي صخـرة صماء، مذعـورة متشنجة، تتحجـر وتتقلص حـتى غدت بحجم راحة اليد.

وعبرت مياه الفرات مسرعة، ومن خلال اللجة الزرقاء بدت أجرام وأفلاك، وتوضحت الصورة أكثر فأكثر، فبدت الكواكب السيارة وهي تدور حول الشمس دوراتها الأزلية. ودارت الأرض ودارت. ثم تسارعت الحركة، فشكلت الأرض على مدارها خطاً متصلاً. ثم ما لبثت الصورة أن عادت لتمحي عبر اللجة الزرقاء إلى أن ضاعت تماماً.

على ضفة الفرات، انتشر أفراد بعثة أثرية ينقبون وينبشون، وإذا أورنينا المتحجرة بين يدي أحد الخبراء، وقد ارتسم على وجهه سيماء الفوز والانتصار. وحُمل التمثال النفيس إلى متحف دمشق، وقبع هناك خلف واجهة زجاجية. وطويلاً طويلاً وقف أمامه العابرون، نظروا بإعجاب إلى التمثال المتشنج الوجه، العجيب التعابير، دون أن يدروا أن هذا الحجر كان هو هو أشجى صوت وأرق حشاشة عرفهما الزمن وأنجبتهما الأيام.

***

تم تخصيص جانب من فندق كبير وسط العاصمة دمشق، يحتوي على جناح فخم ومكتب إعلامي وقاعة للمؤتمرات لإقامة الضيفين الزمنيين. حيث من المؤكد أن وفوداً إعلامية وعلمية من كل دول العالم ستتقاطر للقاء الضيفين الغريبين. وغير بعيد عن جناح الضيفين، خصص مكتب للدكتورة لمياء ومعاونها المهندس طارق، بصفتهما حلقة الوصل بين الفريق الزمني وهذا العالم. كان أول ما صدر عن المكتب الإعلامي لعلماء الزمن، أنهما يعتذران عن اللقاءات العلمية، لأنها ليست على جدول أعمالهما، فمهمتهما محدودة بالبحث عن ميثاق، ولا مانع من اللقاءات الإعلامية التي قد تؤسس لأرضية فكرية بين الكونين الصديقين، تمهيداً لتواصل علمي لاحق قد يتم بين ذوي الاختصاصات المتقابلة. ومن منطلق الرغبة بالتواصل الإعلامي مع فعاليات كون المسافة، فقد أعلن المكتب الإعلامي لعلماء الزمن عن مؤتمر صحفي سينعقد في الفندق الذي يقيمان فيه في القريب العاجل قبل انطلاق مهمتهما.

حالة من الترقب والقلق سادت العالم بأجمعه بانتظار موعد المؤتمر الصحفي العام والشامل الذي أُعلن عنه، والذي وعد الزائران من خلاله بإزالة كل علامات الاستفهام والتعجب التي ترتسم حولهما على خارطة العالم. فالعالم بأسره كان يشعر أن هذه الزيارة سيكون ما بعدها ليس كما قبلها، وأن اضطراباً ما ستحدد مقداره الأيام القادمة سيعتري الحياة بسببها. كانت الإجراءات الأمنية في محيط الفندق الذي يقيم فيه الزائران الزمنيان غير مسبوقة، فأينما اتجه أي خط نظر كان يسقط على رجل أمن. مندوبون عن كل الصحف ومحطات التلفزة والمؤسسات والشركات الكبرى في العالم، كانوا موجودين في بهو الفندق وحديقته، وعلى أسطحة الأبنية المطلة على مدخله. سفارات الدول الكبرى في دمشق كانت أشبه بخلايا نحل، فالعمل على قدم وساق وعلى كل المستويات المعلنة منها أو السرية. شركات خاصة متعددة الجنسيات تعمل لحساب هذه السفارة أو تلك، كانت تستبق الزمن بتنظيم فرق عمل للبحث عن ميثاق، وتنتظر انتهاء المؤتمر الصحفي للبدء بالعمل وفق توجيهات السفارة المعنية. ولأن المعطيات الأولية حتى الآن في حكم اللاشيء، فقد كانت الترتيبات تأخذ بعين الاعتبار كل الاحتمالات الممكنة.

حتى الأمس القريب، لم يكن الوزير المختص يعلم بوجود مركز استقبال الإشارات الفضائية في دمشق، ناهيك عن معرفة الشخص الذي يرأسه، وبين ليلة وضحاها تتحول الدكتورة لمياء إلى نجمة عالمية، تتسابق فضائيات العالم للفوز بلقاء سريع معها، حتى وإن لم يتجاوز اللقاء الدقائق المعدودة. حتى هي نفسها كانت متفاجئة بتعاطيها مع نجوميتها السريعة، وقدرتها على

إدارة هذه النجومية، وإن كانت تدرك في دخيلتها أن هذا لن يدوم طويلاً، وبمجرد إطلالة راحيل على الشاشات العالمية فإنها ستخطف الأضواء عن كل ما عداها. لقد اعتادت أن تطوي أيامها يوماً بعد آخر دون أية جلبة تذكر تمنح أحد الأيام خصوصية ما. فلا شيء يعكّر صفو رتابة حياتها إن كان في المنزل أو في العمل. برنامج واحد يكرر ذاته يومياً يكاد أن يجعل من حياتها عبئاً تنوء به الحياة نفسها. لم تتزوج ولا تعرف لماذا لم تتزوج. زملاء الدراسة وأصدقاء الشباب الأول مع تقادم السنين تغيرت طبيعة حياتهم ،وبدأت شؤونهم العائلية تأخذهم نحو اهتمامات أخرى. ويوماً بعد يوم بدأت تجد نفسها وحيدة أكثر فأكثر سيما وأن عملها الوظيفي محدود جداً، ويكاد أن يكون صورياً.

ذات يوم توفيت قريبة لها اعتادت أن تزورهم دائماً قبل موتها، وبعد أيام من الوفاة، رأت لمياء في الحلم أن باب البيت يقرع، وما إن فتحته شقيقة لها، حتى ولّت هاربة إلى إحدى غرف النوم. نهضت لمياء مستطلعة الأمر، فإذا بها وجهاً لوجه أمام قريبتها المتوفاة. مسيّرة لا مخيّرة دعتها إلى الدخول، فلبّت الزائرة الدعوة. مشت وئيدة كما تمشي الأشباح في الأفلام السينمائية، لتأخذ مكانها في غرفة الاستقبال. جلست لمياء صامتة لا تعرف ماذا تقول، خُيّل إليها لوهلة أن الموت نقيصة لا يليق أن تحدّث الميتة بشأنه - الإحساس نفسه الذي انتابها عندما استقبلت الفريق الزمني لأول مرّة في مكتبها - في النهاية كان لا بد مما ليس منه بد، فالميت لا يمكن أن نكلمه على أنه حي يرزق. سألتها فيما سألتها ما الذي يحدث بعد الموت، أجابتها بهدوء لا شيء مختلفاً تقريباً، إننا نتابع حياتنا ولكن ببطء وبدون جلبة. عندما استيقظت من

نومها، واستعادت أحداث حلمها فكرت مليّاً: لعلني ميتة دون أن أدري، فكم تشبه حياتي ما حدثتني به قريبتي عن حياتها وهي ميتة.

واليوم أي جنون اقتحم حياتها دفعة واحدة، فجعلها تتلون بكل ألوان الطيف، وما فوقه وما دونه، لتصبح أشبه ما تكون بقصص الخيال العلمي. وهل يمكن لكل هذه الجلبة أن تطرأ على حياتها دون أن يكون لها أي يد فيها، وكأنها مراقب محايد يمرّ تحت عينيه وعبر عقله أغرب مما كان يستطيع أن يتصور. ها هي تصبح وزميلها طارق صلة وصل بين كونين كاملين، يمر عبرهما كل هذا الطوفان الذي يجتاح الدنيا. يا للمفارقة العجيبة، لقد بدأت تحس بوجودها وكيانها في الوقت الذي بدأ يتوجس فيه العالم بأجمعه أنه قاب قوسين أو أدنى من فقدان الكيان، وإعادة التشكل من جديد، وبدأت تحس أنها أكثر تمركزاً، في الوقت الذي بدأ العالم يحس فيه بانعدام الوزن. أتراه دليلاً جديداً على أنها لا تنتمي إلى هذا العالم، وأنها ميتة تجوس عبر الأحياء!

***

رغم انهماك لمياء في إدارة كل تفاصيل المؤتمر الصحفي، فإنها من واقع نجوميتها الجديدة لم تغفل جمالها وأناقتها، كانت ترتدي فستاناً طويلاً من البروكار الدمشقي من نوعية ولون القماش نفسهما الذي ارتدته الملكة اليزابيث الثانية يوم زفافها، وقد جمعت شعرها الأشقر إلى ذروة رأسها، مما أعطى فرصة لقرطيها الماسيين أن يتألقا على جانبي عنقها الطويل. كانت موجودة في كل الأماكن، وتتلفت في كل الاتجاهات، وهي تعلم - ويسعدها ذلك - أن الكاميرات تلتقطها في كل الأماكن، ومن كل الاتجاهات أيضا.

مراسل ال CNN استوقفها للحظات مستفسراً عن بعض النقاط وليختم بقوله:

- تبدين سيدتي وكأنك آتية من عالم آخر.

ابتسمت بحبور وأجابت وهي على عجلة من أمرها:

- الآتية حقاً من عالم آخر قادمة بعد قليل.

أعلنت مكبرات الصوت أن المؤتمر سيبدأ في موعده المحدد تماماً، فلا يليق التأخير في حضرة ضيوف على هذا القدر من الأهمية، لذا يرجى من كل المراسلين ملازمة أماكنهم المحددة لهم بدقة والتزام الانضباط الكامل. عموماً فإن الحدث بحد ذاته كان يفرض انضباطه على الجميع لكأن حالة من الوجد الصوفي قد هيمنت على محيط الفندق بأكمله. بدأت الثواني الأخيرة في رحلة الانتظار تستهلك ذاتها وأعصاب مئات الملايين حول العالم. وأخيراً ظهرت الدكتورة لمياء وتقدمت نحو المنصة وسط تصفيق حاد من جمهور المراسلين.

- أسعدتم أوقاتاً أيها السيدات والسادة.

وصمتت للحظات كي تمنح الموقف ما يستحقه من تشويق. ثم تابعت:

- أكاد أسمع دقات قلوبكم أيها الأصدقاء وهي تتقافز في صدوركم شوقاً للقاء المرتقب ولا يدهشني ذلك، فقد عشت أنا أيضاً منذ أيام هذه التجربة التي تعيشونها الآن، وقد هربت مني كل التساؤلات التي كنت أود طرحها أو ربما لفرط زحامها لم تجد طريقها إلى العبور. ولكن لحسن

حظكم اليوم أن أسئلتكم مدونة في أوراقكم. أترككم مع تجربتكم الفريدة، وأدعوكم إلى الترحيب بضيفنا العزيز البروفسور شيث أو لنقل بضيفينا العزيزين السيدة راحيل والسيد حزقيل.

سمة الأحداث أنها تحدث، تحدث شئنا ذلك أم أبينا، حسب تصوراتنا أو عكس ما كنا نتصور، وفق ترتيباتنا أو وفق ترتيباتها الخاصة بها. كثيرة هي الأحداث التي نتوقع أنها تحتاج معجزة من نوع ما، ونجهد أنفسنا في تحقيق تلك المعجزة أو على الأقل توفير سبل تحقيقها، لكنها في النهاية تحدث، هكذا وبكل بساطة. مذعنين لهذا القانون الوجودي وجد المراسلون والمدعوون أنفسهم وجهاً لوجه أمام ضيوف من كون آخر. لم يكن اللقاء بمقاييس معجزة، أو لعلّ المعجزة لا تعود معجزة حال تحققها.

دوّى تصفيق حاد لحظة ظهور حزقيل وراحيل على المنصة وقد تشابكت أصابع يمناه بأصابع يسراها، في حين ارتفعت اليدان الطليقتان في الهواء ملوّحتين لحشد المصفقين. كانا جميلين، جميلين جداً، لكن جمالهما لم يكن يصل حدّ الإفراط، لم يتجاوز الحدّ الذي يصرف الناظر عنه إلى محاولة فهمه واستيعابه. كان جمالهما يشي ومنذ اللحظة الأولى للقاء بفلسفة حياتية تقوم على عدم تبديد أي جهد، أو هدر أي وقت، أو المبالغة بأي شيء خارج حدود الحاجة إليه. افتتحت السيدة راحيل المؤتمر الصحفي قائلة:

– أسعدتم أوقاتاً أيها الأصدقاء. لا أعرف طبعاً ما الذي يجول في خواطركم الآن، ولكن ما أعرفه تماماً أنني وحزقيل سعداء جداً بلقائكم، وما أدركه يقيناً هو أننا لا نرى أسواراً ما بيننا وبينكم لكأنما عشنا معاً عمراً

بأكمله. لقد دعوناكم إلى هذا اللقاء كي نعرّفكم على أنفسنا وطبيعة كوننا، فليس من العدالة بمكان أن نعرف كل شيء عنكم، ولا تعرفون عنا أي شيء. نعم، أنا لا أكشف سراً إذ أقول إننا نعرف كل شيء عنكم: لغاتكم، أحداث تاريخكم، إنجازاتكم العلمية والحضارية، كذلك حروبكم وعجزكم عن التواصل حتى الآن ما بينكم بلغة واحدة، وعدم قدرتكم على الاستفادة المثلى من مقدّرات كونكم بعيداً عن روح المنافسة الشرسة التي تصل حد الاقتتال والإبادة الجماعية. ربما تفكرون الآن أن هذا ليس المدخل الأنسب للقائنا. نحن نختلف معكم في هذا، فنحن نفضل أن نسمي الأشياء بأسمائها كي نقدمها لأنفسنا وللآخرين على حقيقتها وكما هي. باسمي وباسم حزقيل أرحب بكم، وأدعوكم إلى التفضل بطرح أسئلتكم وسيسعدنا تماماً الإجابة عليها.

افتتح الأسئلة مندوب ال BBC بسؤاله:

- بعد أن انتشرت الشائعات حولكم على كامل خارطة العالم، حبذا لو تعطوننا فكرة واضحة عن كونكم الزمني.

اقترب حزقيل من مايكرفونه متصدياً للإجابة، وقد بدا على وجهه سيماء من يحاول تكثيف فكرة ما لتقديمها بأبسط طريقة ممكنة، وأقل عدد من الكلمات:

- باختصار بعدنا الأساسي الذي نفهمه جيداً ونحسه ونتنقل عليه جيئة وذهاباً هو الزمن، إنه نظير المسافة لديكم. لدينا في علاقاتنا الفيزيائية أيضاً مسافة، ولكنها مفهوم ضبابي بالنسبة لنا، تماماً كما هو الزمن مفهوم ضبابي

بالنسبة لكم، إلا إذا كنتم تعتقدون أن ما يهلوس به طفلكم المشاكس أنشتاين هو حقيقة صائبة. سمة حياتنا هي الخلود، فنحن لا نتكاثر ولا نشيخ ولا نموت. لا نعوّل على قياس الزمن فنحن نتنقل عليه كما نشاء، ولا مكان في حياتنا لمصطلحات من نوع "قديم وحديث". لن يمكننا أن نغوص أكثر من هذا في الحديث عن علاقتنا بالزمن وبالمسافة، فمفردات لغاتكم لا تفي بالغرض المطلوب.

مندوب ال CNN تساءل بدوره:

– تنتاب العالم بأسره دهشة مما أشيع عن ثنائية الجسد لديكم، نرجو الاستفاضة حول هذا الموضوع.

– سبق لنا أن قلنا لأصدقائنا في دمشق لماذا تطمئنون إلى وجود يدين اثنتين في أجسادكم، وتقلقون من وجود جسدين في كياننا؟ ثم هل أنتم متأكدون من عدم وجود امتداد من نوع ما لأجسادكم أنتم في حالة اغتراب عنه؟

– هل تقصد أن هناك رجلاً آخر، أو ربما امرأة هي شطر ثان لي، وأن عليّ أن أبحث عنه؟

– وهل سيجدي البحث عن الشطر الآخر نفعاً؟ ألا يمكن لك أن تلتقيه ثم لا تتعرف عليه؟

– كيف السبيل إلى إيجاده إذاً؟

– عندما تتألم أصابع يدك اليمنى لا تدرك يدك اليسرى ذلك، من يدركه هو السلطة التي تحكم الجسد كله، السلطة المتمثلة بالعقل والعواطف والميول

والأهواء . . . هذا ينطبق أيضاً على شطرك الآخر، تتلمسه سلطة أخرى من نوع آخر تتحكم بالكيان برمته بما في ذلك سلطة الجسد التي ذكرتها لكم منذ قليل. تلك السلطة العليا هي ما عليكم التعرف عليه وبلوغه كي تجمع هي شتات شطريكم، وتنهي حالة الاغتراب لديكم. لا يعني ذلك أنني أجزم أن شطرك الآخر هو إنسان آخر يعيش في مكان ما من هذا العالم. قد يكون شطرك الآخر امتداداً مادياً لجسدك لا تلتقطه حواسك، امتداداً له شروطه الفيزيائية المغايرة تماماً لشروط جسدك، ولكن طالما أنك تتمركز في جسدك هذا، فإنك ترغم شطرك الآخر على الخضوع لشروط جسدك الفيزيائية، وتحرمه وتحرم نفسك من إمكانياته غير المحدودة. تلك مهمة أخرى عليكم تحقيقها بدل انشغالكم في الحروب وسباق التسلح، يجب أن تجدوا طريقة للتمركز في الامتداد الخلاق لكيانكم. وإذ ذاك ستعيشون في رحاب إمكانياته، وسيمكن لأجسادكم المحدودة الإمكانيات هذه أن تستفيد من إمكانيات امتدادها الخارقة. هذا ما حصل أثناء معراج النبي محمد، هكذا استطاع جسده المحدود أن يخترق المجرات والأكوان، تابعاً لشطره الآخر، مستفيداً من شروطه الفيزيائية بعد أن نجح النبي محمد في التمركز ضمن الشطر الخلاق. وهذا ما حصل عندما صُلب جسد يسوع المسيح، فقد استطاع كيانه الكلي المتمركز في امتداده الخلاق أن يصطحب الجسد المصلوب، وأن يحقق معجزة الفصح، وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم عندما قال شبه لهم أنهم صلبوه، نعم لقد خيّل إليهم ذلك لأنهم ما استوعبوا أن شعلة الحياة لديه تتمركز في امتداده الآخر.

وتساءلت مندوبة تلفزيون العالم:

- هل أنتم أيضاً من أبناء آدم وحواء؟

وبعد أن تبادل الزمنيان ما بينهما نظرة نجحا في جعلها لا تفصح عن شيء، تصدّت راحيل للإجابة:

- وهل أنتم من أبناء آدم وحواء؟

وتجيب المندوبة الإيرانية بلهجة مفعمة بالثقة:

- نعم، القرآن الكريم يخبرنا بذلك.

- ألأن القرآن خاطبكم بعبارة "يا بني آدم"؟ هل تظنين أن القرآن الكريم عندما قال: "وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً" قصد بذلك أن هوداً هو أخوهم ابن أمهم وأبيهم؟ لقد تحدث القرآن عن ولدين لآدم قتل أحدهما الآخر، ولم يأت على ذكر أنه أنجب إناثاً يشاركن في متابعة النسل من بعده. ثم كيف اطمأننتم إلى كونكم نتاج سفاح قربى برضى ومباركة آدم، الذي إن لم يكن نبياً فهو شبه نبي، والذي سجدت له ملائكة السماء؟ ثم هل تحدّث القرآن الكريم عن آدم واحد أم عن أكثر من ذلك؟ هل آدم المبجل الذي تخبرنا سورة طه أنه ورغم معصيته فإن ربه قد اجتباه وتاب عليه وهداه، هل هو أبوكم نفسه الذي أتت على ذكره سورة الأعراف "هوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْس وَاحِدَة وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ{١٨٩} فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ{١٩٠}" هل يعقل أن من اجتباه ربه، وتاب عليه، وهداه، سيقع بعد ذلك في مطب الإشراك نفسه، والذي يغفر الله ما دونه ولا يغفره؟ وطالما أنك تتحدثين عن القرآن الكريم

سأستفيض قليلاً بالجواب على سؤال زميلك السابق حول كياننا المزدوج من القرآن أيضاً. لو عدنا إلى سورة طه، سنجد أن للسورة جزأين رئيسين تفصل ما بينهما آيات عامة، الجزء الأول يتحدث عن النبي موسى، والجزء الثاني يتحدث عن قصة آدم. بعد أن ينتهي الجزء الأول، يبدأ الجزء الثاني بقوله تعالى: "ولقد عهدنا إلى آدم من قبلُ فنسي ولم نجد له عزما". عبارة "من قبلُ" تدل أن هناك رابطاً مشتركاً بين الجزأين قد تكرر في كليهما، وأن الله يورده ثانية لتأكيد فكرة ما فما هو هذا الرابط؟ في الأحداث الواردة، لا شيء مشتركاً على الإطلاق، فظروف وقصة النبي موسى تختلف تمام الاختلاف عن ظروف وقصة آدم، فلا طاغية لدى الأخير يهديه، وبالتالي لا معجزات يقدمها، ولا سحرة سيتبعونه ولا أي شيء آخر. فلماذا يبدأ الله الحديث عن آدم بقوله "ولقد عهدنا إلى آدم من قبل"؟ لنمعن في التفاصيل أكثر فأكثر: في الجزء الذي يتحدث عن النبي موسى، لو أمعنا النظر في الآيات من ٢٩ حتى ٤٨ "وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي{٢٩} هَارُونَ أَخِي{٣٠} اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي{٣١} وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي{٣٢} كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً{٣٣} وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً{٣٤} إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيراً{٣٥} قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى{٣٦} وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى{٣٧} إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى{٣٨} أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي{٣٩} إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى{٤٠} وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي{٤١} اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي{٤٢}

اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى{٤٣} فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى{٤٤} قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى{٤٥} قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى{٤٦} فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى{٤٧} إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى{٤٨}". سنجد أن النبي موسى يرى قبساً من النار، فيغادر أهله منفرداً ليأتيهم بشيء منه، وهناك بالوادي المقدس يبادره الله بالكلام، ويكلّفه بالذهاب إلى فرعون في مهمّة إلهية. النبي موسى يطلب إلى الله أن يجعل له وزيراً من أهله "أخاه" هارون كي يشد به أزره فيستجيب الله. وكوننا نعلم أن هارون قد أصبح نبياً أيضاً فإن سؤالاً يطرح نفسه: هل هذه هي الطريقة التي يختار بها الله أنبياءه؟ كما أن سؤالاً غريباً أيضاً يطرح نفسه وبقوة بعد التمعن بالآيات المذكورة سابقاً: إن الموقف الذي يورده القرآن الكريم لم يتغير، ولم يحصل فيه أي انقطاع، فكيف أصبح هارون جنباً إلى جنب مع موسى؟ وكيف انتقل الله من مخاطبة موسى بصيغة المفرد إلى مخاطبتهما بصيغة المثنى؟ والأغرب من هذا أنهما يتكلمان معاً في الحضرة الإلهية !!! هل هارون هو أيضا كليم الله؟!. لو انتقلنا إلى مشهد آخر لدى فرعون نجد الأمر مختلفاً "قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى{٤٩} قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى{٥٠} قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى{٥١} قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى{٥٢}" . في بلاط فرعون يتكلّم النبي موسى منفرداً في حين يلتزم وزيره هارون الصمت كما ينبغي أن يحصل، فلماذا تكلم النبي ووزيره معاً في الحضرة الإلهية؟ هل لأن الله يعلم عن حقيقة الشخصين أمامه ما لا يعلمه فرعون، ولهذا تماهى أحدهما بالآخر

إلى درجة لا يتماهى بها الأخ بأخيه، فاختلطت فيهما صيغة الإفراد مع صيغة التثنية بهذه الطريقة الملتبسة التباس الطريقة التي خاطب فيها هارون "أخاه" موسى " يا ابن أمَّ" والتي أصر عليها القرآن وكررها في سورة الأعراف. يبدو وكأن هذه "الإخوّة" هي إخوة مجازية أراد بها القرآن الكريم علاقة أخرى.
لنتوقف الآن عند الجزء الثاني من سورة طه، الجزء الذي يتحدث عن آدم و"زوجه" والذي ابتدأه الله بقوله: "وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً{١١٥} ". ولندقق ما التشابه الذي يمكن أن نلحظه بين هذا الجزء وبين الجزء الذي تحدّث عن النبي موسى و"أخيه" هارون. يقول تعالى : "وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى{١١٦} فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى{١١٧}". لن يبدو قريباً إلى الفهم أن الله أمر الملائكة بالسجود لآدم، فسجدوا إلا إبليس، فانصرف الله فخلق حواء، وبعد ذلك قال لآدم وحواء إن هذا عدو لكما.
إذاً لقد كانت حواء موجودة لحظة السجود، فهل كان هناك فاصل زمني بين خلق آدم والسجود له، يقول تعالى بآيتين قرآنيتين مكررتين متطابقتين تماماً: "فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين" الحجر - ٢٩ - ، ص -٧٢ . أي أن السجود حصل لحظة خلق آدم، ومعصية إبليس حصلت في تلك اللحظة، وحواء كانت موجودة أيضاً، فليس هناك أسبقية في الوجود لآدم على حواء. وللتنويه فإن اسم حواء لم يرد في القرآن الكريم بل ذكرت بصفتها "زوج" آدم. فهل شخصية آدم تعني "آدم وحواء"؟ وهل اختلطت صيغة المفرد بصيغة المثنى أثناء الحديث عنهما في القرآن؟ لنتأمل الآيتين التاليتين: "فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة

الخلد وملك لا يبلى" طه –١٢٠ –. "فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين" الأعراف ٢٠ –. التماهي ذاته الذي حصل بين موسى و"أخيه" هارون يحصل بين آدم و"زوجه" حواء. ألا يدل هذا إلى أن الله يشير لنا إلى طبيعة مثنوية خلقنا عليها، وأودع تلميحه على هذا السر في طبيعة الإنسان في هذه السورة بالذات؟ يترسخ هذا الظن أكثر فأكثر إن علمنا أن كلمة "طه" تعني في اللغة السريانية القديمة "الإنسان"!

سأل حزقيل المندوبة الإيرانية:

– هل أقنعتك راحيل بمداخلتها؟

– لست أدري.

– بالتأكيد لا تدرين، فلن تدري إلا ما تلقنه لك مرجعيتك الدينية.

– اقتنعت ببعضه.

– مثل ماذا؟

– أن لا أسبقية في الوجود لآدم على حواء.

– هل أحببت هذا لأنك امرأة؟ عموماً ما كان عليك أن تقتنعي بتلك السرعة، فللزمن سيرورة أخرى لا علاقة لها البتة بما تدركونه في يقظتكم. سأعطيك مثالاً: كلكم لاحظتم أثناء أحلامكم أن أحداثها يحركها أحياناً حدث خارجي، كأن تشاكسكم ذبابة مثلاً أثناء نومكم، فتختلقون لذلك حلماً مواتياً. لنتخيل الآن حلماً كهذا: رجل يشرق بلعابه وهو نائم، يعتدل

جالساً في فراشه وقد دهمته نوبة من السعال، بعد ذلك يستحضر أحداث حلم رآه قبل أن يستيقظ. "كان يسير في أحد الأسواق المزدحمة، يتأمل واجهات المحلات بحثاً عن مخزن لبيع الأقراص المدمجة، يجده ويدلف إلى الداخل فيبتاع غرضه ويهم بالخروج، وإذا به وجهاً لوجه مع أحد أصدقائه، بعد تبادل عبارات الترحيب ينصحه الصديق بشراء قرص مدمج يحوي لعبة مبتكرة، يؤكد الرجل لصديقه أنه ليس من هواة الألعاب الكومبيوترية، فيصر الصديق على أنها لعبة مختلفة تماماً عن سواها، لعبة تفاعلية يتماهى بها اللاعب مع أحداث اللعبة، ولأن للحلم قوانينه وقواعده يقتنع الرجل بذلك ويشتري القرص المدمج الذي أشار عليه به صديقه. يعود الرجل أدراجه، فيدخل بيته، ثم يتناول غداءه، ويستسلم لإغفاءة القيلولة. بعد أن يستيقظ يأخذ حماماً دافئاً، ثم يتذكر اللعبة فيمضي إلى جهاز الكومبيوتر، ثم يدخل القرص المدمج في السواقة ويبدأ اللعب: يتسلق مع لاعبه جرفاً صخرياً شاهقاً، وعند قمة الجرف يكون عليه أن يسير على حبل مشدود يصل إلى قمة جرف صخري آخر، يفصل ما بين الجرفين مسطح مائي. تتعثر أصابعه على لوحة المفاتيح فيسقط اللاعب في الماء، ويشرق بكمية من الماء ابتلعها". لقد شرق الرجل بلعابه وهو الحدث الخارجي الذي ولّد الحلم لديه، فاستيقظ في اللحظة ذاتها التي شرق فيها لاعبه بالماء الذي يغرق فيه، فمتى حصلت كل أحداث حلمه التي استغرقت نهاراً بأكمله؟ وكيف تتابعت في الحلم كل الأحداث التي مهدت للحدث الذي اقتضاه الحدث الواقعي؟ للزمن وأنتم نائمون سيرورة أخرى لا تشبه سيرورته في يقظتكم، له جيوب تُفرد وتُطوى تسكنها أحداث متلاحقة متزامنة في آن واحد. من يدري لعل شيئاً من هذا

القبيل حدث ما بين خلق آدم وخلق حواء.

وتتساءل إحدى القبيسيات:

- هل تؤمنون بالآخرة؟

- "الأولى والآخرة"، عدنا إلى المصطلحات الزمنية من جديد. الأمر ليس كما تتوهمون. أحيلك إلى هذه الآية من سورة "يس": {قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ } يس ٢٦. "قيل" في الزمن الماضي، إذاً لقد دخل الرجل الجنة وقومه مازالوا في الحياة الدنيا لا يعلمون ما الذي حصل. هل يتوافق هذا مع مفهومكم ليوم القيامة على أنه حدث موقوت، يدخل بعده الجنة من يدخلها، ويدخل النار من يدخلها؟ أو فلنتأمل هذه الآيات: "فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ{٧} فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً{٨} وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً{٩}". أينقلب من أوتي كتابه وحوسب إلى أهله ثانية؟ لا شك سيبكي بعض المفسرين على شاشات التلفزيونات، مفندين ما نقول، مفبركين تفاسير ما أنزل الله ولا اللغة بها من سلطان في سبيل دعم معتقداتهم، ولكننا نرى أن القرآن يفقد كل أهميته عندما يضعه المفسرون موضع الشبهة، ويضطلعون بدور المنقذ له من هفواته التي نسبوها هم أنفسهم إليه لعدم فهمهم ومعرفتهم بكثير من حقائق الحياة التي يعيشونها.

واختتم الأسئلة مندوب التلفزيون السوري:

- نسألكم السؤال فتجيبون عليه بعباب من الأسئلة الأخرى، بل أكثر من ذلك فأنتم تفنّدون بعض ما أقنعتمونا به. لماذا لا تجيبون إجابات واضحة وصريحة.

- ابحثوا في عباب أسئلتنا عن أجوبة أسئلتكم، فإن استعصى عليكم ذلك، فإن إجابات أخرى أكثر وضوحاً ستكون لنا في مؤتمر صحفي آخر، سنعقده عند انتهاء مهمتنا.

***

أشارت عقارب الساعة الجدارية العملاقة المعلقة في بهو قصر التيه إلى الثامنة تماماً من مساء يوم الخميس، وهذا يعني أن ساعة واحدة ستمضي ثم يبدأ لقاء ثراء الأسبوعي. كل شيء كان كما ينبغي أن يكون: قُطع التيار الكهربائي عن المنزل، وتألقت شمعدانات تناثرت في كل مكان، وسمح للهواء بالمرور عبر كوى ضيقة مروراً مقنناً تمايلت له الستائر متأرجحة ما بين الأعمدة الرخامية، فماجت ظلال وتحركت أشباح. ومن وراء زجاج نافذتها، كانت لميس ترقب هذا الجنون الذي يخترع نفسه في البهو الكبير عندما دخل نزار. وما إن رأته حتى فتحت باب غرفتها ومضت تهبط الدرج إليه.

- الحمد لله أنك كنت أول الواصلين، لو تأخرت أكثر لجننت حقاً.

كان نزار يعرف ما تعانيه لميس من مزاجية خالتها، ومما تشيعه من أجواء التطرف في منزلها، ولكن ما يراه اليوم في عينيها مختلف عن كل ما عرفه من قبل من مشاعر التبرم والضيق. كانت تتحدث كمن يتفجر الكلام منه تفجراً:

- نزار! إنني أختنق، أختنق وأستغرب ألا يرى الآخرون اختناقي.

وقبل أن يجيب أمسكته من ذراعه وجذبته بشدة وهي تقول:

- هيا، دعنا نخرج من هنا فوراً، أشعر بالرغبة في الذهاب إلى أي مكان، في الجري بلا هدف عبر الطرقات.

- وموعدنا الأسبوعي مع ثراء؟

- لقد قلت لها إنني متوعكة ولن أشارك هذه المرة.

نظر إليها بهدوء، ثم أردف بلهجة متزنة أراد لها ان تفرمل بعضاً من هياجها:

- من كانت متوعكة عليها أن تلازم حجرتها لا أن تركض عبر الطرقات. كما أنني ملزم على البقاء هنا هذه المرة أكثر من أي مرة أخرى. فأنت تعلمين أنني تجاهلت كل توسلات أمي أن أسافر إلى طرطوس إزاء إصرار ثراء على حضور هذا اللقاء بالذات.

- وأنا؟ أين مكاني في سلم أولوياتك يا نزار؟ أقول لك سأجن لو بقيت هنا دقيقة أخرى.

لم تمهله كي يعلق على ما تقول، بل تابعت بلهجة مندفعة:

- ستقول لي ما الجديد في الأمر؟ وما الذي يميز هذا اللقاء عن سواه؟ لا شيء، لا شيء إطلاقاً، ولكن أليس لكل شيء نهاية؟ وأنا أحس أن هذا اليوم هو نهاية حياتي في هذا البيت.

- نفذي قرارك غداً أو بعد غد أو في أي يوم آخر، أما الآن فضيوف خالتك سيصلون تباعاً ولا يليق أن تسببي لها إحراجاً أمامهم. اسمعي معنا ساعة كاملة من الزمن، يمكنك خلالها أن تفرغي على مسامعي كل ما لديك

من شحنات كلامية، وسيسعدني جداً أن أسمع كل ما تقولين.

أجابت مستسلمة:

– فلنصعد إلى غرفتي إذاً. لا أطيق البقاء في هذا المكان المجنون.

نجحت الدقائق القليلة التي تلت حوار الشابين في تهدئة روع لميس، وفي حجرتها الواقعة في الطابق العلوي من الفيللا، والمطلة نافذتها على البهو الكبير، كان نزار ولميس يجلسان متقابلين، يتأملان معاً عبر النافذة هذا الجنون الذي أخذ يتحول شيئاً فشيئاً إلى مناظر موحية حالمة.

– معك يتغير كل شيء يا نزار! تنقلب الأشياء إلى أضدادها، حتى أنا أحس أنني إنسانة أخرى لا علاقة لها بتلك التي كانت منذ قليل على حافة انهيار عصبي.

وصمتت قليلاً وعلى وجهها سيماء ألم معتق، ثم تابعت:

– لكم أود لو كنت مثلكم أنتم ضيوف هذا البيت، تأتون إليه مرة في الأسبوع، تلونون حياتكم بألوان الجدة والغرابة فيه، ثم تعودون إلى الحياة المتفاعلة في الخارج.

قاطعها قائلاً:

– ولكن ثراء لا تفعل كل هذا من أجل التسلية وتلوين لحظات الفراغ.

– كل الذين سيصلون بعد قليل آتون من أجل هذا.

– وأنت؟

لاذت بالصمت لحظات ثم أجابت:

– أخشى مشوار التفكير يا نزار فلا تجرني إليه.

لم يقتنع بمنطقها هذا، لكنه نزل عند رغبتها لأنها لم تكن في حالة تسمح له بأن يتحدى إرادتها.

كان أول الواصلين بعد نزار الرسام أكثم الخالدي، وهو فنان تشكيلي مرموق بدأت علاقته بثراء بعد عودتها من باريس. كان يومها شاباً مغموراً وموهوباً في آن واحد، وكان تعرفه إليها هو الحدث الأبرز في حياته. بداية لم يكن يريد منها إلا أن يقترب أكثر فأكثر من ألقها المهيب، ولعله في ذلك مشترك مع جميع أعضاء ناديها العجيب التكوين والتركيب، وليس هذا بغريب على امرأة كثراء تختزل في شخصيتها عشرات النساء، ويجتمع لها من ميزات الجذب السحري ما قلما يتوفر بعض منه لامرأة أخرى. ثم غدت بعد أن توطدت العلاقة بينهما التلميذة والملهمة معاً ، ولكنها سرعان ما تحولت بذكائها وسلطانها من التلميذة إلى الأستاذة، ومن ملهمة تحرك كوامن الموهبة إلى إلهة تهب أسرار الخلق، وتمنح مفاتيح الإبداع إلى صفوة أتباعها. وبهذا الأسلوب، وبأساليب أخرى أيضاً لم تكن لتعجز عنها ثراء، كبر اسم أكثم الخالدي بسرعة صاروخية لم يكن ليحلم بها حتى في أحلام يقظته.

قالت لميس:

– هل تظن أنه أراد الوصول إلى القمة عن طريقها؟

أجاب نزار:

– الهدف الأول للجميع هو ثراء بحد ذاتها، إنها القمة الأهم لديهم جميعاً.

– ليكن الأمر كذلك في البداية، ولكن في مرحلة لاحقة هل تتوقع أن أكثم الخالدي تاجر باسم ثراء؟

– بالتأكيد لا، فالاتّجار باسمها ليس محظوراً فحسب بل هو الكفر بعينه، وأكثر من هذا فأنت تعلمين أنه حتى الإعلان عن العلاقة بين أي منا وبين ثراء هو حق من طرف واحد، وهي صاحبة هذا الحق طبعاً، وقد مارسته في وقته ومكانه المناسبين، وكان حصاد أكثم الخالدي في النهاية أكثر بكثير مما كان سيجنيه من أية محاولة من قبله للاتجار باسمها.

– وهل فعلت خالتي كل هذا بلا مقابل؟

– لم أقل هذا.

نظرت إليه نظرة فيها من اليقين أكثر مما فيها من التساؤل:

– لا أظن أنك تعتقد أنها تشتري صداقة أكثم الخالدي أو أي أحد آخر.

– بالطبع، فالصداقة هي مطمح الطرف الآخر دائماً. لكن ثراء تريد أن ترفع من مستوى أصدقائها، لا لتتشرف بهم، بل ليغتني بهم مجلسها، ويكون الرابح في النهاية هو الفكر والفن والأدب، عناصر الخير العليا الذي هو جوهر الله. إن العلاقة الجدلية التي تربط بين الله والناس - حسب فلسفة ثراء - والتي يحتاج الله بموجبها دعم ومساندة البشر، هذه العلاقة إن وجدت بين ثراء ورواد ناديها لن تنقص من قدرها أو تقلل من شأنها.

لم يطل مكوث أكثم الخالدي منفرداً مدة طويلة. فبعد دقائق من وصوله

ظهرت على باب البهو أم نبيل بأناقتها المبالغ بها، وملامحها المشدودة دائماً، والتي تجعلها تبدو كأنها واقعة تحت تأثير منبه مستمر. وأم نبيل هذه منجمة ولكن على مستوى رفيع، وشقتها الكائنة في أحد أرقى أحياء دمشق، يقصدها كبار رجالات المدينة وإن كانوا يفعلون ذلك بسرية تامة. أما ثراء فربما كانت الوحيدة بين علية القوم التي تصرح علناً بعلاقتها بها. عن طبيعة عملها تقول أم نبيل:

– لا أدّعي أنني عالمة فلكية. إنني بكل بساطة ووضوح أتعامل مع الجن.

وعندما سألها نزار ذات مرة، أثناء محاولته معرفة الجوانب الأخرى في حياة أعضاء نادي ثراء لتكوين صورة متكاملة عن الوسط الذي سرق من أخته حياتها:

– ولماذا اخترت هذه العلاقة مع مخلوقات يخاف الناس عادة من ذكرهم أو التحدث عنهم؟

أجابته أم نبيل بوضوح وعفوية:

– لم أختر العلاقة بإرادتي، بل كانت بالنسبة لي ميراثاً قسرياً. هناك إنسان ما ربما كنت لا أعرفه، كان على علاقة معهم، وقبل أن يموت أوصى لي بخلافة هذه العلاقة. كنت يوم ذاك في السابعة عشرة من عمري، طالبة مجتهدة تستعد لنيل الشهادة الثانوية، وكنت أحلم بدخول كلية الطب البشري. وفجأة بدأ أشخاص من الجن يزورونني بدون آذن أو استئذان. ولاحظ أهلي أنني أتبادل الأحاديث مع نفسي، فعرضوني على طبيب نفسي دون جدوى. وبعد رحلة من العذاب لا توصف، وبعد الكثير من الأخذ

والرد، استقامت العلاقة بيننا كما هي عليه الآن.

تساءلت لميس في حجرتها:

- أتراها مريضة نفسانية، تعاني شكلاً من أشكال الهلوسة، فيتهيأ لها أن الجن يزورونها، يبادلونها الأحاديث ويمدّون لها يد المعونة؟

أجاب نزار:

- إن كان الأمر كما تقولين، فما قولك بالعديد من الخفايا التي كشفتها، والحالات المرضية التي تم شفاؤها على يديها، وأنا وأنت على ذلك شهود؟

- بعض البشر الاستثنائيين ترافقهم حالات غير عادية: لعنة، أو بركة، أو قوة عضلية خارقة، أو عيون ذوات نظرات تصيب من الآخرين مقتلاً.

رفع نزار كتفيه، وتدلى طرفا شفتيه إلى أسفل في حركة منه تعني أن "لست أدري". وبلفتة استعراضية لم تعد أم نبيل بحاجة إليها التفتت نحو الرسام أكثم الخالدي قائلة:

- عند الساعة الثامنة واثنتين وعشرين دقيقة وثمان وثلاثين ثانية سيدخل أول زائر جديد.

لم يشك الرسام لحظة بصحة هذا الكلام، ولكن حلا له أن يتسلى باكتشاف صحته، فعلق عينيه على عقارب الساعة الجدارية، وقبل ثانية واحدة من الموعد المحدد التفت صوب مدخل البهو، وإذا على الباب كل من محمد ونوس وكمال إبراهيم. دخلا معاً، وألقيا على الرجل والسيدة الجالسين تحية مشتركة، ثم تقاسما معاً مقعداً إفرادياً، وما إن استقرا فيه

حتى وضع أحدهما رجله فوق رجل الآخر، ثم أشعلا سيجارة أخذا ينفثان دخانها بصمت وهدوء. ومحمد ونوس وكمال إبراهيم هما رجل واحد عاش حياتين منفصلتين. أولاهما كانت في قرية صغيرة من قرى طرطوس تختبئ بين سلسلة من الجبال والوديان، قرية صغيرة ربما تجهل وجودها حتى دوائر الدولة الرسمية. وقد عاش في حياته تلك عمراً مديداً، كان حصاده منه كيساً مملوءاً ليرات ذهبية. وخشية منه أن يبعثر أبناؤه كل ما جنت يداه خاصة، في سنواته الأخيرة عندما اشتدت عليه وطأة الشيخوخة وتقلص سلطانه على أفراد أسرته، فإنه عمد إلى إخفاء أمواله في مكان مجهول، وبموته مات معه سر الليرات الذهبية اللماعة. حياته الثانية كانت في دمشق، وكثيراً كثيراً لكن دون جدوى، حدّث والديه عن زوجة وهمية وأولاد مفترضين، ووصف لهم جبالاً وعرة وعيوناً غزيرة ومنازل من طين وقش وأخشاب. شيء واحد توقف عنده الوالدان الجديدان: الليرات الذهبية. وعندما تقاسمت الأسرتان مناصفة الميراث الدفين، أحنى والدا الطفل رأسيهما أمام الحقيقة الذهبية، وصدّقا رواية ابنهما الغريبة. والليرات الذهبية التي تم اقتسامها لم تأت بيسر وسهولة، خاصة في ذلك الزمن الذي كان فيه رغيف الخبز غاية صعبة المنال، بل كان ثمرة هجرة واغتراب اكتوى بنيرانها الكثير من أبناء تلك المناطق. ففي مطلع القرن الماضي هاجر محمد ونوس مع من هاجر من أقرانه إلى أمريكا، واستقر هناك في نيويورك، وكان أحد القلائل الذين ابتسم لهم الحظ، فجنوا من اغترابهم ثروة لا بأس بها. بعد نصف قرن من الزمن، حزم محمد ونوس حقائبه، وعاد إلى قريته مرتديا الشروال ذاته الذي هاجر به. وقد رفض كل العروض والمشاريع التجارية التي قدمها له الكثيرون ممن

سمعوا عن ثروته، وقام بشراء جبل وعر مجاور للقرية، ابتنى فيه داراً صغيرة، وتزوج من شابة حسناء في العشرين من عمرها بينما كان قد تجاوز الخامسة والستين، ثم أنفق العشرين سنة الأخيرة من عمره يستصلح الجبل الذي اشتراه وسط ذهول كل من يعرفه، وخيبة الأمل المريرة لدى الزوجة الشابة التي ظنت أنها ستتمتع بثروته في حياته أو بعد مماته. أما كم معه من المال؟ وأين هو الآن؟ فهو سر بقي طيّ الكتمان إلى أن فضحه كمال إبراهيم فيما بعد.

كعادته في كل أسبوع وصل الدكتور سميح في تمام الثامنة والنصف، ولم تعلن أم نبيل عن وصوله لأن موعد وصوله بات معروفاً للجميع. ألقى التحية على الحاضرين ثم صعد الدرج كما في كل مرة إلى غرفة لميس ليتناول هناك فنجاناً من القهوة. لم يتلق سميح الذي تجمعه بثراء أصول ساحلية أية رسالة من ثراء خلال فترة إقامتها في باريس، ولم يفاجئه ذلك فقد كان يعرف قبل أن تسافر أنه بات لديها مجرد ذكرى لأيام غابرة لعلها لا تريد أن تتذكرها، ولم يتألم لذلك كثيراً، فقد اعتاد مع الأيام على تلك الطعنات منها، والتي بات يعتبر أنه هو من يسددها إلى صدره لا ثراء. فمن حقها أن تتصرف انطلاقاً من مشاعرها، ولا يحق له أن ينتظر منها تصرفاً ينطلق من مشاعره هو. بعد عودتها اكتشف أنها لا تمانع في أن يكون ذكرى لأيام تعترف بها جزءاً هاماً من حياتها، ولا تريد أن تنساها. وكالعادة طبعاً كان لها ما أرادت، بل إنه نجح مع مضي الأيام في تحويلها إلى شيء مماثل في نفسه. وبعد سنوات من الزواج وإنجاب الأطفال، سيعرف سميح أخيراً أن ثراء قد أحبته خلال كل مراحل حياتها بأقصى درجات الحب التي كان ممكناً لثراء أن تمنحها لرجل في الدنيا، ولكن هذا كله كان على طريقتها الغامضة والخاصة جداً.

كان آخر الواصلين إلى الفيللا الرجل الموسوعي الشامل والماركسي المعتق عاصم إدريس، ذلك الرجل الذي شغفته مجالات الحياة بكل جوانبها، فتصرمت سنوات عمره الستون مبعثرة بين زواياها دون أن يجد لنفسه مجالاً ثابتاً يستقر فيه، ويقدم نفسه للآخرين من على منبره. لذلك كان الناس ينظرون إليه على أنه مجموعة من الناس العاديين الذين يسيرون جنباً إلى جنب. وكانت ثراء أحد القلائل جداً الذين استطاعوا أن يجمعوا أشلاءه المتناثرة هنا وهناك، ليشكلوا منها كياناً واحداً متميزاً وعلى قدر من الأهمية. يقينه أن اليوم الذي سيقدم فيه شخصية عاصم إدريس إلى الناس على قدر ما تستحق هو يوم آت لا ريب فيه دفعه ومنذ سني حياته الأولى إلى ممارسة لعبة ظن أنها لعبة عبقرية ومبتكرة، تقضي أن يتقمص وحسب الظروف شخصيات شتى مغايرة لشخصيته تكون بمثابة الدرع الواقي لعاصمه ذاك إلى أن يحين أوان تجليه. ومرت السنوات طوالاً وهو يتنقل من شخصية إلى أخرى، حتى باتت شخصيته الأصلية شبحاً غامضاً غير محدد المعالم لشخص التقاه منذ زمن مجهول لا يستطيع أن يتذكر تاريخه، وشيئاً فشيئاً أخذ يتبرم من ذكرى هذا الرجل غير المرغوب فيه ويتوق إلى نسيانه. وحتى يتخلص منه نهائياً فكر بتغيير اسمه. قيل له إن ذلك ممكن بطريقة قضائية، ولكن الأمر سيبدو مضحكاً للغاية، خاصة وأنه رجل معروف ومسن، وضيف دائم على كل الندوات التلفزيونية التي يجيد خوض غمارها أياً كان موضوعها. كل ذلك لم يمنعه من المضي قدماً على طريق تنفيذ تلك الفكرة، إلى أن اصطدم بعقبة لم يفكر بها من قبل، وهي الاسم البديل، فطوال حياته لم يقترح على شخصياته المبتكرة أي اسم، بل اكتفى بأنها هو أو أنه يعرفها، ولكن طلبه

أن يكون اسمه الجديد "أنا" أو "الذي أعرفه" قوبل بالرفض والاستهجان، فصرف النظر عن تغيير اسمه. لقد تعرف عاصم على ثراء أثناء إقامتها في باريس، وأحبها وأعجب بشخصيتها المميزة. أما هي فقد أحبت فيه حبه لها، وكافأته عليه بأن اختصته بالمكانة التي كان يحلم بها دائماً. وعندما عادت إلى دمشق، كان قد سبقها إليها، وعن طريقه تعرفت إلى أكثم الخالدي وأم نبيل اللذين فترت علاقتهما بعاصم إدريس بعد ذلك.

***

إحدى الشرائح المجتمعية المتعددة التي اجتذبتها أندية دمشق، لتشكل أحد ألوان أطيافها المتعددة، كانت متمثلة بناد تشكل في القصاع معبراً عن فئة كبيرة من الناس أفرزتها الحرب المجنونة. فئة لم تستطع أن توائم بين ما تبتغيه آمالها وطموحاتها من الحياة والمجتمع، وما هو واقع راهن كرسته الحرب البغيضة. مثل هذه الشريحة تفرزها الأزمات الكبرى في كل زمان ومكان، حتى أنها أصبحت قاسماً مشتركاً بين شعوب الأرض وأممها، وهذا ما يجعلها تتلمس في شخصيتها سمات من الصواب المطلق يمليها عليها سعة انتشارها في كل أرض حطت فيها أزمة كبرى رحالها. وهي تشهر السلبية وسيلة اعتراض على كل ما هو قائم، وتعلن العداء لكل ما هو موجود، حتى وإن كان سليماً وصحياً في بعض جوانبه. فغير بعيد كثيراً عن ساحة "برج الروس"، حيث ما فتئت الذاكرة الدمشقية تحتفظ بذكرى الجماجم التي أقام بها تيمورلنك البرج الشهير، كانت تقوم "خمارة جورية". وهي ليست خمارة بالمعنى المتداول للكلمة، ولا يؤمها عابرو سبيل يرغبون بالسكر والعربدة،

بل شقة مترفة لموسيقار معروف وثري هو إياد الطيّان، الذي حوّلها مقراً لناد يرتاده أصدقاؤه، يمارسون فيه رفضهم للواقع وحربهم عليه عبر السفر على صهوات المشروب السحري .

لم يكن صالون شقة إياد الطيان يشبه الصالونات المنزلية، بل كان أشبه بصالة في فندق. كانت الآرائك فيه تتوزع على شكل مجموعات صغيرة، تفصل ما بينها مساحات تكفي للحركة، وتمنح المجموعات المتنادمة شيئاً من الخصوصية إن أحبت ان تجنح إليها. وعلى حواف الطاولات كانت الأراكيل تنتشر بوفرة ملحوظة. في أقصى ركن من الصالون كان يقبع "بوفيه" اغتنى على الدوام بتشكيلة من زجاجات الشراب، وأفانين من المازوات تغطي كامل ألوان الطيف من الأذواق. أم طوني، والتي هي بشحوبها الشبحي تبدو وكأنها جزء من ديكور البوفيه، كانت أكثر حصانة من أن يتساءل أحد عن صوابية وجودها هاهنا. عرفها إياد الطيان عن طريق المهندس رياض المعيد في كلية الهندسة المدنية في جامعة دمشق، وكانت قصتها التي ألهبت قناعات إياد تجعلها لديه وكأنها حاملة لوسام الاستحقاق، أو ربما بطلة أولمبية غابرة.

انتحى المحامي حسام ركناً منعزلاً من الصالون، بعيداً عن الركن الذي يختص به دائماً الموسيقار إياد، وما يكتنفه من صخب تشيعه فيه المطربة ناهد بضحكتها الرنانة المجلجلة، التي توشك أن تعيد الحياة لجماجم برج الروس، والمخرج التلفزيوني أسامة ذو الدور الفتنوي المحرض والموزع للأدوار في ذلك المجلس، والسيدة هدى التي تشبه أحجية لا تعرف هي نفسها طريقة لحلها، وكأنما هي توليفة من متناقضات شتى، فهي ودودة طيبة كما أنها

حاقدة على الجميع بما في ذلك على نفسها، وفي نفس الوقت الذي تفتح فيه قلبها وسريرتها كتاباً مفتوحاً أمام الجميع حيناً، فإنها تشهر أظافرها في وجوه الآخرين أحياناً أخرى لتدفع عن حصونها تطفل المتطفلين، وفي كل الحالات يبدو التعامل معها أشبه ما يكون بالسير في حقل ألغام، لا يعرف الطارق سبله متى وأين ينفجر اللغم فيه.

عندما تعرف إياد على ناهد منذ نحو من ثلاثين عاماً، كانت مطربة واعدة في العشرين من عمرها، وكان هو ملحناً قد بدأ يثبت جدارته في مجال الموسيقا والألحان. ورغم كونه متزوجاً فقد نشأت بينهما علاقة عجيبة، ما زالا حتى الآن وبعد مرور ثلاثين عاماً لا يعرفان تماماً ما طبيعتها، وماذا يريدان منها. بعد عدة سنوات من لقاء إياد بناهد يتم الطلاق بين إياد وزوجته، ولكن بعد أن تكون ناهد قد تزوجت رجلاً آخر من الوسط الفني أيضاً هو الممثل زاهر. راضياً أو غير راض وجد زاهر نفسه جزءاً من هذه اللعبة، فمارس قبوله بها وكأنها قضاء لا راد له. بل أصبح يرتاد نادي إياد كلما صادف وجوده في دمشق، حيث كان - ورغم زواجه من ناهد - يقضي معظم أيامه في القاهرة.

العلاقة العجيبة الملتبسة التي جمعت بين إياد وناهد زادت من ألق وجمال ناهد في عيون زملائها وجمهورها، بل لعلها فعلت ذلك أيضاً في عيني زاهر نفسه، وهذا ليس غريباً، ألم تحوّل قصص الحب عبر التاريخ نساء عاديات إلى أساطير تختزنها ذاكرة الأجيال؟ لهذا فقد كان تمسك ناهد بتلك العلاقة، والرغبة في نشر الشائعات حولها مفهوماً ومبرراً، سيما وأنها تستثمر حياتها العائلية والفنية استثماراً كاملاً، لا تُنقص منه هذه العلاقة شيئاً إن لم تكن

تضيف إليه. لكن الأمر يغدو أكثر غموضاً بالنسبة لإياد، الذي استغرق في تلك العلاقة حتى الثمالة، فانصرف عن كل تفاصيل حياته الأخرى، بما في ذلك فنه وألحانه، فلم يعد يلحن إلا إذا طلبت إليه ناهد ذلك، وألحانه لها بالمجان طبعاً، ساعده على انتهاج هذه الحياة أنه موسر لا يحتاج وسيلة دخل. انتبه رياض إلى انعزال حسام فانسحب من مجلس إياد ومضى إليه .

كان رياض يعلم أن زوجة حسام تلازم والدها الراقد في المشفى منذ عشرة أيام، تاركة طفلتها التي لم تتجاوز السنة من عمرها في رعاية حماتها.

- أما زالت زوجتك ملازمة لأبيها في المشفى؟

أيقظه صوت رياض من شروده، فنفض الرماد الذي استطال كثيراً على طرف سيجارته في المنفضة أمامه، وأخذ من السيجارة نفساً طويلاً، وبدأ ينفث الدخان والكلمات معاً إلى سقف الغرفة:

- ليت الأمر بقي مقتصراً على ملازمته في المشفى.

- وماذا إذا؟

أطلق ضحكات متتابعة هي أقرب إلى النحيب ثم بصق كلماته حرفاً حرفاً:

- تريد أن تتبرع له بكليتها.

واستدرك باشمئزاز:

- وهي لا تفعل ذلك من باب البر بوالدها، بل مشاكسة لي، فما إن هممت

بالاعتراض على خطتها حتى قالت لي: أنت تمضي معظم وقتك ملازماً لأمك. أمي عجوز مريضة، وليس لها غيري، ورغم هذا فإنها تضطلع هذه الأيام بالعناية بابنتنا على ما هي فيه من إعياء، بسبب تفرغ زوجتي لرعاية أبيها.

- لِمَ لا تقاسمها حماتك هذا الدور؟

- حماتي؟! بالتأكيد لن تفعل، إنها على شفا الانهيار العصبي من تصرفات ابنتها. فقد تعرضت لعملية استئصال الرحم بعد ولادتها لزوجتي، فما كان من زوجها الذي يرغب بوريث ذكر إلا أن طلقها، وتزوج امرأة ثانية أنجبت له ثلاثة ذكور هم شباب الآن. تقول حماتي وأقول معها ذلك: أليس أولاده الذكور أولى بهذه التضحية؟ المرأة أشد حاجة إلى كليتيها من الرجل، فما زال عليها أن تحمل وتنجب، فأنا أيضاً أرغب بمولود ذكر.

بكل ما تنطوي عليه المحاضرات النظرية من استسهال في توجيه النصح والإرشاد، علق رياض بعد فترة صمت قصيرة:

- كل ما ذكرته منطقي وصحيح، ولكن هل يحق لأحد أن يمنع شخصاً من التبرع بكليته لأبيه.

- من السهل أن تحاضر في رهط تُحدق بهم ألسنة اللهب، لكنك لن تستطيع بسهولة أن تحس بما بهم.

- من أبدى لك بعض اللامبالاة وعدم الانتباه، لا يعني بالضرورة أنه ما اشتمّ رائحة حريقك.

بددت هذه الأجواء المشحونة ضحكة رنانة أطلقتها ناهد في الركن الآخر من المجلس، وكأنها عن غير قصد منها أرادت للجلسة أن تثوب إلى رشدها، ولا تنسى أن خمارة جورية ليست المكان المخصص لتداول الهموم بل لتبديدها.

***

تأخرت الطائرة القادمة من باريس كدأب الطائرات السورية دائماً، فتبديد الوقت كيفما اتفق، وعند كل مفصل من مفاصل الحياة اليومية السورية بات هوية مميزة، ربما كانت على ما هي عليه من سوء وضلالة عامل وحدة لبلد لم يعد يغتني إلا بعوامل تشرذمه وتشتته. كان ذلك التأخير فرصة لخالد كي يعيد ترتيب أفكاره قبل وصول أخيه طه، لكنه وجد نفسه يجتر الأفكار المضطربة والمشوشة ذاتها التي استسلم إليها كرهاً مذ عرف بموعد رجوع أخيه. إنه لم ينم ليلة أمس، كان يفكر في اللقاء الذي سيجمعه بطه بعد غياب خمس عشرة سنة، طه الذي تقاسم معه طفولة في بيت كبير ما احتواه من مساحته في لحظة منها إلا المتر المربع ذاته الذي يحتوي أخاه، طه الذي اقتاده من يده إلى المدرسة في يومها الأول، حيث كان يغل برأسه الصغير تحت إبط أخيه وكأن أمان الدنيا كله متمثل في هذه الذراع التي يتشبث بها، طه الذي كان يتفقد له سريره وما تحت سريره يومياً قبل النوم كي ينام مطمئناً إلى عدم وجود وحش تحت السرير، ثم لا ينام قبل أن يتأكد من نوم أخيه الصغير. الموقف المحرج الذي ينتظره أطاح بفرحة اللقاء. كيف سيقول له ذلك؟ كيف يقول له إن بيت أبيك لا يحتمل وجودك فيه، البيت المؤلف من

طابقين كل منهما بمساحة تزيد عن مئتي متر مربع لا يتسع لك فقد استملكته أمي وابنتها. حمد الله أن عبد الواحد لم يعد بينهم، أي أنه لن يضطر أن يقول لأخيه "لن تستطيع العودة إلى بيت أبيك لأن زوج زوجة أبيك يقيم فيه". كان الموقف أقل إحراجاً مما توجس خالد فطه هو من قال:

– سأصطحب حقائبي من المطار مباشرة إلى شقة مفروشة يمتلكها أحد أصدقائي في "باب توما" إلى أن يتم ترتيب أمر بيت "أبو رمانة" ما بيننا.

كما في كل الأحداث الهامة بالنسبة لأصحابها، رتّب اللقاء ما بين الأخوين نفسه بنفسه بعيداً عن كل الترتيبات التي وضعها خالد. هكذا دائماً تصنع المواقف برامجها، وتحرك أبطالها كشخوص مسرحية عبر فصولها، غير عابئة بكل أوهامهم بأنهم هم من يصنع الأحداث ويبتكر المواقف.

في السيارة وهما ينطلقان صوب المدينة، كان طه يمعن النظر في تفاصيل الطريق وعقده الطرقية الأنيقة، وكأنه غير مصدق أن طريقه سيفضي في النهاية إلى دمشق. على جانبي الطريق تقوم أحياء حديثة وأنيقة لم تكن موجودة قبل سفره، لكنها كانت تخفي تحت نقاب جمالها حقيقة أن الأحياء القديمة هنا قد ابتلعتها الحرب. حدّث نفسه مواسياً:

– "لقد مرّ على دمشق خلال عمرها المديد ما هو أقسى من ذلك بكثير ثم زال وبقيت دمشق"

نعم، مهما ناكفه الزمن فمطّ دقيقة من هنا وأطال ثانية من هناك، الطريق سيفضي في النهاية إلى دمشق، دمشق التي لم تستطع باريس أن تمحو من ذاكرته أي تفصيل من تفاصيلها، هذه التفاصيل التي ينتابه إحساس بأنها

تُعدّ له كرنفال استقبال يتكامل مع ما أعدّ لها من برامج للزيارة. أما خالد الذي استوعب بسرعة لعبة المواقف التي تصنع نفسها بنفسها، فقد استسلم تماماً لمرامي هذه اللعبة، منتظراً ما ستقدمه له أو ما ستأخذه إليه.

من خلف مقود السيارة تساءل خالد:

- هل أعرف صديقك الذي أعارك شقته؟

- لا، ليس من أصدقائي القدامى، تعرفت عليه عن بعد عن طريق أصدقاء مشتركين في باريس منهم خالي، الذي أعطاني مفتاح الشقة، فقد اعتادت المجموعة التي كنت أنتمي إليها هناك، كلما قرر أحدها زيارة دمشق أن ينزل في هذه الشقة. قال لي خالي أن هذا الرجل هو أحد أقرب الأصدقاء له ولوالدنا منذ أيام شبابهم الأول، وقد جمعت ما بينهم أيضاً رحلة سوق ناجحة حيناً متعثرة حيناً آخر، أو ربما رحلة حياة صنعت مصائرهم على هواها فخطفت من خطفت، وباعدت من باعدت.

وصمت طه لبعض الوقت، ازدرد ريقه خلاله عدة مرات، كي يبتلع معه وعلى دفعات قطعاً متتابعة من غصة استحال ابتلاعها دفعة واحدة. وإذ اطمأن إلى أن آخر أجزائها قد استقر في صدره، ولن يخالط صوته بترجيع البكاء تابع قائلاً:

- اسمه جورج شماس.

انبرى خالد مستغرباً:

- صاحب تجمّع "أنطون سعادة"؟!

- أنت تعرفه إذاً.

- أعرفه.

سادت فترة من الصمت قبل أن يتساءل خالد:

- هل كنت هناك على علاقة مع القوميين السوريين؟

بدا من عيني طه اللتين ما تحولتا عن متابعة مشاهد الطريق كأنه لم يسمع سؤال أخيه، أو سمعه ولم يعن له شيئاً، ولكن نبرة الإجابة فيما بعد، وتركيز الكلمات أكد عكس ذلك تماماً، وأوضح أن كلمات خالد أخذت من تفكير طه كامل المساحة التي استحقتها:

- خالد، نحن الاثنين أولاد رشيد بك، هل نسيت هذا؟

- لا، بالتأكيد لم أنس.

وبعد لحظات من الصمت تابع:

- ولكن لي توجهاً آخر، فأنا بعثي.

لم يعلّق طه على كلام أخيه، فهو يعرف سلفاً أن الغالبية العظمى هنا ينتمون إلى حزب البعث كإجراء روتيني لا يعبر عن شيء، بل حسب ما يذكر أنه كان بدوره بعثياً قبل سفره إلى باريس. لكن إعلان أخيه عن الخروج عن انتماء والدهما بذلك الإصرار وقع في نفس طه موقعاً سيئاً، وجعله يفكّر باهتمام بالغ، هل لعبد الواحد دور في ذلك، وهل استطاع أن يلحس عقل أخيه، ويشده نحو الأصولية الإسلامية؟ خاصة وأن السنوات الماضية كانت

بيئة مواتية لأن تستقطب بعض الشباب باتجاه الأصولية، وإن كانت بنفس الوقت بيئة مواتية لأن تجعل بعضهم الآخر ينفر ويتسرب من الإسلام والدين ككل. الطامة الكبرى أن يكون ذلك قد حدث على طريقة عبد الواحد أيضاً! ويستنكر خالد هواجس أخيه التي ذهبت به بعيداً جداً حسب اعتقاده ويوضّح قائلاً:

- طه، أنا بعثي، والبعث حزب علماني!

- على الدوام ربطت بين البعث العلماني والإسلام المتداول "لا الحقيقي" مساكنة مريبة وغير شرعية، لقد كان هذا الإسلام المتداول هو المهر الذي قدمه البعث العلماني للعروبة الوهابية.

سقطت عبارة "الإسلام المتداول لا الحقيقي" على خالد كدلو ماء بارد، فآخر ما فكّر فيه أن يتحدّث طه عن الإسلام بتلك الطريقة، الإسلام الذي لا يعني بالنسبة إلى خالد ديناً فحسب، بل عالم متكامل من عقائد وتاريخ وفتوحات وسير أشخاص كتبت أسماؤهم في تلافيف مخّه بأحرف من خلود:

- وهل قدّم لك جورج شماس إسلاماً حقيقياً بديلاً عن إسلامنا "المتداول"؟

التفت طه إلى خالد هذه المرّة، وقال وهو يحدّق في عيني أخيه تماماً:

- لا، لم يقدم لي جورج شماس بديلاً عن إسلامك، بل قدم لي شقة أسكنها بديلاً عن بيت أبي الذي لفظني سابقاً وربما لا يزال.

***

ولأنه من الطبيعي لدمشق، وقد خمجتها الهجمة الأصولية، أن تفزع إلى شيخها الأكبر وبحرها الزاخر، الشيخ محيي الدين بن عربي، لتستعيد لديه طابعها الصوفي الأصيل الذي عُرفت به دائماً، فلقد كان نادي "سلطان العارفين" أحد أبرز النوادي والتجمعات التي شهدتها المدينة.

يقع مقام الشيخ محيي الدين بن عربي على سفح جبل قاسيون، مشرفاً على مدينة دمشق في حيّ يحمل اسمه. وعلى مدى مئات السنين ألهب هذا المقام مشاعر الدمشقيين، وخالط وجدانهم، فطبع إيمانهم بطابعه الصوفي الأصيل. أكثر الناس لا يعرفون متى ولد ابن عربي، وفي أية فترة قد عاش ، حتى إن بعضهم - ممن لا يُجرون محاكمة عقلية لأفكارهم - ينسون أو لا ينتبهون إلى انتمائه إلى المرحلة الإسلامية، ويعتقدون أنه صنو مدينتهم دمشق، فهي لا تدرك نفسها إلا وهو مطل عليها من قاسيون. ووجود هذا المقام كحارس على مصير المدينة، كان دائماً أحد أسباب بقاء هذه المدينة ونجاتها في يقين الكثير من أبنائها، تماماً كما هو وجود المحاريب الأربعين عند مغارة الدم على قاسيون أيضاً، عامل حاسم في حماية المدينة من حادثات الزمن وغارات الأيام. وخلافاً لما يتوقع المرء للوهلة الأولى، فلم يكن مؤسس نادي "سلطان العارفين" شيخاً جليلاً ذا زاوية صوفية، ممن تزخر دمشق بأعدادهم دائماً، بل كانت سيدة مثقفة مرموقة ذات ماض سياسي حافل. فإضافة إلى دورها البرلماني واسع الطيف، الذي مثلت فيه العديد من أطياف الانتماءات والتيارات التي شهدتها المدينة، والتي كانت هذه السيدة تتنقل بينها حسب المرحلة العمرية التي تكون فيها، ودون أن تشعر بالحرج من ذلك لأنها كانت فعلاً صادقة في كل انتماء، وكانت تتفاخر بشجاعتها وقدرتها على الإعلان

بشكل صريح عن تغيير طريقة تفكيرها، وبالتالي انتمائها حسب تغير وعيها وتطوره. إضافة إلى هذا الدور البرلماني فقد تبوأت العديد من المناصب الثقافية والإدارية والسياسية، إن كان في جامعة دمشق، أو غيرها من الهيئات والإدارات المختلفة، وكان أبرز ما تبوّأته من مناصب هو منصب وزيرة. إنها السيدة "وسيلة". أما على الصعيد الشخصي، فقد أحبت حياتها وأخلصت لنفسها، فقد كانت تعتبر أن فضيلة الفضائل أن يحب المرء نفسه - على ألا يكون ذلك على حساب الآخرين - وأن من لا يدرك هذه الفضيلة "حب النفس" فإنه لن يحب أية جهة أخرى. ومن هذا المنطلق دللت نفسها، فكانت تتزوج عندما تحس أن حياتها ستكون أفضل مع هذا الرجل، وتطلق بسهولة ويسر متى وجدت أن العكس قد أصبح هو الصحيح:

- "لا يناقشني أحد فيما قلته وفعلته في الأمس، تلك كانت امرأة أخرى، وأنا لست إلا ما أنا عليه اليوم".

بعد تقدم السيدة وسيلة في السن، واعتزالها العمل السياسي، فقد تفرغت لما نشأت أصلاً عليه، ثم اتخذته فيما بعد مادة لتخصصها الدراسي، وهو التصوّف العابر للأديان والطوائف، الناظم لمعظم شعوب الأرض على مرّ التاريخ. ولعل نظرية "وحدة الوجود" كانت شغفها وشغلها الشاغل المستحوذ على كل تفكيرها. ولكن - وعلى غرار الدكتورة ثراء - فإن ناديها كان مثاراً للشبهات وتُهم السقوط في مطب "عبادة الشيطان"، وربما كان السبب الرئيس لذلك هو كونهما سيدتين أرادتا تجاوز الخطوط الحمر لأنوثتهما. بدأت مشوارها في مرحلة ما بعد اعتزال العمل السياسي بإنشاء صفحة على

الفيسبوك تحمل اسم "سلطان العارفين"، استقطبت من خلالها الكثير من جيل الشباب الذين نفروا من رجال الدين وما زالوا راغبين بالدين نفسه. وكان هؤلاء يشكلون شريحة ذات حيثية ملموسة في مرحلة ما بعد الحرب. ثم استحدثت بعد ذلك ناديها الذي يحمل الاسم نفسه الذي حملته صفحتها على الفيسبوك، ضم أشخاصاً من نخبة المجتمع يشاطرونها التوجه الصوفي ذاته. أبرز أعضاء هذا النادي كان الصحفي نجم الدين، والذي كان لا يقل شغفاً عن السيدة وسيلة بنظرية وحدة الوجود، وكان مستغرقاً في محاولاته دراسة العلاقة بين مقام الشيخ محيي الدين بن عربي والشريحة المجتمعية المحيطة به، وما مدى التأثير الذي يخلفه وجود هذا المسجد في سلوكيات وأخلاق مجاوريه. زوجته التي تعمل مرشدة نفسية في إحدى ثانويات الحي، قامت وبتكليف منه باستطلاعات رأي غير مباشرة بين طلابها، حصلت من خلالها على نتائج مخيبة لآمال زوجها، وبالتالي لتطلعات السيدة وسيلة:

- لا أحد بينهم يعرف أي شيء عن منهجه الصوفي أو عن أي من مؤلفاته، ولم يسمع أحد منهم بنظرية "وحدة الوجود". ولا يعرفون شيئاً عن التيارات الصوفية الأخرى، بل لم يسمعوا باسم أي من رموزها. كل ما يحدثونك عنه هو ثقتهم أن هذا المقام حمى ويحمي دمشق من نوائب الزمن، ودليلهم على ذلك الكرامات والمعجزات، ما ثبت منها بالكتب، أو ما تناقلها أباؤهم عن أجدادهم. وهم مستغرقون جداً بوهم أن معجزات من نوع ما سترافق حياتهم، إن كان على الصعيد الشخصي، أو صعيد الوطن، لذا فهم في بحث حثيث عن درويش يرشح بالبركة سيجدونه يوماً ما في مكان وزمان غير محددين.

كلام زوجته هذا ثبت لديه وبالدليل القاطع عندما كان مرة يستقل سرفيس الشيخ محيي الدين، وكان كثيراً ما يفعل ذلك في بحثه الدؤوب عما يغني أبحاثه. كان يجلس في المقعد الأول من صالون السرفيس، يفصله عن السائق المقعد المضاف ذو الاتجاه المعاكس، والذي يستعمل في حالات الازدحام، التي هي حالة دائمة في السرافيس العاملة على كل خطوط دمشق. لدى أحد المواقف نزلت مجموعة من الركاب وصعدت مجموعة أخرى، تواجه خلال ذلك رجل بدت عليه ملامح العته وانعدام النظافة صاعد إلى السرفيس مع فتاة جميلة أنيقة نازلة منه، وعندما استقر الرجل في المقعد ذي الاتجاه المعاكس غمغم قائلاً:

- الله يجيرنا، جيل زكازيكو.

التفت السائق الشاب ذو اللحية المشذبة إلى الوراء ليجد نفسه وجهاً لوجه أمام حلم عمره، انتظر بفارغ الصبر إلى أن شغر المقعد الذي إلى جواره ليستدعي الهبة الإلهية كي يأتي ليجلس فيه، وما إن استقر إلى جواره حتى سأله الشاب:

- هل دفعت الأجرة؟

وعندما أجابه الرجل أن نعم ما كان منه إلا أن أعاد إليه نقوده معتذراً:

- لم أكن أعرف أنها منك، لا تؤاخذني.

كان نجم الدين يرقب المسرحية الهزلية على مرآة السائق الذي أسرع باستغلال الفرصة المنتظرة قبل أن تتبدد:

- إي، حدثني عن فتيات هذا الزمن.

- جيل زكازيكو.

- كيف يعني؟

- هه، زكازيكو؟

حاول نجم الدين أن يتفحص خيبة الأمل لدى السائق الشاب الذي كان في موقع آخر تماماً، ولا شيء يدور في ذهنه إلا أنه لم يستطع مواكبة الفرصة السانحة، وأنه أعجز من أن يستوعب ما يرمي إليه هذا القديس.

- انصحني يا عمي شو بتحب توصيني؟

- زكازيكو . . عم قلّك زكازيكو.

وبعد لحظات وصل الرجل المعتوه إلى المكان الذي يقصده، فغادر السرفيس وعيون السائق تتابعه وكأنها تستجدي بقاءه، وبعد أن أغلق الباب خلفه التقت في المرآة عينا السائق بعيني نجم الدين فتمتم السائق:

- رجل رهيب!

فتح نجم الدين كفيه، وأمال رأسه، وأغمض عينيه، ورفع حاجبيه، راسماً صورة كاملة للانبهار، عسى أن يعيد إليه السائق نقوده لكنه لم يفعل.

***

في الوقت الذي كان فيه ضيوف النادي يتوافدون تباعاً إلى الفيللا، كانت ثراء تتأكد بنفسها من أن كل شيء هو كما ينبغي له أن يكون في القاعة المعبد.

السجادات الثلاث الضخمة تفرش كامل أرضها، صورة أورنينا بإطارها المذهب تتربع في صدرها، وجهاز التسجيل الضخم الملقم بأفخم مقطوعات الموسيقا العالمية الراقصة يحتل ركنه المعتاد، وفي ركنه الركين وضع إبريق الشراب الممزوج بقطرات من مادة منومة. ضمن هذه الأجواء المجنونة والمتطرفة، تحيي ثراء لقاءها الأسبوعي منذ نحو عقد من الزمن. يأتي إليها ضيوفها بتشكيلتهم المتباينة الأشكال والأنماط والأذواق، فيؤدون في معبدها طقوساً دينية راقصة، هي خليط من طقوس المعابد القديمة، ووجد الدائرين حول أنفسهم في الموالد النبوية، وجنون الوجوديين في أقبية سان جرمان، على صداح جهاز التسجيل المجلجل، وروائح البخور المحترق، وأضواء الشمعدانات الشاحبة، إلى أن يأخذ منهم التعب مأخذه، فيتساقطون على الأرض تباعاً، يساعدهم على هذا السقوط الشراب المنوم الذي يتناولونه عشوائياً وكل على حدة.

وفي هذا اليوم بالذات كان هناك شيء مميز في هذه القاعة ما اعتادته في غيره من الأيام السابقة، فتحت صورة أورنينا كانت تمتد ستارة تخفي وراءها شيئاً ما.

في التاسعة إلا خمس دقائق غادر كل من سميح ونزار غرفة لميس التي كانوا يشربون فيها القهوة لينضما إلى الجمع في انتظاره ظهور ثراء على باب البهو. وظهرت ثراء لكن كما لم تظهر من قبل، فكأنما هي امرأة أخرى، فقد تحول الشعر الأشقر الذهبي المرفوع أبداً إلى ذروة رأسها إلى خصلات كستنائية اللون، فوضوية التسريحة، تتعابث على جبهتها، وفوق صدغيها، ثم تنسكب

عبر عنقها الطـويل، لتتهادى فوق كتفيها العاريين، أما جسدها النحيل والفارع فقد التف بثوب حريري بلون الحشائش المبتلة بندى الصباح، طويل وفضفاض لكنه يفضح ما حلا له من مفاتنها بطريقة لم يألفها أصدقاؤها من قبل، توحي إليهم - وهم على علم بترفعها عن ابتذال الإغواء - أنها فقدت تماماً إحساسها أنها تنتمي وإياهم إلى نوع واحد من الكائنات. لم تلق التحية على رهط الواقفين لها إجلالاً واحتراماً، بل اكتفت بأن مدت ذراعها نحو قاعة المعبد، ثم مشت على بلاط الممر الطويل، وفي وسط المعبد خطبت في الجمع بنفس الأسلوب الرسمي المختصر الذي اعتادته في المواقف المصيرية:

- اليوم نحتفل بالذكرى السنوية الأولى لشهيدة ديننا الأولى.

ومضت فأزاحت الجزء الأيسر من الستارة، لتكشف عن لوحة زيتية بالأبعاد الحقيقية للراحلة سحر وقد انبثق من ظهرها جناحا ملاك أبيضان، في حين اشرأب رأسها وذراعاها نحو الشمس التي اختلطت خيوط ضيائها مع أطراف أصابع الفتاة، فبدت الشمس وكأنها تغزل الشهيدة بضيائها السماوي. وفي الزاوية اليسارية السفلى بدا واضحاً توقيع أكثم الخالدي. ثم وهي تزيح الجزء الأيمن من الستارة تابعت ثراء:

- وتلك زائرة جديدة أحبت أن تحيي معنا هذه الذكرى الخالدة.

بدت تحت لوحة أورنينا امرأة ترتدي ثوباً أبيض مبتكراً، تجلس جلسة هي جلسة أورنينا ذاتها، وما إن أزيحت الستارة عنها حتى قفزت، وبدأت بتقديم حركات راقصة، رصينة ومدروسة، كأنها آتية من عمق أعماق التاريخ. وما هي إلا لحظات حتى اختلط هذا الجلال المسرف مع صخب

جهاز التسجيل، والرقص العشوائي لرهط العابدين. حدث هذا كله بسرعة أفقدت نزار القدرة على اتخاذ أي قرار، أو المبادرة إلى أي تصرف. كانت عيناه تنتقلان بين وجه سحر الباسم برقة وحزن وشفافية، وأورنينا التي غادرت سجنها الحجري بمشيئة الربة ثراء، والحشد المنهمك بجنونه المحيط بالربة اللاهية. كان يدرك أن من حقه أن يصرخ في وجوههم:

- "إن التي ترقصون بذكرى انتحارها هي أختي".

لكنه كان عاجزاً عن فعل ذلك. بدأ يحس تماماً أن أخته قد قتلت فعلاً، وللقتل أشكال وأشكال، ولا ضير حتى أن يكون القاتل في دمشق ومسرح الجريمة شاطئ طرطوس، لم يكن قادراً أن يستوعب أن جميع الحاضرين لا يعيرون ردة الفعل لديه أية أهمية، بل يتوهمون أنه أقلهم تأثراً لأنه الوحيد الذي لا يعرف المحتفى بها، في حين أن التي يشربون أنخاب قتلها هي أخته. مضى نحو اللوحة الزيتية يتأملها، في الوقت الذي طفا إلى سطح ذاكرته نص الرسالة التي أرسلتها سحر إلى ثراء قبل لحظات من انتحارها، والتي اختتمت بها دفتر مذكراتها:

"إلهتي! التي سلبتني أعز ما أملك: يقيني. حاولت أن أطمئن إلى عبادتك فما استطعت، وما استطعت أن أستعيذ بالله منك فأعود إلى طمأنينة عبادته"

طرطوس ١٧ / ٥ / ٢٠٢٤

سحر محمد

انسحب إلى الوراء ومضى فجلس قرب باب المعبد، وأخذ يرقب هذا الكون المصغر الذي تتحرك فيه أجرام بشرية. تأمل ثراء وهي تقذف بخصلات شعرها يميناً ويساراً فلم ير فيها إلا شخصية القاتلة والقاتلة فحسب، وأحس بالحنق تجاه جميع هؤلاء الذين يمارسون جنونهم وعبثهم من حولها، على أطلال شابة بائسة قتيلة، يظنها الناس قد انتحرت. حتى سميح الذي كان طيلة الشهور الماضية ينظر إليه على أنه أستاذه في الحياة، والذي كان وسيبقى معجباً بالطريقة التي يتعاطى بها مع الله، بدأ يحس أنه يرخص نفسه في هذا الاستعراض المجاني السخيف. ومرّ الوقت ثقيلاً لزجاً مطبقاً كمرور حلزون على سطح زجاج أملس، كرع الحاضرون خلاله ما شاؤوا من الشراب الرباني، باستثناء شخصين اثنين: نزار المنفي عن هذا العالم المصغر، والمرأة ذات الثوب الأبيض، التي عليها أن تحافظ على صحوها، لتنطلق من هذا المكان بعد ساعة من الزمن. انسحبت بصمت وهدوء دون أن تحدث أي اضطراب في النظام الفلكي الذي يسود قاعة المعبد، وعند بابه توقفت قليلاً لتحدّق بنزار المحشور في الزاوية قرب الباب. رفع إليها عينيه وسمع نفسه يهمس:

- من أنت؟

- الراقصة فينوس.

- راقصة؟!

- نعم، ألديك مانع؟

- ولماذا لا تمضين ليلتك هنا؟

- عليّ أن أقدم نمرة أخرى بعد منتصف الليل في ملهى "أحلام العاشقين".

عاد يحدّق بها من جديد، فانتزعت نفسها من عينيه ومضت خارجة بصمت.

وشيئاً فشيئاً بدأت الأجساد المتحركة آلياً، المتحررة من سلطان التفكير والانفعالات النفسية، تترنح وتتهاوى واحداً بعد الآخر، على سجاجيد القاعة الكبرى. وسرى مفعول المادة المنومة، فاجتاح النوم تلك الكيانات اللاهثة المتعبة، واستقر في خلاياها استقراراً استيطانياً ساحقاً لا رادّ له. وتحولت الأنفاس الصدرية السريعة والنزقة إلى تنفس بطني منتظم، يعلن وبصورة هائلة أن الأجساد التي تطلقه في حالة نوم يشبه الغيبوبة. انكمش نزار على نفسه في ركنه القصي يتأمل كل ما يحيط به من مظاهر الجنون المتبجح: الشموع المتألقة تألقاً شاحباً، الستائر المهتزة بإيقاع ممض رتيب، الطيوف والأشباح المتحركة ظلالها على تمايل لهب الشموع، بل حتى الأرواح الهائمة في فضاء القاعة، الدائرة في حلقات مفرغة، وكأنها تتحرك في فضاء لا متناهي الامتدادات. كل هذا كان يغمره بطوفان من الإحساس بالذنب لم يكن يدري سببه الحقيقي، هل لأنه صاح في موسم الهجعة المطلقة تلك، أم لأنه كان على مدى شهور أحد عناصر هذه الهجعة المشبوهة. تصاعدت الهواجس والأوهام من رأسه كما يتصاعد البخار من قدر فيه ماء يغلي، وتكاثفت غمامةً من الذهول مشبعة بمطر ممسوس بدأت تلف رأسه، وتدخل في تلافيف دماغه منبهة مراكز الذاكرة لديه تنبيهاً كهربائياً صاعقاً. فتداعى البعد الزمني لديه، واختلط الحاضر مع الماضي اختلاطاً عشوائياً

لا رقيب عليه. وتوهجت أحداث وذكريات قديمة وجديدة، تتحرك على نسق زمني واحد، تعبر أمام عينيه جيئة وذهاباً في تحد معلن لم يكن يفهم دواعيه ومراميه. الأجساد المستلقية تتحول إلى جثث متراكمة يضمها قبر جماعي، والأرواح فقط هي التي تتحدث وتثرثر، وتمارس وجودها الطاغي والمتغطرس. رسم أخته سحر يقف على قدم المساواة مع أية جثة أخرى في هذا المكان، وروحها الحاضرة حضوراً ساطعاً، تتحدث بطلاقة بما يمليه دفتر مذكراتها الذي يستظهر جمله واحدة تلو أخرى.

أخذت سحر تطلق بكاء مكبوتاً يشبه العويل، وعندما أحست ثراء بنظرات الإدانة تتجه إليها من كل الجهات، قالت وعيناها مثبتتان على لا شيء بعيد، وبلهجة جعلتها تبدو وكأنها تعلن سراً خطيراً:

– قدر كل فكرة عظيمة أن ترى بعض أبنائها على خشبات الصليب.

هتفت روح نزار محتجة:

– شتان بين من يصلب في سبيل فكرة ومن تصلبه الفكرة ذاتها.

تخامد عويل سحر شيئاً فشيئاً وهي تنصت إلى مداخلات الحضور، وتابعت ثراء:

– كانت أضعف مما ينبغي فلم تستطع متابعة المشوار.

– وكنت الجلاد الذي أخذته العزة بالإثم، وغرته أكاليل الغار الوهمية يضفرها حول رأسه لاهون عابثون، فيمضي واطئاً بنعاله نفوساً ضعيفة رقيقة من غير رادع أو ضمير.

دُهش الحاضرون جميعهم أمام هذه الجسارة التي تجاوزت حد الوقاحة إلى درجات الكفر والمروق. أما ثراء فقد غمرت نزار بنظرة تفيض حناناً ورقة وشموخاً، وقبل أن تنطق بكلمة واحدة كانت أم نبيل قد سبقتها إلى الكلام:

– لا ضحية ولا جلاد. كل ما في الأمر أن سحر كانت مسكونة بعفريت أثيم.

قاطعها كمال إبراهيم محتداً:

– لا تفسدي جدية الموضوع بهذا الهزل يا أم نبيل.

– ما أقوله ليس هزلاً أيها الصديقان.

تناست ثراء الاتهام الموجه إليها أمام هذا الهجوم على ركن من أركان عقيدتها، فثارت في وجه أم نبيل غاضبة:

– لا تسخري من قضية كمال هكذا يا أم نبيل، فأنت تعلمين أنها يقين ثابت.

اشترك سميح في هذا الحوار متهكماً:

– يحق لمن كانت ربة مثلك يا ثراء أن تثبت وتؤكد ما يحدث في عوالم ما بعد الحياة.

قفزت إلى أذهان الجميع ذكرى اليوم الذي وزعت فيه ثراء في صبيحة أحد أيام الجمع على أعضاء ناديها مغلفات مغلقة احتوى كل منها على سؤال واحد كي يجيبوا عليه في اللقاء الأسبوعي القادم. وكان أول من عرف محتوى

هذه المغلفات لميس، فقد فتحت مغلفها فور صعودها إلى حجرتها، وعندما قرأت محتواه طوت الورقة بانفعال وتوتر شديدين وهي تعلم أنها لن تقول في الخميس القادم أكثر من "كرمى لله كفى". وبدوره عاصم إدريس طوى الورقة فوراً إنما بهدوء وتؤدة، فمنذ زمن بعيد حسم موقفه من تلك القضية. سحر عندما قرأت السؤال الصارم "فكّر جيدا قبل اتخاذ القرار، هل تحب الله؟"؟! اعتقدت أن جوابها سيكون "نعم"، لكنها أجابت بعد أسبوع من الزمن "أخاف منه". وبعد أقل من أسبوع انتحرت في بيتها بمدينة طرطوس. الرسام أكثم الخالدي أجاب "ولِمَ لا". كمال إبراهيم قال "إن كان كما يصف نفسه فلا حاجة به لأن أحبه، وإن كان قد وصف نفسه بما ليس فيه فلا يستحق أن أحبه، ولكن رغم هذا وذاك فأنا أحبه". أم نبيل قالت بوجد شديد "أحبه فوق فوق ما أستطيع". سميح الذي قرر في البداية ألا يجيب على هذا السؤال، لأنه لم يعد يحب استعراضات ثراء تلك، بدأ السؤال يستهويه شيئاً فشيئاً ليقول في نهاية الأسبوع "حب الله ليس أمراً سهلاً يستطيع أي إنسان أن يمارسه، إنه عاطفة صعبة لا تشبه أبداً عواطف الحب التي نتبادلها بعضنا مع بعضنا الآخر، والتي تتماهى الحدود ما بينها وبين الغرائز. العاطفة نحو الله لا يمكن أن تنمو إلا في ظلال ذكاء رفيع المستوى، وفكر غير عادي، ولعل هذا ما يحدث لدى النساك والمتصوفة. عن نفسي لا أدعي أنني واحد من هؤلاء، ولكن في تركيبة مشاعري إزاء الله توجد نسبة ما من الحب ممزوجة بالرهبة والإكبار، والخوف من عذاب الآخرة". وختمت ثراء تلك المواقف بقولها:

– رغم كل ما مارستموه من تملق لأنفسكم ولله، فقد جاءت إجاباتكم متباينة ومختلفة على سؤال ظننتم أنه أكثر بدهيات الحياة بداهة، واعتقدتم أن

مواقفكم كما هي مواقف سائر الناس منه واحدة. هل تعرفون لماذا؟ لسبب بسيط وجوهري، وهو أن السؤال ليس بدهياً كما اعتقدتم، وحقيقة عواطفكم نحو الله ليست كما كنتم تظنون. لأن الله الذي ابتدعته عقول أجدادكم غير منطقي وغير محبوب. وهكذا أرغم كل منكم عقله على أن يرث دين أبيه، ولم يفسح له مجالاً كي يقوم بالدور المناط به أصلاً في قيادة صاحبه وتوجيهه. لقد تباينت آراء الناس على اختلاف دياناتهم ومذاهبهم حول تعريف الله، فمنهم من جرده ونزهه، ومنهم من شخصه ومثله، لكنهم كانوا يتفقون دائماً حول نقطة أساسية، وهي أن الله هو الخير المطلق والشيطان نقيضه وهو الشر المطلق. ثم إنهم وليريحوا أنفسهم من تحمل المسؤولية الكونية، يزعمون أن الله الذي هو الخير هو من ابتدع الشيطان الذي هو الشر منذ البداية وإليه مرجعه عند النهاية، رغم أن هذا لا ينسجم مع طبائع الخير البشري المصغر فكيف يكون الأمر مع الخير الإلهي المطلق. والواقع هو أن الخير والشر هما قوتان متصارعتان منذ أقدم العصور، وقد أثبتت الأيام والتجارب تكافؤهما. ولكن ولأن الحرب خدعة، كما وأن الدعاية هي أحد الأساليب الشرعية للقتال، فقد عمد بعض رجالات الخير ذوو النوايا المخلصة إلى بث دعاية بين الناس، مفادها أن الخير هو الأصل، وأنه البدء والمنتهى، وأنه يمد الشر بطغيانه إلى أجل محتوم. كي يوحوا إلى الناس أن الخير هو الأقوى فينساقوا إليه. لكن دعاياتهم أتت بنتيجة عكسية، فقد تنصل الناس من واجباتهم تجاه الخير، وكفوا عن مساندته ظناً منهم أنه لا يحتاج إلى المساندة.

قاطعها كمال إبراهيم مستغرباً:

- وكيف يحتاج مساندة وهو الله؟!

- إن شئت أن تسميه الله فسمّه كذلك، ولكن لا تمنحه المواصفات المغلوطة التي مُنح إياها. فلا الخير ولا الشر قد أوجد الوجود، وأصلاً لا وجود لجهة قد أوجدت الوجود. فنحن نتاج تفاعل قوى كونية توالدت بعضها من بعض، وربطت ما بينها علاقات جدلية تجعل من المستحيل القول إن إحداها قد أوجدت الأخرى. وبعد تشكل الكون، تبارى الخير والشر كل منهما على طبعه بطابعه، فكانا بمثابة حزبين يتصارعان على السلطة، وينشدان الدعم والمساندة من الآخرين. إن كلاً منا يولد وفيه جانبان: جانب خيّر وجانب شرير، أو قولوا إن شئتم جانب إلهي وجانب شيطاني، فإن هو رجّح الجانب الإلهي في سلوكه رغم إغراءات الجانب الشيطاني أتى في حياته التالية وفي فطرته نسبة أعلى من الجانب الإلهي، فما يزال بهذه الطريق يتنقل من قميص إلى آخر متزايداً جانبه الإلهي إلى أن يغدو خيراً مطلقاً، فيصبح بذلك جزءاً لا يتجزأ من قوة الخير الكونية أي يصبح جزءاً من الله، وعبر هذا الأسلوب يزداد رصيد الخير في الكون، ونحصد النتائج رخاء وسلاماً . والعكس بالعكس يحدث لو غلّبنا جانب الشر في نفوسنا، فلا نزال نتدرج به حتى نصبح جزءاً من الشيطان، فيقوى بنا، وتكون النتائج كوارث وحروباً ودماراً. تلك هي حقيقة ما يحدث في هذه الحياة، فلا قيامة ولا ثواب ولا عقاب، بل حرب أزلية أبدية نخوض غمارها، نعلم أنها عملياً لن تنتهي، لكننا نستطيع تغيير مجريات أحداثها، وتفاصيل انتصاراتها وهزائمها، وما علينا إلا أن نكون بحجم المسؤولية الملقاة على عواتقنا.

قال سميح:

– لن أسألك دليلاً واحداً على كل ما قلته يا ثراء، بل سأفترض أنه منطقي ومعقول. ولكن ما اعتراضك على ما عهدناه من أفكار دينية؟ ما العيب فيها؟

قال كمال إبراهيم:

– وما العيب بسواها؟

قال سميح:

– غالباً لا عيب بسواها أيضاً، فأنا أحتج على اتهام ثراء للعقائد الأخرى. إنني أرى أنه من السفاهة حقاً أن يدعي إنسان أن دينه هو الأقرب إلى العقل من ديانات الآخرين ولهذا فهو يعتنقه، فلا يمكن لأحد أتباع ديانة ما أن يقول، إن سائر الناس الآخرين قد قصّروا عن بلوغ ما بلغه من الذكاء والقدرة على التفكير، على اختلاف عباقرتهم ونوابغهم ومبدعيهم.

قال عاصم إدريس:

– فأين تكمن الحقيقة إذاً؟

قال سميح:

– الناس على مستويات متباينة من الذكاء، ولا يعقل أن تكون هناك حقيقة مطلقة يطالب الناس جميعا ببلوغ كنهها، بل لكل إنسان حقيقته الخاصة التي توافق مستوى ذكائه وتفكيره، فإن هو اجتهد بجد وإخلاص لبلوغها وصل إلى الله من خلالها.

- ولكنك تجد أحياناً شخصين متباينين جداً في مستوى الذكاء، ورغم ذلك يعتنقان الحقيقة نفسها.

- تذكّر يا عاصم عندما كنا طلاباً في المدرسة، كنا نعطي الزوايا قياساً ما بواحدة ما ثم نقول: "مضافاً إليه عدد صحيح من الدورات". هذا الكلام ينطبق أيضاً على الحقائق والأذواق واليقين.

أعاد عاصم إدريس الحديث خطوة إلى الوراء بقوله:

- ألم تلحظ يا سميح أنك تملقت يقينك بادعائك أن لا دين أقرب إلى العقل من دين آخر، بدل أن تعترف أن لا دين يقترب من العقل على الإطلاق، بل حقيقة الأديان كلها أنها منظومات فكرية تنسجم كل منها مع نفسها، ومن الحمق أن ندعي أن إحداها تنسجم مع المنطق أو العقل.

وعلّقت ثراء:

- كثير من تلك المنظومات التي تتحدث عنها يا عاصم عاجزة حتى أن تنسجم مع نفسها، بل تنطوي على مغالطات تدفع النجيب من أتباعها أن يضع أكثر من علامة استفهام وهو يقرأ بعض أمهات كتب ديانته.

تبرمت أم نبيل قائلة:

- تخوضون غمار حديث تعرفون سلفاً أن أكثركم لم يمنحه ساعة واحدة من التعمق والتفكير، لهذا فأنتم تخبطون يميناً ويساراً خبط عشواء.

علّق سميح:

– هنا تكمن قيمة نقاشنا، فنحن نمثل الغالبية الساحقة من البشر التي يمثل الدين أكثر أمور الدنيا التصاقاً بكيانها، تخوض باسمه الحروب، وتسفك الدماء، وتعطل مسيرة الحضارة في حين تجهل عن حقيقته كل شيء.

قال عاصم إدريس:

– أنت فعلاً واحد من هؤلاء يا سميح. ورثت إسلامك عن أبويك كما يفعل سواك، ثم أنت تحدثنا الآن عن الزوايا والدوائر، وكأنه من قبيل الصدفة فقط، درت ما شئت من الدورات، ثم توقف عقربك بعد ذلك على نقطة الدين الإسلامي.

– ليس من قبيل الصدفة يا عاصم، بل كما قلت لك إنني أرى أن معظم الديانات قادرة على إقناع الناس بنفس النسبة تقريباً، فمن الطبيعي أن يتجول عقلي عليها كلها، ثم يستقر بعد ذلك على الديانة التي كبرت عليها، وتغلغلت في وجداني، طالما أنه لا عيب فيها. المهم أن يفكر الإنسان، ويبحث قبل أن يقتنع بالفكرة الدينية كي يعطي نفسه فرصة رفضها فيما لو كانت عنصرية، أو تفتقر إلى النبل، أو تنسلخ عن القيم والأخلاق. باختصار أكتفي من المرء ألا يكون مجرداً عن المقدسات.

انفعل عاصم إدريس وقال غاضباً:

– ليس الماركسي مجرداً عن المقدسات كما تدعون، بل إن قضايا الشعوب التي يناضل من أجلها الماركسيون، ويجوعون ويسجنون ويقتلون، هي أقدس مقدسات الحياة.

– متفق معك على هذا. وأقسم أنني لم أعن ما دار في خلدك.

– متفق معي على ماذا؟ على إلحادي مثلاً؟

– إلا هذا.

– لماذا؟ لقد فكرت كثيراً على مستوى ذكائي، وقررت أخيراً الوقوف على هذه النقطة من دائرتك، بعد أن درت العديد من الدورات. فأين أخطأت؟

صمت سميح قليلاً قبل أن يستعين بقول الشاعر عمر أبو ريشة:

– "لا تسألنّ فلن أجيب وظُنّ بي ما أنت ظان"

قال عاصم:

– هب الله موجوداً فعلاً وأنا أنكر وجوده . أينا يكون أكثر إلحاداً، أنا الذي بحث عن الله كثيراً ثم لم يستطع أن يقتنع بوجوده فأنكره، أم أكثم الخالدي مثلاً الذي لا يمر الله بخاطره إلا إن سئل عن وجوده، أو إن كان يحبه، فيجيب: ولِمَ لا؟

أجفل أكثم الخالدي من شروده وقال:

– كأنني سمعتكم تقولون أكثم الخالدي، فبماذا تتكلمون عني؟

تهكّم كمال إبراهيم قائلاً:

– لا عليك، بكل خير يا أكثم.

رد أكثم:

– لم تكن أنت المتكلم على أية حال.

– على الأقل كنت أصغي.

علّقت أم نبيل مستاءة:

– كم من حوار يكتسب الصامت فيه شرف صمته.

أحس عاصم إدريس بانتهاء حالة المجاملة في هذا الحوار، فقطع شعرة معاوية قائلاً:

– على كل إن أكثر ما قلته يا سميح، ووافقك عليه كمال بإشارة من رأسه، لا يعدو كونه موضة دارجة يمارسها المثقفون هذه الأيام ليخفوا من خلالها تعصبهم الطائفي والمذهبي، فيدّعون أن جوهر الدين هو العمل الصالح، والمودة بين الناس، والتراحم والتكافل، أما إن خلوا إلى شياطينهم لعن كل منهم أتباع الديانة الأخرى.

ارتفع أكثر من صوت يعلن:

– كفى يا عاصم.

– آسف، آسف جداً، ظننته حواراً حراً.

استغلت ثراء هذه الفجوة التي سلّم المتناقشون أنها لن تردم، لتمرر عبرها بعض أفكارها:

– كي لا أسقط في مطب الشتم أو التكفير، جعلت من طقوسي أشكالاً حضارية وجمالية هي من جوهر الخير المطلق الذي هو الله. وهذا ما أدركته

الشعوب الغابرة وضمخت به جنبات معابدها وهياكلها.

قال نزار:

- محاولة يائسة لإثبات الوجود بعد أن ناقش الحاضرون كل شيء إلا أفكارك العظيمة يا ثراء. تعلمين سلفاً أن أحداً منا لا يعرف شيئاً عن الأفكار الصوفية المطروحة عبر التاريخ، ومن هنا تصولين وتجولين. ومن يدري ربما كان كل ما تقولينه مسروقاً من أفكار هذا أو ذاك من متصوفة الأديان المختلفة.

من سمائها السابعة أعلنت ثراء:

- رغم كل شيء فأنتم هنا جميعاً لتمارسوا طقوس العبادة التي علمتكم إياها، لأنكم تعلمون أنني الأوفر حظاً بينكم بالنصيب الإلهي في ذاتي. فأنا من عالم والآخرون كلهم من عالم ثان. إنني أسير على الأرض فلا أشعر برد فعل الأرض على قدميّ، فأدرك أنني أوشك أن ارتفع إلى السماء. خطوة واحدة تفصلني عن أن أقول أنا الله!

ومع حسمها هذا ساد الصمت جميع الحضور، فاستفاق نزار من شروده. وقف ونظر إلى الأجساد المنطرحة أمامه، فعاد إحساسه تجاهها أنها جثث متراكمة يضمها قبر جماعي. تملكه القرف فمضى خارجاً من القاعة المعبد.

***

للمرة الثالثة أعدّت القهوة في ذلك الصباح، ولمرة لا تعرف رقمها مسحت مرآة المغسلة وبلاطات البورسلين المحيطة بها، وكما في كل مرة تقف

فيها أمام المرآة كانت ترى وجهها يهرم أكثر فأكثر. ستون سنة ذاك هو عمرها الحقيقي، وإنها لتبدو كذلك أيضاً، لكنها مرة ترى نفسها أكبر بكثير، وأخرى أصغر بكثير، وإذ تطيل التحديق في وجهها المتمثل لها شاباً ينطلق الوجه يعبر خبباً نحو الشيخوخة على صفحة المرآة. لا يهمها الأمر كثيراً، فمنذ زمن لم تعد تتعاطى الزمن، وإن كان يحلو لها أن تتسلى مع وجهها، تسيره على دروب العمر جيئة وذهاباً انتقاماً من عيشتها الراكدة ركود بحيرة في صيف لا نسمة هواء فيه.

سارت بحذاء مطاطي يأبى أن يصدر أي صوت على بلاط الممر الطويل، واستندت إلى حاجز الدرج ونظرت إلى الأسفل، هل من صاعد على درجات الطابقين من تحتها؟ وكانت تعرف سلفاً أن لا أحد. الدرجات الصاعدة على يمينها، لن تفضي إلا إلى برج الهيدروليك، حيث لا شيء إلا خزان المياه. عندما دخلت منذ سنوات إلى مخبر الهيدروليك في الطابق الأرضي من المبنى، تحمل إلى الدكتور أوراقاً قد نسيها في مكتبه في الطابق الذي تقف فيه الآن، ورأت التيار المائي الدافق بقوة عبر المجاري المعدة له خصيصاً بغية إيضاح بعض المسائل الهندسية للطلبة، أدركت الهدف من ارتفاع خزان المياه في البرج السامق. مضى على تلك الحادثة عدة سنوات. كم سنة يا ترى؟ لن تستطيع التحديد. إنها في المرّات القليلة جداً التي تجد فيها ظرفاً مناسباً لتحدث شخصاً ما عن حدث يخصها، ثم تعلن أن هذا حدث منذ سنتين، أو ربما ثلاث، قد تستدرك، فتؤرخ لحدثها الخاص ذاك بحدث عام مزامن مما يدفع الطرف الآخر لأن يبتسم قائلاً:

- مضى على ذلك نحو خمسة عشر عاماً.

لا يهم، إنها لا تتعاطى الزمن.

عادت إلى حجرتها الصغيرة في آخر الممر، حيث فنجان القهوة المقلوب قد جف تماماً. نظرت إلى تشكيلاته المتداخلة المعقدة، ولأنها لم تكن ترغب أن ترى شيئاً فلم تر أي شيء. أعادت مسح مكتب الدكتور، ولمعت من جديد زجاج نافذته، وهي تعلم أنه لن يأتي. فحين يفرغ من إلقاء محاضراته، فإنه إن لم يذهب إلى بيته أو مكتبه الخاص، فسيفضل البقاء في مكتب رئيس القسم في مبنى الكلية الرئيس على الذهاب عبر ساحة الكلية إلى مكتبه المنفي في مبنى المختبر حيث لا يأتي أحد. أحبت أذناها أن تسمعا صوتاً ما فسمعتا صوت خطوات بعيدة تصعد الدرج، ابتسمت ساخرة من الصوت الموهوم، وأحست أنها بشوق لأن ترى وجهها يبتسم، فمضت إلى المرآة من جديد، لكنها لم تر الابتسامة التي اختفت مفسحة المجال لإحساس الترقب أن يسيطر على الوجه العابر نحو الشيخوخة، فالخطوات الصاعدة ليست وهماً، إنها حقيقة. مضت مسرعة لتلاقي الزائر المنتظر، والتقته فعلاً عند نهاية الممر، سألها الطالب بلهفة:

- هل الدكتور موجود؟

وكما لو كانت تتوسل إليه أن يبقى أجابته:

- لعله سيأتي بعد قليل.

- حسناً، أشكرك.

ومضى الطالب إلى ركن قصي، وأخذ يتصفح أوراقاً يحملها بين يديه.

أسرعت إلى حجرتها من جديد، وللمرة الرابعة أعدت القهوة، وملأت فنجانين منها، ومدت رأسها من الباب قائلة:

- هل تشرب القهوة يا بني؟

ودون أن ينظر إليها أجاب:

- لا، شكراً.

توسلت من جديد:

- إنها ظريفة جداً.

ووهي تتلعثم أردفت:

- ومجانية أيضاً.

نظر إليها مبتسماً هذه المرة.

- ممنون جداً يا خالة.

شجعها موقفه، فحملت الفنجان وأتته به.

- اشرب يا بني، فقد يطول انتظارك.

- لا لن يطول، فبعد دقائق يحين موعد الامتحان العملي.

- "الامتحان العملي"!؟

هطلت عليها دفعة واحدة ذكرى تلك المناسبة السعيدة التي تفاجئها كل

عام على حين غرّة، وتمنت أن تعيش وسط ضوضائها لحظات في الخيال، لكن الواقع كان أعمق، ففعلاً بدأت أفواج الطلاب تتجمع في البهو والممر تملأ هواء المبنى بلغطها وضجيجها. خيّل إليها أنها منهمكة بعمل ما، وأخذت تسرع ذاهبة عائدة بين حجرتها ودرج المبنى عبر الممر الطويل، تدخل في طريقها حيناً إلى مكتب الدكتور ثم تخرج منه وكأنها المكوك الحائك، استوقفها فجأة وجهها في مرآة المغسلة، لكنها تبرمت منزعجة:

- "أهذا وقتك؟"

تأخر الدكتور عن موعده، وبدأت تساؤلات الطلاب تعلو:

- لعله لن يأتي.

- هل نظرتم إلى لوحة الإعلانات؟ ربما اعتذر عن الحضور.

- ليت ذلك يحدث فأنا لم أفتح كتاباً.

- لا سمع الله منك، فتأجيل هذا الامتحان سيجعله يتعارض مع امتحانات المقررات الأخرى.

ووسط هذه العبارات التي كانت تسمع هنا وهناك، انتبهت أنها لا تفعل شيئاً في عدوها المستمر بين الطلبة. عادت إلى حجرتها، وجلست على كرسيها الجلدي واضعة رأسها بين كفيها، في حين بدأت كآبة رمادية تتكاثف حولها تكاثف غيمة شتائية داكنة. أرادت أن تطرد الانفعال الجديد، وأن تسخر من احتجاجه الأحمق بعد كل تلك السنين، لكنها عجزت عن فعل ذلك في حين كادت حنجرتها أن تتفجر تحت ضغط غصة مزمنة.

وبتصرف غريزي صرف لا شأن له البتة بأي تفكير، مضت إلى مكتب الدكتور وأغلقت الباب وراءها، ثم خرجت بعد دقيقة من الزمن وأعلنت:

– لقد اتصل الدكتور الآن وأعلن أن الامتحان تأجل ليوم غد.

واختلطت في أذنيها تعليقات متباينة سعيدة وغاضبة، بدأت تتخافت شيئاً فشيئاً كلما خلا البهو أكثر فأكثر من جموع الطلبة، حتى إذا ما مضوا جميعاً، سارت بخطوات وئيدة إلى نهاية الممر، واستندت إلى حاجز الدرج، ثم نظرت إلى الأسفل حيث كان الدكتور يتحدث مع دفعة الطلاب الأخيرة المغادرة مبنى المخبر، وعندما أصبح أمامها وجهاً لوجه بادرته قبل أن يبدأ الكلام:

– أعتقد أن مهمتي قد انتهت هنا يا دكتور.

وكما لو أنه حاول استبقاءها أصرّت:

– نعم، نعم، سأذهب. ثلاثون سنة هاهنا أورثتني السأم، ألست ترى أنت ذلك أيضاً يا دكتور.

تصرف أم طوني الأرعن هذا الذي أفقدها عملها في الجامعة، هو الموقف المتمرد ذاته الذي نقله المهندس رياض المعيد في الجامعة إلى إياد الطيان، مما فتح أمامها باب عمل جديد لديه.

***

بعد أن انتشرت في دمشق التجمعات والنوادي ذات الأهواء والانتماءات والمشارب المختلفة، والتي عكست إلى حد بعيد ما كان يجيش ويغلي طيّ

الشارع الدمشقي من توجهات وتطلعات قديمة وجديدة، كانت تتنافس وتتطاحن، حتى ولو بدت في ظاهر أمرها - خاصة لمن يعيرها نظرة سريعة - أنها هزيلة لا تمس إلا فئة صغيرة من الناس، أو سطحية تتعاطى مع قشرة المجتمع بعيداً عن لبّه، للدرجة التي تبدو فيها أحياناً مجرد تجميع لمواقف هزلية. بعد أن انتشرت هذه النوادي، تشكل ناد جديد ضم في عضويته فرداً من كل ناد من نوادي المدينة. ناد هدفه رصد وتوصيف الحراك الفكري الذي تشهده المدينة في أعقاب الحرب، تمهيداً لدراسته بعين خبيرة متفحصة تعرف خصوصيات المدينة جيداً، وتدرك ما الذي يمكن أن تؤسسه فيها مثل هذه التجاذبات إرثاً لمستقبل قادم لا ينبغي التعاطي معه بحيادية، وكأنه يعني شعباً آخر لا تعرفه المدينة ولا يعرفها. وقد أطلق هذا النادي على نفسه اسم "مرصد قاسيون" واتخذ مقراً له شقة في حيّ المهاجرين. مؤسس هذا النادي، وصاحب هذه الشقة، هو المهندس طارق معاون الدكتورة لمياء.

من قاسيون لا تمتد دمشق تحت عيني الناظر فحسب، بل تختلج وترتعش تحت مطلق حواسه، يسمع شهيقها وزفيرها، ويتحسس عشقها وشبقها، ويستجلي نفاقها وورعها، ويعيش بها ومعها. من قاسيون يُسمع نحيب الغوطة المحتضرة، وتختفي الأحياء البعيدة في غلالة الدخان والتلوّث. من قاسيون يُرى تعانق الحاضر والماضي واجهة تخفي خلفها حقيقة تساقط العصور كأحجار الشطرنج على رقعة خلودها. من قاسيون تعلن دمشق للناظر إليها أن نحّ جانباً كل تقييماتك وتعليقاتك، واخلع نعليك، وتعبّد في محرابي كما أنا.

وطارق الذي تجاوز الخمسين من عمره، أمضى أكثر من ثلاثين منها في دمشق رغم كونه غير دمشقي، ولم يزرها لمرة واحدة قبل حصوله على الشهادة الثانوية، وانتسابه إلى جامعتها. أحبها دون أن يراها من خلال ما كان يقرؤه عنها، وما كان يشعر أنها تمثله من رابطة جامعة بين كل الشعوب العربية. حفظ العديد العديد من أسمائها، ما لم يزل منها متداولاً، وما أصبح طيّ النسيان. قرأ عنها في شعر حسان بن ثابت والبحتري وشوقي وأبي ماضي والأخطل الصغير والجواهري ونزار قباني. بدت له - وهو الذي لم يرها بعد - بين المدن كليلى بين النساء، فما من شاعر قرأ له شعراً يتغزل فيه بامرأة إلا وأحس طارق أن المعنية بالغزل هي ليلى، وما من عربي تغنى بمدينة إلا وظن أنه يتغنى بدمشق. وعندما زارها للمرّة الأولى للدراسة في جامعتها، لم يكن في وارد تقييمها، هل هي على مستوى ما رسم لها؟ أم فوق ذلك أم دونه. كانت قد أصبحت كأمه، أو كمعشوقته، لا يريدها إلا كما هي، فكأنما هو استوعب فلسفتها دون أن يراها. يذكر أنه كتب يومها فيها شعراً فقال:

"أراك بكـــل أجـــــزائي فأنـــت ... نثرت بي العيون كـــما أردت

ووجـــهك مثلما أهـــوى وأبغـــي ... كأني قد حـــلمت وأنت كنت

دمشق وأنت صحوي أنت سكري ... وأنت الكاس والمعصور أنت

حضـــورك ماثل مهـــما بعـــــدت ... وصوتك مالئ سمعي بصمت

ومبلغ حـــبي الطاغـــي هُـــوَاْنّي ... أحســك يا دمشـق بـــه عـلـمت"

أكثر من ثلاثين سنة وهو يتجول في أزقتها وحواريها، يعرف بعدد

خطواته أطوال شوارعها ومحيط ساحاتها، زار جوامعها وكنائسها ومتاحفها وقصورها. ذات يوم قالت له لمياء وهي الدمشقية الأصيلة:

- إني أحسك دمشقياً أكثر مني.

- أنتم أبناء دمشق قد اختزلتموها بكم وبعاداتكم، غدت لديكم مجرّد دومري ومسحراتي وسكبات طعام متبادلة بين الجيران. نسيتم أنها ترب التاريخ وصنوه، وأن المئتين من الأعوام الأخيرة في عمرها والتي تمثلونها أنتم وعاداتكم هي أقل فترات تاريخها ألقاً. أنا فعلاً دمشقي أكثر من أبنائها، أنتم تنتمون إليها وأنا أتماهى معها.

***

سمة بعض الناس الخروج على القوانين، القوانين بكل أشكالها، ما كان منها دينياً أو رسمياً أو على شكل عادات وأعراف. وبعض هذا البعض يخجل بما هو فيه فيداريه، أو يُضطر إلى الإعلان عنه مُحرجاً. أما البعض الآخر، فيشهر سلوكه متبجحاً متباهياً متهماً الآخرين بالخضوع والإذعان. وهؤلاء أم أولئك - بما لهم وما عليهم - هم أخف وطأة بكثير من نمط آخر، يفعل ما يريد وما يشتهي، وكل ما تمليه عليه نفسه ونوازعه، تحت سقف تعاليم دينية ما أنزل الله بها من سلطان، راكمها عبر الزمن أسلاف له شابهوه وماثلوه، فكان لهم خلفاً بمقدار ما كانوا له سلفاً. إلى هذا النمط من الناس، وهذه المدرسة من التفكير، ينتمي عبد الواحد الزوج الثاني لغزوة خانم. وإذا كان عبد الواحد يعتبر تلميذاً نجيباً في هذه "المدرسة" فإن نجاح عثمان هي أستاذة نجيبة، ضليعة وراسخة القدم. لم تكن نجاح قبيحة بما لتلك الكلمة

من معنى، ولكنها لم تكن تتمتع بأي قسط من الجمال، جمال الجسد أو جمال الروح. تخرجت من كلية التجارة والاقتصاد في جامعة دمشق بتفوق وجدارة، واضطلعت بأعمال عديدة هنا وهناك، لكنها عجزت - وقد قاربت سن اليأس - عن إيجاد الزوج المطلوب. تحت سقف الدين وجدت إبان الكارثة السورية حلاً ما عبر فتوى بلا سقف ولا عتبة " جهاد النكاح ". تنقلت بين العديد من بؤر التوتر على كامل الجغرافيا السورية، ومارست جهادها بعزيمة واقتدار، ولمرات عديدة أقدمت على الإجهاض. الإجهاض! نعم الإجهاض ولكل قضية فتواها، فالفتاوى التي أفرزتها الحرب السورية تثبت أنه مخطئ من يظن أن الشيطان يتربص به في الحانات و المواخير، حيث جاء في كتاب الله قول الشيطان لرب العالمين : "....... لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم" لذلك علينا التماس الشياطين في المساجد وبين رجال الدين. وهذا ما ثبت شكلاً ومضموناً في الحرب السورية. بعد انكفاء المد السلفي في سوريا، وبعد أن تراجعت حظوظ جهاد النكاح في المدن والبلدات التي نعم بها خلال حكم دولة "الخلافة" وتمددها. أدارت نجاح عثمان عدة بيوت للدعارة غير المقنّعة بأي قناع من أي شكل كان، فقط كانت فتواها والتي أفتتها لنفسها هذه المرّة، بعد أن بلغت ما بلغت من النضج والتمكن، هي أن تكون كل العاملات فيها ممن هنّ في حكم "ملك اليمين". فإذا كانت دولة الكفر والفسوق قد حرّمت ما أحل الله، ومنعت التعاطي مع الجواري والإماء، فلا مانع من الالتفاف على قوانينها، والنفاذ مما قد تجده من ثغرات فيها. وقد كان من بين من تمتع بما "أحله له الله" في بيوتها عبد الواحد. بداية كان مجرد زبون يدخل تلك البيوت لقاء البدل المادي المفروض عليه أن يدفعه، لكن نجاح

استطاعت بذكائها ودهائها أن تدخله في شرنقتها، بعد أن فتحت أمامه - على مصراعيها - أبواب ولوج عوالم السلف الصالح:

- لن أكون زوجة مارقة تمنع عن زوجها ما أحل الله له، بل على العكس سأختار لك بنفسي الجواري اللواتي سيسعدنك مجاناً، ويتبارين في إرضاء رغباتك، كيف لا وهن سيصبحن ملك يمينك.

وقد برّت نجاح بوعدها، وواظبت عليه عبر سنوات زواجها بعبد الواحد، فلم تلحس مع مرور الزمن إمضاءها على وعودها، ولم تتراجع عما ألزمت به نفسها أمامه. بالطبع لم تعلم غزوة خانم بزواج زوجها من نجاح عثمان، ولم تنجح باستحضار روحها إليها، لكنها كانت تحس بها بحدس المرأة الذي لا يخيب، وبالحدس ذاته أيضاً علمت أن عليها أن تنكر إحساسها هذا، وأن تتابع حياتها معه وكأن شيئاً لم يكن.

مع تقلص البؤر الخارجة على سيطرة الدولة تباعاً، بدأت نشاطات عبد الواحد المتمثلة بتجارة الرقيق بالتقلص أيضاً، وبدأت بورصة أعماله يتهددها شبح الانهيار. وقد أفضى بهمومه وهواجسه لزوجته الجديدة "نجاح":

- إضافة إلى انحسار أسواق النخاسة، والتناقص المتتالي في عدد الجواري، هناك من يضع تعقيدات أخرى على تجارتنا.

- مثل ماذا؟

- بعضهم يرفض فصل الأم عن أطفالها، ويشترط علينا شراءهم بالجملة. الأم سأجد لها تصريفاً عاجلاً، أما الأطفال فعليّ أن أنفق عليهم حتى يكبروا

وأجد لهم سوقاً مناسبة، وما أدراني إن كنت سأجد هذه السوق في قادم الأيام لتعويض ما أنفقته عليهم، فكما ترين تتغير الأحوال بين سنة وأخرى، وتتغير القوانين النافذة هنا أو هناك.

وبالطبع كان ضرورياً وطبيعياً أن تغدو أعمال عبد الواحد أكثر أكاديمية واحترافاً بعد زواجه من نجاح، كيف لا؟ وهي خريجة كلية التجارة والاقتصاد، فبقليل من التمعن والتفكير توصلت إلى حل مقنع:

– تقتضي الحصافة التجارية أن يكون عملك متكاملاً، فلا تسمح فيه لوسطاء آخرين بمشاركتك ثمار جهدك وعرقك. فإن امتلكت على سبيل المثال مزرعة، عليك اقتناء شاحنة صغيرة لنقل المنتجات الزراعية، وعليك امتلاك محال في المدينة لبيع تلك المنتجات فيها، فيكون بذلك مردود عملك من ألفه إلى يائه لك، ولا يقاسمك إياه سماسرة السوق.

– مزرعة؟!

– قلت على سبيل المثال. أما في مثل حالتك، يمكنك شراء الأسرة بكاملها فتهرّب المرأة وفتياتها إلى سماسرة لدينا في دول عربية، والأطفال إلى تركيا حيث هناك مراكز كثيرة تعمل بالاتّجار بالأعضاء البشرية.

على كل ما به من انحطاط وسفالة بدا عليه أنه يستنكر ذلك، لكن نجاح قوّمت أفكاره قائلة:

– لِمَ تستكبر ذلك؟ ألأنهم أطفال؟ ألم يقتل صاحب موسى طفلاً؟

– قتله لأنه عرف أنه عندما يكبر سيرهق والديه طغياناً وكفراً

- وما الذي تعرفه عن هؤلاء أنت؟ إن كبروا بيننا فالذكور منهم سيناصرون الكفر، ويحاربون الدين، أما الإناث، فسيكون مكسب المجتمع منهن عاريات جديدات، فهل هذا ما تطمح إليه؟ ثم إنهم لن يعانوا شيئاً، فالعملية برمتها ستكون تحت تأثير المخدّر، ولا تنس أنك بذلك تنقذ حياة أشخاص آخرين هم بأمس الحاجة إلى تلك الأعضاء.

أحنى عبد الواحد رأسه أمام حجج زوجته المتينة، واستنادها على قيم ومبادئ الدين، ولسبب أهم من هذا وذاك وهو أنه قد بدأ يعاني وطأة بوار تجارته. وهكذا توسعت تجارة عبد الواحد وتنوعت، وأخذت طروده البشرية تسافر شمالاً وجنوباً، قبل أن يضطر إلى الاختفاء والابتعاد عن كل ذلك الحراك الاقتصادي.

***

ما إن أدار نزار ظهره لمعبد ثراء، معتقداً في نفسه أنه يخلّف وراءه ذلك الكابوس الذي عصف بكيانه حيناً من الدهر، حتى وجد نفسه ومن جديد وجهاً لوجه أمام الجانب الآخر للقضية. كانت لميس واقفة على مقربة من باب المعبد بملابس نومها وكأنها واقعة تحت تأثير تنويم مغناطيسي. ولأنه مرهق تماماً لا يستطيع ولوج حالة نفسية جديدة، ولأن ساحة نفسه كانت مشوّشة مطموسة المعالم، فلم يجد لديه القدرة الكافية لأن يندهش، لكن هذا لم يمنعه أن يسأل الفتاة بطريقة آلية:

- ما الذي تفعلينه هنا في هذا الوقت؟

أجابته بحركة صغيرة من يدها ليست بذات معنى، لكنه اكتفى بهذا

الجواب المقتضب. بدا لكل منهما أن الآخر مرهق بما فيه الكفاية، ولا يليق إرهاقه أكثر وأكثر بأسئلة بلهاء لا هدف منها ولا طائل وراءها، فلاذا بالصمت واكتفى كل منهما بالتحديق في وجه صاحبه. أن تظهر لميس على تلك الصورة، فتاة معذبة محطمة فهذا أمر طبيعي وكثير الحدوث، لكنها الآن وفي هذه اللحظات تتعرف لأول مرة على هذا الجانب في شخصية نزار. بدا لها وكأنها تراه للمرّة الأولى، أو أنها تعيد اكتشافه من جديد في لحظات متسارعة، كانت تجليه لناظريها وكأنه يتعرى من كل شيء. لهب الشمعة يضيء الجانب الأيمن من وجه لميس، ويلقي بظلاله السمراء على جانبه الأيسر، في حين أخذ صدرها يعلو وينخفض بفعل تنفس عميق، يشبه في عمقه تنفس الأجساد المنطرحة داخلاً، إلا أنه أكثر سرعة منه وأشد عنفاً. رأس نزار يضيق بأفكاره وهواجسه التي أخذت تنسرب من رأسه، وتتحرك في امتدادات أخطبوطية، تعود أذرعها الممتدة إلى التشابك خارج الرأس، كما كانت تتشابك وتتلاقى داخله، راسمة خلجاناً ورؤوساً شديدة التعقيد. وبهدوء كما لو أنها تسير على ارتفاع ما عن سطح الأرض، سارت لميس خطوات قليلة مقتربة منه أكثر فأكثر. وعندما حدّق فيها من جديد، بدا له أن جميع رؤوس هواجسه وخلجانها قد تطابقت مع خلجان هواجسها ورؤوسها، وكأنها تشكل وحدة متجانسة لا انفصام فيها ولا انفصال. وانفلتت هذه الهواجس تتحاور وتتكلم بصورة عفوية لا لفّ فيها ولا دوران. وشيئاً فشيئاً أخذا يترجمان لغة هواجسهما إلى لغة أخرى. ومن خلال الأنفاس المحمومة سمعته يقول وكأنه يحدث نفسه:

– هلمّي معي.

أجابته مستسلمة:

- إلى غرفتي؟

- بل إلى معبد ثراء.

ظنت أنها أساءت إذاً فهم ما يرمي إليه، فسألته وقد تبدد بعض ما تمطى في كيانها من رغبة وتوق:

- لماذا؟!

أجاب بلامبالاة مفعمة بالثقة:

- لنمارس هناك طقساً مختلفاً.

لم تسئ الفهم إذاً، فهو يرمي إلى ما دار في خلدها، وأين؟ هناك في معبد ثراء، أمام الجثث المستلقية أرضاً، وبحضور الأرواح الهائمة في فضاء القاعة الكبرى. تحشرج ضميرها تحت ثقل تلك الفظاعات التي سقطت عليها دفعة واحدة، فانفلتت يداها من حول عنقه، وسقطتا بعنف على صدره، ثم انهارت على كرسي مجاور مستسلمة لبكاء لم تألفه من قبل.

تصاعدت روائح الجثث في القاعة المجاورة تزكم الأنوف، شيء واحد كان يبسط سلطانه على كل شيء في هذا المكان، يعلن عن نفسه عبر تلك الروائح الوهمية الطاغية، عبر الانقباضات الصدرية لدى الشابين، والتقلصات المعدية المضنية، عبر إحساسهما بالاختناق، ورغبتهما بالصراخ الهستيري المجنون، شيء واحد متغطرس لا حدود لجبروته، هو الغثيان. وطال بكاء لميس، وطال مكوث رأسها بين كفيها دون أية مبادرة من نزار لاسترضائها

أو الاعتذار إليها. وحين رفعت وجهها المبلل بالدموع، ونظرت إليه وجدته هو الآخر يبكي. نهضت عن كرسيها، واقتربت منه إلى أن أصبحت إلى جانبه تماماً، وامتدت أصابعها حانية تعبث بشعره:

- ما بك يا نزار؟ ما بك يا حبيبي؟

وعندما نظر إليها مستغرباً، أردفت مدفوعة برصيد خفي من قوة الشخصية لم تمارسه من قبل، ولكن خيّل إليها أنها تملكه مذ كانت، وأنه جزء لا يتجزأ منها.

- نعم حبيبي، ولِمَ العجب؟ لقد كانت علاقتنا منذ زمن تعلن أننا حبيبان وإن لم نكن نتبادل كلمات الحب صراحة، ثم ألم يكن ما قلناه منذ لحظات دليلاً أكيداً على أنك حبيبي وأنني حبيبتك؟

- لميس، هذه المرّة أنا الذي يختنق، ألا ترين؟

أمسكت وجهه بكلتا يديها ورفعته إليها مستفسرة:

- ما بك يا نزار؟ ما الذي حدث؟ ثم لماذا أنت هنا خارج معبد ثراء؟

قال دون أن ينظر إليها وكأنه يخاطب شخصاً غير موجود:

- كان معنا ضيف جديد.

- أعرف، رأيتها خارجة من المعبد بعد دخولكم إليه بنحو ساعة من الزمن.

نظر إليها ببلاهة لعدة لحظات قبل أن يتذكر المرأة ذات الثوب الأبيض.

- وهل عرفت من تكون؟

- لا.

- إنها أورنينا المعاصرة. المغنية والراقصة في معبد الربة ثراء.

- ولماذا لم تقض ليلتها هنا؟

- بعد انتهاء صلواتها هنا، عليها أن تقدم نمرة أخرى في أحد ملاهي دمشق.

ابتعدت لميس عنه وانبرت بلهجة عاتبة:

- لا تظلم خالتي إلى هذا الحد يا نزار.

- لست أظلمها يا لميس، هذا ما قالته لي أورنينا وهي خارجة من المعبد.

وقبل أن تعلّق على كلماته أردف نزار قائلاً:

- على كل لم أكن أعني تلك المرأة عندما قلت كان معنا ضيف جديد.

- من عنيت إذاً؟

- سحر.

وكأنها اغتسلت دفعة واحدة من كل تلك المساحيق التي كانت تغلفها منذ لحظات، وعادت لميس التي عرفها، والتي صورها دفتر المذكرات الوردي، لميس المسكونة بخوف مستمر من شيء وشيك الحدوث لا تعرف ما هو ولا كيف سيحدث.

- سحر؟! هل تقصد سحر محمد؟

استعاد شيئاً من شجاعته بعد أن استعادت ضعفها، فنظر إليها وهو يومئ برأسه:

- نعم.

- وكيف أتت؟

- عبر لوحة زيتية لأكثم الخالدي، وفي ذكرى رحيلها الأولى.

بدا أن لديها العديد من الأسئلة لم تكن تعرف كيف تسلسل طرحها، وانزلق أحدها على لسانها كما لو أنه خارج عن سيطرتها:

- لم تكن تعرفها من قبل؟

- بل أعرفها حق المعرفة.

- ماذا تعني؟

برغم كل انهزامها وجد نفسه مضطراً أن يدير وجهه عنها وهو يقول:

- سحر أختي يا لميس.

لفظ كلماته الأخيرة في الوقت الذي بدأ فيه مأتم أخته يضج في أذنيه، الأصوات تنهمر من كل الجهات، تكبيرة هنا واستغفار هناك، وهمسات الجارات تنطق بها تعابير وجوههن ملء الأسماع والأبصار والأذهان، والجميع يحللون ويركبون، يتوقعون الأسباب ويفسرون النتيجة. ومن خلال كل تلك الأصوات سمع صوت لميس تنشج. كان مطرقاً في الأرض

فلم يعرف هل الصوت وهم أم حقيقة، لكنه عندما اختلس إليها نظرة سريعة علم أنها تبكي فعلاً. أخذ رأسه بين كفيه وهو يقول لنفسه:

- "هي ذي ضحية أخرى للربة الطاغية".

وتذكر ما قالته ثراء في لقائهما الأول:

- أنا نسخة عصرية من المينوتورس.

ودون أن ينتبه حدّث نفسه بصوت مسموع:

- كانت تعني ما تقول.

وجاءه الرد من لميس:

- وأنت يا نزار، هل كنت تعني شيئاً واحداً من كل ما قلته لي؟

تمنى أن يقسم لها أنه الآن يحبها فعلاً، لكن الخجل من إحساسه بالذنب منعه، خشي على صفحة اعترافه الصادق هذه أن تطوى مع صفحات نفاقه الماضية، وكأنها صفحات متشابهة من دفتر واحد، فاختنق صوته في حلقه. وتابعت لميس:

- كنت أحس أن تلك العلاقة أجمل من أن تكون لي. كنت أشعر أن أيامنا التي عشناها معاً، أنا وأنت، دخيلة على عمري وغير منسجمة معه، وكانت على جمالها تعذبني وتشعرني بغربتي عن نفسي.

قاطعها نزار بقوله:

- أوتظنين أنني خرجت من التجربة معافى؟

– لست أدري. كل ما أعرفه أنني لم أقترف أي ذنب تجاهك.

قال بصوت تخنقه العبرات:

– أقسم لك بروح سحر الهائمة إلى جوارنا الآن في القاعة الكبرى، أنني أحببتك فيما بعد بكل جوارحي.

قال كلماته تلك وهو لا يدري إن كانت لميس تتابعه أم لا. بل إنها لم تحرك ساكناً وهي تراه يخرج من البيت في هذا الوقت المتأخر من الليل.

***

رغم تمسك ناهد الشديد بعلاقتها بإياد، وحرصها الأشد على أن تكون تلك العلاقة شائعة لدى الوسط الفني كله، رغم ذلك فإنها لم تكن تفوّت فرصة يمكنها أن تستقطب فيها اهتمام أي رجل آخر دون أن تستغلها حتى الرمق الأخير، ولم يكن أحد ليستطيع أن يتأكد تماماً، هل هذا يزعج إياد، أم أنه مبعث اعتزاز له بأن تلك التي توليه مكانة خاصة هي مطمح لأي رجل يعرفها. في تلك الأمسية دخلت ناهد إلى خمارة جورية بإطلالة ساحرة وأناقة مفرطة. وكالعادة كان كل من إياد وناهد إضافة إلى باقي أطراف الجلسة بانتظار تعليقات أسامة على هذه الإطلالة وتلك الأناقة، فالجميع هنا كانوا ينظرون إليه على أنه يضطلع في هذا النادي بدور لاعب خط الوسط في فريق كرة القدم، يوزع تمريراته السحرية في أطراف الملعب ما بين لاعبي الدفاع ولاعبي الهجوم، فيمنح المباراة حيويتها، ويُكسب الخطّة إمكانية تطبيقها، ويفسح المجال للاعبي الدفاع والهجوم أن يعطوا أفضل ما لديهم من مهارات فردية وجماعية. ولكن قبل أن تتفتح قريحة أسامة عن أي تعليق،

التفتت ناهد إلى إياد قائلة بمزيد من الزهو والفخر:

- هل تعرف من سيزورنا اليوم؟

ثم أطلقت ضحكتها المعتادة قبل أن تذكر اسم أحد الوزراء. بُهت إياد وسألها:

- سيزوركم! أين؟

- "يبعتلك الهنا"، هنا في هذه الشقة.

وعلى "الطاير" يلتقط أسامة الكرة ويندفع بها صوب المرمى:

- إي والله والله كنت عارف إنو هالشياكة كلها مانا إلنا لا والله.

- وضريبة انشالله، على شو بدي إتشيكلك يعني؟

- ولك مو أنا، مو أنا، هالمسكين اللي قضّى عمرو لا معلّق ولا مطلّق،

" ستون عاماً نزداد شباباً "

ثم رفع نظره إلى السقف، وأطلق ضحكته التي تخرج من قعر حجابه الحاجز:

- " أه أه أه . . "

" وينتظر وينتظر وينتظر . . . "

" أه أه أه . . . "

جلجلت ضحكتها المستوحاة من ضحكات العوالم في الأفلام المصرية في

أرجاء الشقة قبل أن يبترها صوت جرس الباب الخارجي.

دخل الوزير بعفويته المعهودة عنه كما لو أنه كان يسهر هاهنا كل يوم. بعض الناس يحبه وبعضهم الآخر لا يحبه، لكن الجميع مجمعون على أنه حالة استثنائية في الوزارة، بما يحمله من صفات شخصية وضعته في مصاف نجوم المجتمع، لدرجة أن أخباره كانت تتداولها صفحات المنوّعات ونجوم الفن، وفضائحه كانت المادة الدسمة التي تتحلق حولها الإعلانات التجارية في التلفزيونات الخاصة. إنه رجل المغامرة من أجل المغامرة، وكأن الحياة العادية بما تطالعنا به يومياً هي ضرب من حالات الركود الممل، ومعبر إلى الموت من دون مجد، وهي لا تليق بمن فهم هدف الحياة واستوعب فلسفتها. فإن أتت المغامرة بأكثر من ذلك إذ ذاك يكون الكسب استثنائياً، وتكون المغامرة " فوق المغامرة " كما قالت الشاعرة ليلى الأخيلية في مديح حبيبها:

- "ونعم الفتى إن كان توبة فاجراً   وفوق الفتى إن كان ليس بفاجر"

فضائحه الجنسية لم تكن تختصر شخصيته بكل أبعادها، وإن كانت تشكل ملمحاً هاماً من ملامحها، ووجبة غنية وفي متناول اليد والفهم بالنسبة لمجالس الثرثرة ووسائل الإعلام المبتذلة. هو رجل تجاوز الخمسين من عمره، جنى من تلك السنوات العديد العديد من العلاقات النسائية ذات الملابسات الغامضة والغريبة، والتي لم تكن أي منها تشبه سابقاتها في شيء، كما أن كلاً منها كانت تضيف إلى هالته بصفته "كازانوفا" معاصراً ألواناً جديدة، وآخر تلك العلاقات تمثلت بالضجة التي تناقلتها مواقع التواصل الاجتماعي، حول فسخ الخطوبة التي جمعته بأميرة خليجية، بعد

أن نمت إلى مسامعها حكايات وحكايات حول كونه زير نساء من طراز رفيع، وأن صولاته وجولاته ما زالت مستمرة حتى بعد إعلان الخطوبة ما بينهما. لم تطل اللحظات البروتوكولية التي رافقت دخول السيد الوزير، فقد كان يعرف تماماً كيف يبدد تلك الأجواء فوراً، ليستبدل بها أجواء أخرى خُلق لها وخُلقت له، أجواء أغلى من أن تهدر وقتها في مجاملات سمجة لا تقدم ولا تؤخر. فما هي إلا دقائق معدودة حتى كان يمسك بكل خيوط الجلسة، وكطبوغرافي حاذق يستقرئ خارطة "كونتور" أمامه، كان يحدد مسارات أحاديثها، ويتنقل كما يحلو له بين مواضيعها، يساير المنحدرات الصعبة، ويعرف متى وأين يعبر مجاري السيول، وكيف يلتف حول الجروف الصخرية، والانهدامات شديدة الانحدار. بدا مقنعاً ومنسجماً مع ذاته وهو يقفز كلاعب سيرك بارع بين أدوار الخلاعة والرصانة، والجدية والهزل، والسطحية وبعد الغور. وناهد مأخوذة بحضوره الطاغي، وعيونها تتابعه بشغف ووله كما لو أن إياداً غير موجود البتة. أما أسامة الذي لم يكن الوزير بحاجة أبداً إلى تمريراته طالما أن الكرة هي معه دائماً، فقد كان صامتاً مستنفر الاهتمام، يوثق ويؤرشف كل ما يراه وما يسمعه، ليعيد ضخه في الوقت المناسب، وبالإخراج الذي تقتضيه الضرورة حسب الموقف الذي سيعاد فيه بث الأرشيف. حتى أم طوني "الشبح الشاحب" غادرت ركنها الركين في البوفيه، لتقدم للسيد الوزير خلطاتها السحرية من المشروبات، والتي لا يجاريها في إعدادها أحد، وعلى الفور التقط الوزير في شخصيتها جانباً كان متوارياً حتى هذه الليلة عن عيون كل رواد "خمارة جورية"، فإذا هي ليست مجرد ديكور جامد صامت قرب البوفيه، بل يمكنها أن تكون اللاعب الأبرز

في إضفاء الحياة على رهط عاشقي الحياة، وتلوين سهرتهم بأضاميم من المواويل وأبيات العتابا والميجنا، وقد تبادل الوزير وإياها أبياتاً ارتجالية من الزجل، وسط دهشة جميع الحاضرين وذهولهم.

رفع الوزير يده بكأسه صوب أم طوني منشداً:

- لا تغـطي بالعـتم النـور   بيمرق عمرك بالحسرة
ولا تخلّي الطابق مستور   بيكـفينا خـوف وسترة

وعلى الفور تجيبه أم طوني:

- حـــبّي بقلبك المحلّيك   لا تخـبي أحلى مافـيك
بتحـلا فـيي وبحـلا فيك   مـتل الوردة بالغـــرّة
- بعـمرو فكّـر عتـم الليل   يطوي بجنحو نجم سهيل
بكرة الجايي أحلى وويل   اليُـرهن لمـبارح بكـرة
- المخـبّى مانـو عـــنّا   ذيعو اللـي شفتـو مـنّا
اللـــي عــنّا نحنا قلنا   بالمـــرّة ألــف مـــرّة

لم يصنع الوزير السهرة، ولم يرسم تفاصيلها، بقدر ما أتاح للسهرة أن تصنع نفسها بنفسها، وتنسج تفاصيلها بعيداً عن تدخلات أقطابها. فلسفة حياتية تشبه السفر على سفينة من غير ربان، تتداول الريح أشرعتها كيفما اتفق، دون أن يدري ركابها على أية جزيرة سيحطون رحالهم، بل دون حتى أن يشغلهم مثل هذا الأمر. وكأن الوزير من خلال كل ذلك، كان يعطي

"خمارة جورية" درساً في فنون الحياة غير التقليدية، مؤكداً لروادها أن جديد الحياة لا ينفد أبداً، وأنها قادرة أن تخلق نفسها كل يوم بحلة جديدة.

عند منتصف الليل، مضى الوزير مودّعاً بأكثر مما استقبل به من حفاوة وتكريم، رافقه أسامة إلى باب المصعد، وبعد أن تأكد من اللوحة الضوئية أنه قد بلغ الطابق الأرضي، قفل عائداً، فدخل وأغلق باب الشقة وراءه، ومضى عبر الصالون بخطوات راقصة وهو يغني بأعلى صوته:

- قـلتـلّي فـي إشارة   من عيونا صوبك بتدل

نهض الحاضرون متوجهين إليه على نفس إيقاع خطواته متابعين معه الأغنية:

- كل مبتمرق بالحارة   نشـوفا بتطـلّع بالكـل

وعندما وصلوا إليه، تشابكت أصابعهم بعضها مع بعضها الآخر مشكلين حلقة من الدبكة، أحاطت بإياد الطيان وهم ينشدون:

- بخمّـارة جوريّة   لـيلـيّة لـيلـيّة

ولا تفضى القنينة   بخمارة جوريّة

***

عندما كانت أحجية " خمارة جورية " السيدة هدى في شرخ شبابها، تقدم لخطبتها العديد من الشبان، وأكثرهم كان يتمتع بكل ما يجعل الفتاة تشير برأسها أن موافقة، ومنهم من استطاع أن ينتزع إلى جانب إعجابها حبها أيضاً.

ولكن مسؤولياتها كانت كبيرة جداً، أكبر من متطلبات شبابها وغرور جمالها وشبق جسدها. وكي لا تعذب نفسها أكثر وأكثر، قررت أن تصادر أنوثتها من أعماقها بشكل مؤقت، واستودعتها صندوقاً محكم الإقفال. وفعلاً نسيت أنها امرأة، وعاشت إنساناً يبحث عن متطلبات العيش مجرداً عن الأنوثة أو الذكورة، إلى أن زوّجت أصغر أخواتها والتي تصغرها بأكثر من عشر سنين. إذ ذاك فكرت أنه لم يعد هناك مانع أن تمارس حياتها العادية هي الأخرى. بحثت عن الزوج الذي يناسب ظروفها حتى وجدته، خطبته أكثر مما خطبها هو. وفي غمرة الترتيبات التي كانا يقومان بها من أجل الزواج، كالبحث عن البيت والأثاث وثوب الزفاف، فتحت صندوق أنوثتها فلم تجدها. فوجئت أنها وأدتها وهي تحسب أنها تركنها جانباً فترة من الزمن. ولكن برغم ذلك تابعت المشوار فتزوجت وأنجبت طفليها. وذات أمسية شتائية قارسة، كان مقرراً أن يصل زوجها وابناها إلى دمشق قادمين من حلب في الساعة السابعة مساءً. ولدافع ضمني قررت انتظارهم في مكتب شركة النقل كي يعودوا سوية إلى البيت . لكن الرحلة لم تصل في موعدها المحدد. اتصلت بزوجها على رقم جواله فإذا هو خارج التغطية، لن يكون خارج التغطية لو أنه في موقع قريب من المدينة، إذا فهو ما زال بعيداً! أكثر من موقع على طريق دمشق - حلب كان عرضة لهجوم داعشي مباغت، هذا الواقع المرعب أطاح لديها بأي احتمال عادي آخر، كأن يكون عطل ما قد أصاب السيارة في مكان لا تغطية فيه بسبب الأحوال الجوية السيئة. أخذت تتردد كل بضع دقائق على الاستعلامات، تستفسر عن السبب فيأتيها الجواب البارد: لم يتصلوا بنا بعد. مرّت ساعة أخرى وهي تزداد اضطراباً دقيقة بعد دقيقة. وفي إحدى

دورياتها المتواترة على موظف الاستعلامات التقته يستفسر بدوره عن سبب هذا التأخير. كان يفعل ذلك ببساطة طبيعية بدت لها وكأنها شكل من أشكال الجبروت. ولما رأى اضطرابها بادرها بلهجة مطمئنة:

– لا داعي للقلق يا سيدتي، فالأحوال الجوية سيئة، والطرق مغطاة بالثلوج، فمن الطبيعي أن يتأخر البولمان بعض الوقت.

– أي أنه من الطبيعي أيضاً أن يحدث مكروه لا سمح الله.

– بعد الشر يا سيدتي، تلك سوداوية غير مسوّغة، فالأصل في الأمور التفاؤل.

في تلك اللحظة رن جوالها وكان المتصل زوجها، أخبرها أن الثلوج قد منعت البولمان من إتمام رحلته، وأنهم الآن عائدون إلى حلب، وقد اتصل بها عندما أصبحت الاتصالات ممكنة. تنفست الصعداء، ولكن يبدو أن القلق كان يمنحها شيئاً من القوة وكأنها الرمق الأخير، أما وقد اطمأنت الآن نفسها فقد أحست أن ركبتيها ما عادتا قادرتين على حمل جسدها، فسقطت على مقعد قريب. ساعدها على النهوض ومضى بها إلى الكافيتريا التابع لشركة النقل. دفء الصالة، وجوها الحميم، ومذاق القهوة اللذيذ والمنعش، وأوصالها التي خدّرها اطمئنان بعد طول اضطراب، كل ذلك كان يشعرها أنها مأخوذة فعلاً. وتردد دائماً السيدة هدى لزملائها في خمارة جورية:

– هذه الأشياء الصغيرة التي يمكن أن تسحر مراهقة غير مجربة، هي نفسها التي تسحر امرأة ناضجة سحراً أكثر نضوجاً. وعلى كل، أنا لم أشعر في تلك اللحظات الحالمة أنني أحب الرجل الجالس قبالتي، يحتسي رشفات القهوة

الساخنة بشفتين أكثر التهاباً. ولم أدر ظهري لماضيّ كله لأستغرق بلحظات طارئة وعابرة. ولم أشح وجهي عن زوجي وطفليّ لأتحوّل إلى عاشقة ولهى لرجل الصدفة ذاك. كل ما في الأمر أنني شعرت بأنني استعدت كامل أنوثتي التي استودعتها صندوق الزمن فسحقها دون رحمة. وقد أدركت معها - بعد اعتقادي أنني فقدتها للأبد - أنها أروع ما يمكن أن أعيش معه وبه، وما كنت لأفرّط بها من جديد. وعندما تعذر علي أن أجمع بينها وبين زوجي أدرت له ظهري وتبعتها حيث تريد.

وتتجاهل السيدة هدى دائماً أن تذكر، أن رجل الصدفة ذاك هو نجم مشهور، وسيم وثري.

***

بعد أن أصبح نزار خارج أسوار فيللا ثراء، وجد نفسه وجهاً لوجه مع الليل المطبق المحيط. رفع عينيه إلى السماء يتأمل نجومها في حركة غير مبتكرة، وليست وليدة دافع ضمني حقيقي. لقد كان يريد أن يشعر أن الكابوس الذي يثقل كاهله، ويجثم على صدره قد انزاح قليلاً. وفي خضم تعملق أحاسيسه الخاصة بحالته النفسية تلك، تلجلجت في عمق أعماقه ذكرى أخته سحر، وسمع صوتاً بداخله يسأله، أين مكان الحزن الصرف، ولوعة الأخ على أخته في معقد انفعالاته التي تتفاعل في خلاياه، وهل هو يستطيع عزلها عن مشاعر الغضب والحنق والكآبة والضياع، وعندما وجد نفسه عاجزاً عن فعل هذا، تأكّد له كم هو الآن مصادر في إنسانيته، وشرعية تحكمه بأحاسيسه الخاصة. أدار ظهره للفيللا متجهاً نحو أتستراد المزة،

وهناك كاد أن يرفع يده مشيراً لإحدى سيارات الأجرة بالتوقف، لولا أنها تسمرت تحت وطأة سؤال وجيه، "ولكن إلى أين يمضي". فالمدينة الجامعية قد أقفلت أبوابها في هذا الوقت المتأخر من الليل. قرر المضي سيراً على الأقدام إلى مركز المدينة. كانت السيارات تخترق هذا الشارع الرئيس جيئة وذهاباً بسرعة جنونية، مستغلة اتساعه الفسيح، والتقلص النسبي لعدد السيارات التي تمخر عبابه في تلك الساعة من الليل. وكانت أنوار مصابيحها الراكضة من حوله تخدر تفكيره، وتجعله يسير كمن هو يسير في نومه. نبهه من حالة "السرنمة" تلك أن الرصيف قد انشق فجأة متمخضاً عن درج يتجه نحو الأسفل. اختار عبور النفق والاتجاه نحو ضفة الأتستراد الأخرى، وعند أسفل الدرج وقف في بداية النفق الموحش ونظر إلى نهايته متسائلاً:

- ترى أين هو البعد الحقيقي، وأين يعمل خداع البصر عمله أمام الفرق الكبير في تقدير طول النفق وعرض الشارع فوقه؟

لم يكن ليصدّق أن هذا القدر من الإحساس بالخوف سيسيطر عليه وهو يخطو خطواته الأولى على أرضية النفق المرصوفة، بدا له وقع خطواته على الأرض كأنه دقات طبل، بل إنه يشبه تماماً أصوات الأقدام في الأفلام السينمائية عندما يكون بانتظار البطل مفاجأة مرعبة، وأحس برغبة حقيقية في أن يعود أدراجه صاعداً إلى رصيف الشارع، لكنه قاوم تلك الرغبة ومضى إلى الأمام، بل إنه تعمّد أن يصدر صوتاً أقوى لأقدامه مستشعراً في ذلك قوة خفية في داخله. وعند الضفة الأخرى للشارع تابع السير نحو مركز المدينة، وقد تغيرت ودون أن ينتبه لذلك تركيبة مشاعره، وأصبحت نسبة

الإحساس بالكآبة والضياع أكبر بكثير من نسبة الإحساس بالحزن، الذي كاد أن ينمحي من ساحة شعوره. وعندما بلغ النفق الثاني، تابع اللعبة ذاتها، ولكن بعناء أقل هذه المرّة، وعند نفق كلية الآداب، وقف طويلاً محملقاً بالصمت العميق الذي يلف جنبات هذا المكان الذي اعتاد عبوره وهو يضج بضوضاء الخلق فيه. وقف يتأمل تلك الرحابة وذاك الاتساع، اللذين ما كانا ليسمحا بمرور اثنين عبرهما إلا على رتل ووفق خط متمايل بين الكراسي والطاولات المنتشرة هنا وهناك، والتي لا تتسع إلا لجزء بسيط من الطلاب، الذين يأكلون السندويتش المسخن، أو يشربون الكوكتيل، أو يقفون طوابير بانتظار تصوير محاضرات لا تنتهي. للأماكن كما للبشر وجه آخر لا يسفر إلا مصادفة، فكما يمكن أن يخفي الناس وراء الضحكات والمزاح حزناً مقيماً، تخفي الأماكن أحياناً خلف الزحام والضوضاء صمت القبور ووحشتها.

عندما بلغ مركز المدينة كانت خطواته قد عرفت وجهتها، فمضى إلى ملهى أحلام العاشقين حيث ستمضي أورنينا ليلتها هناك. وعند بابه تذكر أنه لا يعرف شيئاً عن تلك الأماكن، بل وجد نفسه لا يملك حتى الجرأة على دخوله. ولكن لا بد مما ليس منه بد، لقد دخل ووجد نفسه في النهاية يجلس إلى إحدى طاولات الصالة. لم تكن العلاقة بينه وبين الحاضرين تتسم بأدنى قدر من النديّة، فبينما كان يتفحص الوجوه ويرصد كل حركات الآخرين وسكناتهم، فإن أحداً منهم لم ينتبه أصلاً لدخوله. أشعل سيجارة وأخذ ينفث دخانها بهدوء وصمت، متابعاً التشكيلات المثيرة والعجيبة التي يرسمها الدخان في فضاء الصالة ذي الأضواء الخافتة الملونة. انتزعه من شروده هذا الإعلان عن نمرة "أورنينا". علا هتاف السكارى وتصفيقهم

متجاوباً مع إيقاع الموسيقى الممهدة لدخول الراقصة. وما هي إلا لحظات حتى انفلتت "أورنينا" من خلف الكواليس كنابض مضغوط أفلت من عقاله. بدت له امرأة أخرى مختلفة تمام الاختلاف عن تلك التي أدت حركات رصينة وموحية في معبد ثراء، حتى ملامح وجهها قد اختفت وراء ماكياج صارخ طمس بعسف كل ما هو خاص في ملامحها، ليحولها إلى نموذج نمطي لا هوية له. أغراه غطاء الزجاجة المذهب أن يفضه، فنسي أنه وطّد العزم على ألا يشرب. أمسك الزجاجة بيده تمهيداً لفتحها، وملء القدح أمامه من محتواها السحري، لكنه تمهل قليلاً، لا تردداً ولكن إشفاقاً على تلك الطقوس أن تمر سريعاً، فلكل حركة لذتها ونكهتها الخاصة. إنه ومنذ دخوله هذا المكان وشخصية نزار التي يعرفها ويألفها تنفى منه تباعاً جزءاً بعد آخر، وها هو يتحرر منها الآن تماماً، ليستبدل بها شخصية أخرى نمطية تشبه إلى حد بعيد كل شخصيات الحضور، فكأنهم يوزعون على باب الملهى أقنعة متشابهة يلبسها رواده وهم داخلون. قلّب الزجاجة بين يديه، ومرّر أصابعه على حوافها بلمسات ناعمة كانت تولد في داخله تياراً صاعقاً يدغدغ عمق أحشائه، حتى إذا بلغت أصابعه الغطاء، بدأ الغطاء ينزلق بينها بدورات مرنة أنيقة فاق عددها ما كان يوحي به شكله. أعاد فتح الزجاجة وإغلاقها مرات ومرات، فذكره ذلك بأنفاق الشارع الذي اجتازه سيراً على أقدامه، والتي انتقل عبرها بين ضفتي الشارع مرات ومرات، لكنه طرد تلك الذكرى بسرعة، لقد كانت بمثابة محاولة انقلابية فاشلة لآخر ما تبقى لديه من شخصية نزار، وبسحقها نفى الجزء الأخير من تلك الشخصية، واستسلم تماماً لمرامي شخصيته الجديدة.

- ما أروع رقصك يا أورنينا!

همس لنفسه بتلك العبارة وهو يفكر أين هن منها الراقصات الشهيرات اللواتي يستولين على شاشات التلفزيون. وبلمح البصر ارتمت الراقصة على ظهرها، وأخذت تتلوى أرضاً كأفعى لعوب، ثم عادت فنهضت على قدميها، لكنها وقفت على نحو أفقي لأن أرض الصالة هي التي أصبحت شاقولية. وما لبثت الكراسي والطاولات أن بدأت تتحرك بدورها، وتسير مطلقة العنان، تبدو وكأنها ستتصادم، لكنها في اللحظات الأخيرة لا تفعل.

- هناك قوة خفية تكلؤنا فلنطمئن إذاً.

في المرحلة الأخيرة من نمرتها، غادرت الراقصة المنصة، وأخذت توزع حركات جسدها الأفعواني بين الطاولات لكل زبون نصيبه. وعندما وجدت نفسها أمام نزار، أرادت ملامح وجهها الحقيقية أن تندهش، فلم تستجب لها الأخرى التي رسمتها المساحيق والأصباغ. قالت له بصوت خافت دون أن يطرأ على حركات جسدها أي اضطراب:

- سأكون على طاولتك بعد إنهاء نمرتي.

وفعلاً أتته بعد استراحة قصيرة بنفس الماكياج الذي كان على وجهها أثناء الرقص إنما بملابس عادية كالتي ترتديها أية امرأة أخرى. وما إن جلست حتى حدّقت بعينيه الزائغتين قائلة:

- هل أسرفت في الشراب؟

- ليس كثيراً، ولست سكران على كل حال.

– ولماذا أنت هنا! هل حدث شيء في الفيللا؟

هز رأساً أثقله الصداع بإشارة تنم على عدم مبالاة يفهم منها أن لا شيء هاماً قد حدث لكنها استطردت:

– لا زلت مستغربة!

– عجباً، لم يبد عليك الاستغراب لحظة رأيتني، بل استمر ردفاك يهتزان بنفس الطريقة كأن شيئاً لم يكن. فلمَ تندهشين الآن؟

– وما أدراك أنني لم أندهش؟ أما عن حركاتي الراقصة، فإنها مبرمجة قبل بدء الرقص، وهي منفصلة عني تماماً، ولا علاقة لها بأية ردة فعل انعكاسية تصيبني.

– يبدو أننا مبرمجون جميعاً على يد مبرمج خبير.

– من تعني؟

تغلّب على تثاقل لسانه وهو يجيب:

– الشيطان.

ثم وضع كفه فوق عينيه كواقية تمكنهما من النظر، ونظر إلى وجهها قائلاً:

– نسيت أن أرحب بك. أهلاً أورنينا.

– أورنينا؟!

– حسن، حسن، لا تغضبي. أهلاً فينوس.

– فينوس هي التي كانت ترقص منذ قليل، أنا الآن حياة.

– وهل اسمك الحقيقي حياة؟

– نعم.

– حياة، حياة، فعلاً إنك حياة.

– لا تفلسف الأمور ككل السكارى. إنه اسم فحسب.

اعتصر جبينه بين كفيه وأجهش بالبكاء كطفل صغير.

– ما بك يا نزار؟ ألا ترى أن المكان غير مناسب لهذا؟

– أنا متعب جداً.

– لقد أسرفت في الشراب، كان عليك ألا تفعل هذا.

ثم أخذت رأسه بين ذراعيها، وضمته إلى صدرها كأم رؤوم. تملص منها مذعوراً وهو ينظر حوله باضطراب.

– لا عليك، جميعهم مشغولون عنك.

ثم تابعت وهي تمسح على شعره:

– ابتسم، ابتسم يا نزار، المكان غير مناسب للدموع.

– فإن كنت لا أستطيع؟

– كما تريد.

لم يكن الفجر قد انبلج بعد عندما غادر نزار الملهى وهو لا يدري إلى أين سيذهب. وعند الباب مسحت وجهه نسمات طرية بليلة خففت قليلاً من وطأة الصداع الذي يثقل رأسه. أحس أن خطواته تتعثر، وأنه لا يستطيع متابعة المسير، فجلس على حافة الرصيف ووضع رأسه بين ركبتيه وأخذ يتقيأ.

- "أجمل ما في الحياة أن يجد المرء وسادة يسند إليها رأسه"

نهض عن حافة الرصيف، ومشى بخطوات أكثر اتزاناً والصداع ما زال يقاوم نسمات الفجر المنعشة، محاولاً التشبث بصدغيه أطول فترة ممكنة. وجد نفسه أمام واجهة القلعة إلى جوار تمثال صلاح الدين الأيوبي. ورغم أنه كان يراه يومياً، ويحس أمامه بنشوة النصر والظفر، فقد وقف يتأمله الآن وكأنه يراه للمرة الأولى. كان إحساسه في ذلك الوقت تجاهه مختلفاً، وكأنه بانتصابه وشموخه يهينه وينتصر عليه لا على جيوش الصليبيين. ولم يجد تفسيراً محدداً لذلك، هل لأن شخصية ثراء جعلته يكره شموخ القادة والآلهة وصلفهم، أم أن انهزامه وانسحاقه في حالته الراهنة تلك جعلاه يحس بالذل والألم أمام روعة الانتصار. تابع سيره، وما هي إلا خطوات قليلة حتى امتد إلى يساره سوق الحميدية خاوياً مظلماً. نفض عن كاهله غبار السنين والأحقاب، وتذكر بصعوبة أنه منذ زمن بعيد، وقبل أن يكون من هو الآن، عاش حياة أخرى بشخصية أخرى. بدا له سوق الحميدية وكأنه أحد الأنفاق التي اجتازها في حياته السابقة. وعادت شخصية نزار تدب في حناياه رويداً رويداً. فانعطف يساراً، ومضى عبر سوق الحميدية، يستعيد نفسه، ويستعيد معها ذكريات

عام كامل كان بمثابة كابوس مستديم، ولو أنه انتبه أن طريقه سيفضي به إلى الجامع الأموي، لهرب عبر أحد الأزقة الجانبية تجنباً لمواجهة غير متكافئة، لكنه كان خلال مسيره شارداً مطرقاً، ولم ينتبه لنفسه إلا وهو أمام الصرح العظيم، الذي بدا له حقيقة ساطعة ملتهبة في مواجهة صقيع الخواء الروحي الذي يستفحل كالسرطان في كيانه، أحس به يجذبه إليه قسراً ويناديه:

- "أنا جذورك الضاربة في موحشات الأعماق، والتي تتيح لك الوقوف أمام وجه الشمس".

لم يتجرأ على المناقشة، فلا وافق ولا اعترض ولا فنّد، بل خلع نعليه ودخل إلى رحاب الجامع الكبير. رأى مجموعة في المصلى تؤدي صلاة الفجر فما اقترب منهم، خشي أن يشمّ أحدهم رائحة المشروب الذي كرع منه طيلة الليلة الفائتة. أخذ يتجوّل في الساحة الفسيحة مأخوذاً بهذا الجلال الذي يبسط سلطانه على كل شيء. وقف أمام مدخل المصلى الرئيسي، وتأمل لوحة الفسيفساء العظيمة التي تزين واجهته، في حين كان القمر من خلفه يسكب على اللوحة ضياءه الفضي. رأى أن يتراجع إلى الخلف قليلاً كي تصبح اللوحة ضمن منطقة الرؤية بصورة أفضل. وعندما بدأ ينقل خطواته إلى الوراء، تغير انعكاس أشعة القمر على أجزاء اللوحة، مما منحها تموّجاً يشبه الحركة، بل بدا له وكأن هناك قطرات من الضوء بين دقائقها العجيبة التكوين. وصل إلى الموقع الذي بدت منه اللوحة بأبهى حللها، رآها من مكانه ذاك تشرب كل أشعة القمر، ثم تنثرها بهجة للعين والروح، وتبدّت واضحة جنان وقصور وهياكل تمضي بالناظر إليها على صهوات الخيال والنشوة إلى إرم ذات العماد.

وانتبه لنفسه من جديد كيف تغيرت كلياً تركيبة انفعالاته ومشاعره، فهتف لنفسه مقهوراً مغلوباً على أمره:

- "كم أنا مصادر".

وعبرت رأسه من الصدغ إلى الصدغ سحابة أراد لها أن تغسل كل ما علق في تلافيف دماغه خلال طيش سنواته الماضية، ليستعيد نقاء طفل وليد وطهارته. ولكن كل ما فعلته هو أنها دفعت بمعبد ثراء إلى واجهة مخيلته، ليقف على قدم المساواة مع الصرح الأموي العتيد الرابض أمام عينيه على أرض الواقع.

- "ها هم مهندسو الاستلاب الذهني يتبارون على استيطان عقولنا".

وللمرة الأولى أحس أنه يدرك تماماً جواب تساؤله خلال لقائه الأول بثراء:

- "لست أفهم لماذا يلعب البيت هذا الدور البطولي في حياتك؟".

ولأن الإعياء أخذ منه كل مأخذ، فقد جلس على الأرض، وأسند رأسه على أحد الأعمدة الرخامية يريد أن ينام، لكنه في هذه اللحظة انتبه أنه يحمل حذاءه بيديه، فربط فردتيه بعضهما إلى بعض، وعلّقه في رقبته، وغرق في نوم عميق.

***

حاملة معها رغبة الفريق الزمني في زيارة أبرز معالم دمشق ومشاهدتها، التقت الدكتورة لمياء بوزير السياحة لترتيب برنامج لائق لهذا الغرض.

ويتساءل الوزير:

– هل ترين أنه من المناسب الاستعانة بلجنة من أساتذة التاريخ في جامعة دمشق لتقديم صورة كافية وافية عن أهم الأماكن الأثرية في المدينة.

– لا أرى ضرورة لذلك يا سيادة الوزير، إنهم يعرفون كل شيء عنا، وسيقومون هم بتقديم المعلومات لنا، لذا يكفي دليل سياحي عادي كنوع من البريستيج ليس إلّا.

– لماذا الجولة إذاً؟

– قالوا لي إنهم يرغبون برؤية معالمنا بعيون مسافية ليس أكثر.

– أي أنهم هم أيضاً من سيحدد جدولاً بأسماء المواقع وترتيب زياراتها؟

– بكل تأكيد يا سيادة الوزير.

– هذا يجعل مهمتنا أبسط بكثير.

أسلس الزائران الزمنيان قيادهما أكثر مما اعتقدت الدكتورة لمياء، وتركا لها ولمعاونها المهندس طارق مهمة قيادة الجولة السياحية، وإن كانا يتوقفان أطول لدى مواقع كان الدليل السياحي يتوقع أن يمر عليها مرور الكرام، وكان مضيفوهم يتعرفون من جديد على المواقع التي يتوقف لديها الزمنيان، وكأنهم هم من يراها لأول مرة. زاروا المتحف الوطني، وطويلاً طويلاً توقف الزمنيان أمام الحجر الذي نقشت عليه أول أبجدية في التاريخ، وأمام تمثال أورنينا، أبدت راحيل إعجابها الشديد بأن تكون للمغنية والراقصة فرصة الخلود أكثر مما لكثير من أساطين القتل والدمار، وتأثرا كثيراً أمام

بقايا مهشمة لرأس طفل صنع له والداه هذا التمثال قبل أن يذبحاه تقدمة للآلهة التي شفته من دائه. ويتساءل طارق مستغرباً:

– وما جدوى هذا؟!

علّقت لمياء:

– ألم نر شيئاً مشابهاً في فيلم "أورنينا" للدكتورة ثراء؟

قالت راحيل:

– لعلهم آمنوا بتكرار الحياة، ورأوا أن هذا سينفعه في حياته القادمة.

– هذا ما تؤمن به ثراء أيضاً.

ولم ينس الزائران أن يلتقطا لنفسيهما صوراً تذكارية في قاعة المدفن التدمري، وعلى بوابة المتحف التي تم نقلها من بقايا قصر الحير الشرقي.

عندما تجولت المجموعة الزمنية المكانية على أبواب دمشق، أسهب حزقيل في الحديث عن ارتباط هذه الأبواب بالكواكب السيارة، فالباب الشرقي ينسب إلى الشمس، وباب توما إلى الزهرة، والباب الصغير إلى المشتري، وباب كيسان إلى زحل، وباب الجابية ينسب إلى المريخ. من الباب الشرقي دخل خالد بن الوليد دمشق حرباً، ومن باب الجابية دخلها أبو عبيدة بن الجراح سلماً. قالت لمياء:

– ولِمَ الدخول حرباً وبالإمكان ذلك سلماً؟!

أجاب طارق:

- الدخول السلمي يجعل الغنائم أقل يا عزيزتي.

عقب حزقيل قائلاً:

- كان ذلك دخول المسلمين إلى هذه البلاد، أما الحضور العربي فيها فهو سابق لهذا التاريخ بمدة طويلة، فالمناذرة في العراق، والغساسنة في الشام، كلهم شعوب عربية عاشت على هذه الأرض قبل دخول المسلمين إليها، بل أكثر من ذلك فملوك الرها ،العاصمة السريانية، كلهم كانوا عرباً شأنهم في ذلك شأن الملوك التدمريين.

وكما تمضي الدماء في أوردتها قدماً باتجاه القلب، كذلك الزائر لدمشق يمضي عبر أوردة المدينة قدماً صوب الجامع الأموي. ولا تنفد خزائن هذا الصرح أبداً، فهو يقدّم لزائره في كل مرة جديداً، فكيف إذا كان الزائر يراه بعيون مرافقين من كون آخر؟ هكذا بدا الجامع الأموي للدكتورة لمياء وزميلها المهندس طارق وكأنهما يريانه للمرّة الأولى. استفاض الدليل السياحي في الشرح لزوار الجامع قائلاً:

- بناه الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك، فقد وعد الدمشقيين بمسجد يفاخرون به العالم، كما يفاخرونه بهوائهم ومائهم وفاكهتهم وحماماتهم. وقد برّ بوعده، فكان مسجد دمشق درّة عصره، وقدوة المساجد في العصور اللاحقة. تفنن فيه البناؤون فأبدعوا. مقاييسه، زخرفته، هندسة بنائه، كل ذلك كان ضرباً من ضروب الإعجاز في عصره. على هذه الدعائم الأربع الضخمة ترتفع قبته الشاهقة، والتي تنثر ضوء الشمس على مصلاه، وعلى طرفيها يمتدّ سقفا الرواقين الطويلين. تبدو القبة والسقفان من الخارج

للناظر إلى دمشق من قاسيون، كنسر يفرد جناحيه في سماء المدينة، هذا ما دفع المؤرخين إلى تسمية القبة بقبة النسر. وهنا ضريح النبي يحيى "يوحنا المعمدان" ينتصب ضمن مصلى الجامع رمزاً من رموز التآخي بين الديانتين المسيحية والإسلامية الذي عاشته دمشق عبر تاريخها الطويل. للمسجد ثلاث مآذن أقدمها مئذنة العروس، وتقع على السور الشمالي للجامع، مشرفة على الفناء الذي احتوى فيما بعد ضريح صلاح الدين الأيوبي. وقد اختلف الرواة على تاريخ بنائها، فمنهم من يقول بأنها بنيت مع الجامع في العصر الأموي، ومنهم من يقول أنها بنيت في العصر العباسي. أما المئذنة الواقعة على الجزء الغربي للسور، فهي مئذنة قايتباي، وهي تحمل نقوشاً وزخارف بديعة. المئذنة الثالثة الواقعة على الركن الجنوبي الشرقي للسور، هي المئذنة التي تمس مشاعر الدمشقيين في العمق، وتحمل اسم مئذنة عيسى، ويعتقد الدمشقيون أن المسيح عيسى بن مريم سينزل عليها في آخر الزمان، وهي تتكون من جزء سفلي ضخم مقطعه مربع الشكل يعلوه جزء آخر ثماني الوجوه.

عندما خرج الزائرون من المصلى إلى باحة المسجد، استبق حزقيل الدليل السياحي قائلاً:

- نحن الآن في رحاب أقدم معبد على وجه الأرض، لم تنقطع فيه إقامة الشعائر الدينية. فقد عرف هذا المكان صلوات من كل صنف ونوع. منذ ثلاثة آلاف وخمسمائة من السنين والناس يحجون إليه، يزجون على عتباته طقوس العبادة والتقوى. هاهنا قام أفخم المعابد الآرامية وأجملها وأقدسها، معبد الإله حدد، سيد دمشق ورب الأرباب، منزل الغيث ومنبت الزرع وواهب

خيرات الأرض، القابض على الصاعقة والسنبلة. وإلى هنا تداعى الناس من كل أرجاء بلاد الشام ليطوفوا حول المعبد ويتبركوا بأعتابه. وعندما غزا الرومان دمشق، تحوّل معبد الإله حدد إلى معبد جوبيتير، ولم يتوقف تطور المعبد مع الزمن أبداً، إلى أن بلغ ذروة جماله وبهائه في القرنين الثاني والثالث للميلاد، تلك الفترة التي شهدت تطوراً وازدهاراً للعمران في كل المنطقة عموماً، فقامت صروح تدمر وبعلبك وبصرى وجرش، وقد كانت لمعبد دمشق قوانينه الخاصة به، فكان كل من في حرمه آمناً على نفسه وماله، هذا الأمر أدّى إلى انتعاش حركة البيع والشراء في الأسواق المحيطة به، وهذا ما وسم دمشق دائماً بوسمه فكانت على الدوام قرة أعين التجار والقوافل عبر تاريخها الطويل، وقد أسهم المعماري الدمشقي الشهير "أبولودور" في تصميم المعبد وبنائه، وهو نفس المعماري الذي صمم عمود "تراجان" ذائع الصيت في روما. في نهاية القرن الرابع للميلاد، حلت المسيحية مكان الوثنية في دمشق، فتحوّل معبد جوبيتير إلى كاتدرائية "يوحنا المعمدان" فكانت أكبر وأجمل وأهم كنائس دمشق. بعد الفتح الإسلامي لدمشق، تم تحويل قسم من هذه الكاتدرائية إلى جامع حمل اسم جامع الرفقاء، وقد تعايشت الديانتان المسيحية والإسلامية في عهد معاوية، أول خلفاء بني أمية وأهمهم. ولكن فيما بعد، في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك دخلت الكاتدرائية والأبنية المجاورة لها ذمة التاريخ، ليشاد على كامل هذه الأرض جامع بني أمية الكبير، والذي كان الرمز والترجمة المعمارية لعظمة إمبراطورية هي الأكبر حتى تاريخها. ولامتصاص احتجاج المسيحيين على مصادرة كاتدرائية يوحنا المعمدان، أعيدت إليهم الكنيسة المريمية، والتي كان قد تم الاستيلاء

عليها سابقاً.

علقت لمياء متهكمة:

- تم تعويضهم عن كاتدرائيتهم بكنيستهم؟!

- لا تغالي في جلد ذاتك يا سيدتي، ألم يحوّل الصليبيون المسجد الأقصى في القدس إصطبلاً للخيول؟

المحطة الأخيرة في الجولة السياحية لفريق الزمن كانت على جبل قاسيون. ويبدو أن دمشق التي أطاح العمر بأجزاء من ذاكرتها، نسيت أو تناست خلال أحقاب عمرها المديد هذا الموقع، وانحدرت عنه عبر السفح إلى حيث يتلوى شريان الحياة فيها متمثلاً بنهرها العذب السلسبيل. إلا أنها وبوعي غير واع لذاته، عادت فتسلقت الجبل بأحياء شعبية غير نظامية، كان يجذبها على الدوام حنين الفروع للأصول، أو كما يقول الشاعر السوري الكبير بدوي الجبل "حنين النور للنور". وبعد أن تجاوزت المجموعة السائحة الزمانية والمكانية آخر المخالفات الجماعية على سفح قاسيون، كان عليها أن تتأهب لصعود سلالم وسلالم حتى تبلغ غايتها المنشودة، وهناك بعد طول عناء، استقبلهم الموقع بإطلالته الراعبة. ويلقي الدليل السياحي على مسامع مرافقيه تفسيراً لكل ما يرونه:

- هنا مسرح أولى جرائم التاريخ، هنا قتل قابيل أخاه هابيل! وصُعق الجبل من هول الحدث الدامي، ففغر فاه رعباً ودهشة، فتشكلت تلك المغارة التي لا تزال قائمة حتى يومنا هذا، والمسماة "مغارة الدم". تمعنوا قليلاً، فهاهنا لسان الجبل وأضراسه، فم الجبل واضح بكل تفاصيله رغم مرور

الأحقاب عليه، وتلك القطرات المتساقطة من سقف المغارة، والمتجمعة في هذين الجرنين، هي دموع الجبل يستشفي بها الزائرون، وذلك الحجر وهو أداة الجريمة ما زال شاهداً على فعل القتل. لو صعدنا على سفح الجبل قليلاً لوجدنا البقعة التي حصلت الجريمة عليها ما تزال مصبوغة بلون الدم الوردي.

تساءلت الدكتورة لمياء وهي تشير إلى آثار كف واضحة على سقف المغارة، وغير بعيد عنها تتشكل وبشكل تلقائي أحرف لفظ الجلالة "الله":

- ما هذا؟

- هذه آثار كف جبريل عليه السلام، عندما منعت ذات أمد بعيد سقف المغارة من التداعي.

كان البروفسور شيث يتابع باهتمام أقوال الدليل السياحي، وعندما فرغ من الإدلاء بمعلوماته قال البروفسور:

- هنا قُتل هابيل، لكنه دُفن في مكان آخر. أما هذه المغارة "مغارة الدم" فقد ضمت جثماني آدم وحواء.

***

في صباح اليوم التالي لوصول طه إلى دمشق تلقى اتصالاً هاتفياً من جورج شماس، أعرب الأخير من خلاله عن رغبته بالتعرف عليه وجهاً لوجه. أعاد طه سماعة الهاتف إلى مكانها، ومكثت يده فوقها قليلاً، وقد علت وجهه مسحة من فرح صوفي وهو يحدّث نفسه مبتسماً:

- "وأخيراً . . سألتقيه، سأستقبله في منزله . . . يا لها من مفارقة".

لقد أخبره خاله أن جورج شماس كان صديقاً حميماً لوالده رشيد بك، وأنهما كانا رفاقاً في الحزب ورفاقاً في السوق أيضاً. ولكن جورج كان أكثر ديناميكية من رشيد، صحيح أنه لم ينحن أمام العاصفة، لكنه عرف كيف يتفاداها، ويتقي شرها حتى تمر، وكان وجوده إلى جانب رشيد سبباً رئيساً في صون الأخير من إعلان إفلاسه. وكثيراً كثيراً أسهب الخال في الحديث لابن أخته عن أخلاق صديقه الرفيعة وقيمه، وعن مواقف وأحداث وحكايا كانت بين الأصدقاء الثلاثة، حتى بات جورج وكأنه جزء لا يتجزأ من ذاكرة طه.

وقف الرجلان الثلاثيني والثمانيني وجهاً لوجه ، يفصل ما بينهما نصف قرن من الزمن، ويجمع ما بينهما هدف وذاكرة وحلم. لم تطل ما بينهما عبارات الترحيب، ولم يطرقا في الأرض صامتين، ولم يتحدثا عن الطقس وأحواله كما يفعل غريبان يلتقيان لأول مرّة. فما بينهما - رغم كونهما يلتقيان للمرة الأولى - رشيد بك، ووطن موجوع، وحلم ينزف لكنه لا يموت. لقد ساد الرجلين إحساس غريب بأنهما يتقاسمان مسكناً مشتركاً، فتماهت ما بينهما الحدود التي تفصل ما بين صاحب البيت وضيفه، وتهاوت كل أباطيل روابط الدم والدين وطول المعاشرة، ولم تسطع إلا حقيقة تواصل الأرواح ووحدة الوجع.

- لم تزر بيتكم بعد أليس كذلك؟

- لا، لكنني التقيت أخي خالداً أمس في المطار، وأنا مدعو اليوم للعشاء

هناك.

– مدعو؟! عليك أن تستعيد حقك في أسرع وقت، فبيتكم كبير وفي أغلى أحياء العاصمة.

– بالتأكيد سنجد مخرجاً للوضع الذي نحن فيه، عموماً لن تكون بيننا مشاكل على الأغلب، فأنا لا أكره زوجة أبي، لقد أحسنت معاملتي في حياته وبعد رحيله، وابنتها خولة كأختي تماماً.

– هذا الإنشاء البلاغي لا يجدي نفعاً، يجب أن تحصل على حقك وتتزوج في أسرع وقت ممكن.

– أعرف، أعرف. وإن كنت قد أدمنت تأجيل كل شيء، فأنا دائماً لا أجد حافزاً يدفعني للإسراع بأي عمل، لهذا يسكنني على الدوام إحساس بأني أعيش عمراً مؤجلاً.

رفع جورج كفه بإشارة تعني أن اصمت، وقبل أن يحاول طه تعديل أقواله أوضح جورج بعد لحظة صمت:

– هناك كلمات ينبغي أن تأخذ كامل حقها من الوقت، على الكلمات التي تليها أن تنتظر خلف الشفتين ريثما يفرغ الجمهور من تصفيقه.

تهكم طه على نفسه قائلاً:

– وهل فرغ الآن الجمهور من التصفيق؟

– نعم، فرغ من التصفيق وبدأ يتساءل: ما الذي خبرته أيها الثلاثيني من

الأعمار المؤجلة؟ بل ما الذي خبرته من الأحلام المؤجلة والتي قد لا تأتي أبداً؟ نحن يا بني من عاش عمره مؤجلاً، بل لعلّ سوريا بأسرها أمضت قروناً من العمر المؤجل. لقد أوجعتني عبارتك فأحببت أن أصفق لها. أسرع يا بني بترتيب أمورك، واصنع بنفسك تفاصيل قدرك. يجب أن يكون لك بيتك الخاص، فنحن الرجال أحوج ما يكون الواحد منا لباب يغلقه عليه. النساء محظوظات يبكين حيثما اتفق، في المطاعم والمقاهي وحتى في الحدائق العامة. أما أنت فلا يمكنك أن تبكي إلا وراء بابك، ولا يرشف دمعك إلا وسادتك.

كلمات جورج أحرجت دمعة كادت أن تهمي من عين طه، فارتشفها جفناه، ثم ازدردها مع ريقه قبل أن يقول:

- بعد أن كبرت، أصبحت ذكرياتي مع أبي رحمه الله تنتابني مع مرادفاتها الخفية التي لم أكن أقاربها وأنا طفل، لكل موقف الآن وجه ووجه آخر. ما أشبه الوجوه الأخرى لذكرياتي مع أبي بكلماتك يا عمّاه.

أغمض العجوز عينيه كي يمنح ذكرياته استعادة هادئة تليق بكرامة شيخوختها، حتى إذا توهجت مهابة حضورها وراء جفنيه، فتح عينيه لتطل منهما على مسامع ابنه الروحي:

- لم تكن الرجولة وحدها ما أثقل كواهلنا يا بني، كانت معها قيم كثيرة أخرى: الدين والشرف والأخلاق والوطنية، ثم كبرنا وعلمنا أن كل تلك القيم والمفاهيم لا تتعارض مع الحياة، عرفنا ذلك، ولكن معرفتنا تلك أتت بعد فوات الأوان. لا تضع وقتك يا بني، وكفّ عن تأجيل عمرك، إنه لا

يتأجل بل يتبدد.

لم يحر طه جواباً، بل لعله لم يعرف أأصاب أم أخطأ إذ دخل مع صديق والده هذه المنطقة المحرمة. لكنه صمت لفترة من الوقت، ليمنح الموقف الذي هما فيه كامل حقه من الوجع والتصفيق، ثم قال:

- لقد كنت صديقاً للعائلة، فلماذا لم تُبق على التواصل ما بينك وبيننا بعد رحيل والدي؟

- لم يظهر على زوجة أبيك ما يشي برغبتها في ذلك، بل بشكل أصح ظهر عليها كل ما يشي بعكسه. بعد أن كبر أخوك خالد حاولت التواصل معه، لكنني وجدت ما بيننا أسواراً وأسواراً، هذا لم يمنع أنني بقيت أتابع أخباره عن كثب، ونحن الآن صديقان في مرصد قاسيون، وهذا سقف علاقتنا، فأنا لا أجد قاسماً مشتركاً معه يسمح لي بالتقرب منه أكثر فأكثر. لقد كررت أمه معه كبيراً اللعبة ذاتها التي لعبتها معه صغيراً، إنها تشتت من حوله أصدقاءه، وتحكم عليه نسج شرنقتها، فحتى أصدقاؤه البعثيون قد انفضوا من حوله نتيجة الطاقة السلبية التي تشيعها في حياته.

***

استفاق نزار على جلبة الوافدين إلى الجامع لأداء صلاة الجمعة، فعلم دون أن ينظر إلى ساعته أن الظهر أوشك أن يحل. رأى العيون تنظر إليه شزراً، فلم يستبن السبب الحقيقي لذلك، أهي رائحة المشروب المنبعثة منه، أم الاستفزاز الوقح لتأرجح حذائه على صدره. لكنه لم يستغرق كثيراً في كل تلك التفاصيل، بل انطلق هارباً خارج أسوار الجامع، ثم استقل أول سيارة

أجرة مر بها متوجهاً نحو فيللا ثراء. هناك وجد لميس ما تزال جالسة في البهو حيث تركها في الليلة الماضية. كان واضحاً على وجهها أنها لم تنم طوال الليل، وخلال ذلك استنفدت كل التركيبات الانفعالية التي تجيد تعاطيها، إلى أن بلغت مرحلتها الراهنة تلك المجردة عن أي انفعال. ولأن العلاقة بينهما أعمق من المجاملات، فإنها لم ترغم نفسها على الابتسام له عندما رأته داخلاً، وخلال لحظات استوعب نزار ذلك، وعلم أن ليس الدافع إليه العتاب أو الإعراض. سألها بأقل عدد يحتاجه من الكلمات:

- هل غادر الضيوف؟

- جميعهم.

- وثراء؟

- استيقظت مؤخراً.

نظر إليها بعينين جامدتين وهمّ أن يسأل لكنها أجابته من فورها:

- لم أتبادل معها أي حديث بعد.

قالت لميس هذا، واتجهت صوب ثراء التي بدت مقبلة نحو الشابين في نهاية الممر الطويل. وعلى حين غرة استوعب نزار حقيقة مرعبة، في تلك اللحظة فقط تذكر أن كل ما دار من أحاديث ليلة أمس في معبد ثراء كان محض خيال، وأن أحداً من رواد هذا المكان لم يتجرأ حتى أن يرمي ثراء بنظرة شك واحدة، وأنها ما زالت حتى الآن في برجها العاجي العصي المنال تحرك أفلاك هذا الكون. رآها تمر من أمامه كمملكة آرامية تعبر بوابات العصور،

عندما دنت لميس بشفتيها من أذنها لتهمس لها بكلمات يعرف مضمونها. وتوقفت ثراء لحظة، ولاذت بالصمت وهي تحدّق بنزار الذي أطرق برأسه أرضاً تجنباً للنظر في عينيها، وحين استرق إليها نظرة سريعة، تأكد له كم أن المفاجأة - على هولها - لم تفقدها بريق السلطان الذي يضج به محياها، ولم تغلق نافذتي عينيها عن تلك الشعلة المتوقدة من العواطف الكامنة في قرارة نفسها، والتي كان يراها قادرة فيما لو ثارت براكينها المتحفزة للانفجار، على تدمير كون وإعمار آخر. وأخيراً سمعها تقول لأحد ما:

- تصرف رخيص، سلوك وضيع، أنفاقاً كان كل هذا؟ أباطلة كانت عبادتك وادعاءً كانت علاقتك بلميس؟

ثم انبرت بلهجة أكثر صرامة وهي تنظر إليه وجهاً إلى وجه:

- سيان عندي إن كانت سحر أختك أم لم تكن. لقد انتحرت في بيت أهلها، قتلتها تربية والديها الخاطئة، أورثتها أمها الفاشلة المحبطة هشاشتها، وحجر عقلها والدها المحنط.

ثم ارتمت على كرسي مجاور، وأخذت رأسها بين كفيها، وصمتت لحظات طويلة، لعلها بكت خلالها، لكنها رفعت رأسها في النهاية، وردت خصلات شعرها المشوشة عن جبينها، وحدقت فيه بعينين جامدتين. كان خائفاً، خائفاً بكل ما لهذه الكلمة من معنى، وكان يرتعش كمن تمرد في لحظة طيش على مليكته النافذة السلطان، ثم مثل أمامها بعد ذلك ينتظر حكمها فيه. أما هي فقد استعادت كل سلطانها، عادت وهي المتهمة المذنبة إلى وراء منصتها الملكية، ثم قالت بصوت خاله آتياً من بعد سحيق:

– لم أسع إليها بل سعت إليّ، أتتني تشكو دينها وطقوسه التي تلقي بها في دائرة الشرود، أتتني تشكو والدها الذي علمها مخافة الله لا حبه، فباتت ترتعد لذكره بدل أن تخشع بين يديه، تمارس عبادتها بدافع قهري، وتذهب بها أوهامها إلى ما لا يليق أثناء ذلك، فتستغفر الله، فتعود بها أوهامها إلى الفكرة السيئة نفسها حتى أثناء الاستغفار. بكت بين يدي، قالت لي أنت أول إنسان أبوح إليه بما أبوح. إذ ذاك عطفت عليها وأخذت بيدها، انتشلتها من حصار العبادة المكررة والجامدة إلى أفق الروح الرحب، وانطلاقة الجسد نحو غاية طاقاته الكامنة، حيث تسكر العبادة والعابد معاً من خمرة الله، إلى أن يسقط الجسد مغشياً عليه، وتعرج الروح فتخرق حجب السماء العليا. وحين يعود الجسد والروح إلى اللقاء من جديد، ينهض العابد بجسد نشيط بعد طول خمول، وروح معافاة بعد طول سقام.

ثم تقدمت من نزار، وأخذت تمسح على شعره بأمومة مترفة:

– لم يكن العيب في ديني وطقوسي يا بني، بل كان في تربية سحر الأولى، صدقني أيها الحبيب.

كان ما يزال يرتعش كعصفور مبلل الريش فلم يقو على الإجابة.

– قل يا نزار أنك لم تكن تنافق في عبادتك، قل إنك ما زلت وفياً لها مخلصاً لمبادئها.

استجمع نزار كل قواه الخائرة، وكل ما لديه من شجاعة، ثم نهض متوجهاً نحو الباب، وهناك التفت إلى الوراء، وألقى عليها نظرة أخيرة، كانت ما تزال باسمة برقة يضج فيها سلطان لا صلف فيه، فمضى خارج

قصر التيه لا يلوي على شيء.

***

أصبحت الخفافيش عاجزة عن التحليق في سماء دمشق لفرط ما ازدحم في فضائها من تدفقات إلكترونية. فالتشويش يعترضه تشويش، والتنصت يتنصت عليه تنصت. كل ما توصلت إليه بنات العقول من نفائس منظومات المراقبة، وغرر شبكات التجسس، زُجّ به دفعة واحدة في حمأة سباق محموم، لم يخضع لأي ترتيب مسبق، أو أي تخطيط مدروس. وإن كانت الخفافيش قد فقدت قدرتها على أن تجوب سماء دمشق، فإن خفافيش من نوع آخر، كانت تجوب أرض المدينة طولاً وعرضاً: السفارات، وبؤر العصابات العالمية الكبرى، وأجهزة استخباراتية عملاقة، الكل الكل يريد الفوز بميثاق، والكل الكل يريد أن يكون أول من يقطف رأسه. وأهم من ميثاق والعثور عليه كانت الرغبة بمعرفة ما الذي يفعله الزمنيان هنا، وما هي الأساليب التي يتبعانها. وفي المدينة من أبنائها أنفسهم أسراب وقطعان من المعتاشين على ذلك، يعملون لمصلحة كل من يدفع. كل شخص غريب هو موضع شبهة، وكل من ينطوي على سر غير معلن هو مشروع ممكن لصيد ثمين. والويل كل الويل لأي غريب وفد مؤخراً على أي حي من أحياء المدينة، وانزوى منغلقاً على نفسه في مجتمعه الجديد. ضجّت مواقع التواصل الاجتماعي بأسماء المفقودين، وعرضت أرقاماً مرعبة لمخطوفين يجهل ذووهم أي شيء عن مصائرهم. وكالعادة في كل ظرف كهذا، تنشط وتنتعش على خلفية الجرائم العامة جرائم ذات طابع خاص، تتخفى تحت

ملاءة الوضع المتدهور. فانتعشت تجارة تصفية الحسابات بين المتخاصمين، وتجارة استغلال اللحظة المواتية لتحقيق كسب استثنائي لا تخلقه إلا لحظة استثنائية. لمَ لا طالما أن الظرف العام موات لذلك، وجسمه "لبّيس" كما يقول الدمشقيون، الذين يجيدون السباحة في كل أنواع المياه، وكأن مدينتهم تُطلّ على كل بحار الدنيا.

هكذا كانت دمشق موزعة بين منحيين متناقضين، منحى تتعاطى فيه مع كل دناءات الدنيا، التي صَدّرت لها كل ما لديها من ثعالب وبنات آوى، لترتع في أنحائها ما ترتع، وتعيث فيها فساداً وخراباً. ومنحى آخر تترقبه الدنيا بأسرها من خلال الزيارة الزمنية، منحى يعد بفجر جديد سيغمر العالم بنور غير مسبوق، ويعيد للحياة صراطها المستقيم، بعد أن ينزع من دربها أشباح الأوهام التي اختلطت مع هياكل الحقيقة، ويزيل ما تربص داء بالعقل البشري، ومنعه من أن يلعب دوره الحقيقي المناط به في التوجيه صوب وهج الحقيقة، وقيادة الحياة على دروبها. وكان العالم كله يشخص إليها – وهي التي كانت منطلقاً لكل الديانات فيما مضى – كيف تتأهب لأن تلعب دورها الأزلي من جديد. أجل كانت دمشق تستعد لأن تلد للعالم عصراً جديداً، ولا عصر جديداً دون زلزال يمهد له الأرض لكي يرسي فيها دعائمه بثبات، ولا ولادة دون آلام المخاض وإرهاصات التشكل. ومدينة ولّادة كدمشق، تراكم لديها عبر العصور من الخبرات ما يكفي ليجعلها تستوعب كل هذا، وتصبر على الأزمات العابرة التي تتمترس عند مفاصل الحياة الكبرى، وتتربّص على مفارق المصير. لذلك كانت تعض على ألمها كلبوة جريحة يضج الألم في جسدها، ولكن لا ينضح وجهها إلا بسيماء الصرامة والهدوء،

وترقّب المولود القادم.

أخيراً استفاقت دمشق من لوثة الفوضى والفلتان التي عانت منها على خبر مباغت. فعلى طريقته في الإيجاز والمباشرة، وبدون مقدمات، أصدر موقع المكتب الإعلامي للفريق الزمني على الإنترنت البلاغ التالي:

" بمشاعر لم نختبرها من قبل في كوننا الزمني، نعلن لكم أصدقاءنا في كون المسافة نبأ موت مواطننا ميثاق".

سقط الخبر على كون المسافة سقوط الصاعقة. صحيح أنه لم يمض بعد أكثر من أشهر معدودة على بداية كل تلك الرواية، ولكن أشهراً معدودة من الزمن كانت كافية لأن تجعل الحياة في كون المسافة بلا معنى ولا جدوى ولا هدف بدون ميثاق. لا أحد يريد أن يصدق الخبر، ولا جهة ترغب في الإذعان لحقيقة أن كل جهدها المبذول على مدى أشهر من الزمن كان جهداً ضائعاً. السفارات، الهيئات العامة، المنظمات السرية، وحتى الأكاديميات العلمية التي أبعدت قسراً عن سجال الأحداث، كل هذه الجهات كانت في حالة من الذهول والوجوم.

تشكلت على الفور هيئة خاصة مهمتها الإشراف على مراسم العزاء، ومُنحت موازنة مفتوحة، وكان من أول ما فعلته تلك الهيئة، هو أن قدمت للسيدة راحيل تشكيلة واسعة من الفساتين السوداء، وصلت إلى دمشق على جناح السرعة كهدايا من كبريات دور الأزياء في العالم، كي تتمكن من الظهور كما يليق بسيدة مفجوعة. كما قُدّم للسيد حزقيل ربطات عنق سوداء، ومجموعة متنوعة من البدلات الرسمية من أهم الماركات العالمية. وعلى

الفور وبمساعدة رجال الإطفاء، تم تثبيت شريط أسود كبير على الزاوية اليسارية العليا من واجهة الفندق الرئيسية.

تقاطرت إلى دمشق وفود المعزين من كل أنحاء العالم: شخصيات سياسية مرموقة، ورجال فكر وأدب، ونجوم هوليوديون، وسيدات مجتمع مخملي.

بكثير من الحذر والتردد، تساءلت الهيئة الخاصة المشرفة على مراسم العزاء عن جثة المرحوم، وطريقة التعاطي معها حسب رغبة الفريق الزمني. وكان الرد صادماً:

- لقد تم نقل الرفات إلى الكون الزمني.

ابتلعت دمشق صدمتها. فقد اعتادت معدتها الهاضمة للعصور والحقب على هضم الأخبار الصادمة والأحداث الغريبة. وامتثلت لقوانين الحياة وسيرورتها فبدأت تنفض عنها غبار الأزمة التي عصفت بها على مدار عدة أشهر من الزمن. وبدأ المخطوفون يظهرون تباعاً بعد أن ثبتت براءتهم، وبدأت معهم تنتشر ملابسات خطفهم، ما كان منها حقيقياً، وما كان مجرد شائعات على جاري العادة الدمشقية. وبدأت تنتشر في الشارع، وعلى مواقع التواصل الاجتماعي، وحتى على وسائل الإعلام أنباء عن تورط سفارات في كل ما حصل. ولكن كل هذا كان يشغل المواقع الخلفية من اهتمام الناس فقط، فالمواقع المتقدمة من اهتماماتهم ما تزال محجوزة لما سيخرج من المطبخ الزمني، طالما أن أفرانه ما تزال قيد العمل تعد بالمزيد المزيد من الأطباق الشهية التي ما تذوقتها ذائقة من قبل. وفعلاً فقد كان ما يزال لدى الفريق الزمني الكثير مما يمكن أن يفاجئ به كون المسافة. فبعد أن استطاع بصعوبة

أن يخفف عن أبناء كون المسافة حزنهم وفجيعتهم على فقد ميثاق، وبعد أن هدّأ من روع كل المعزين المتوافدين على مقر إقامته، خُتمت مراسم العزاء، وأصدر المكتب الإعلامي لفريق الزمن على موقعه على الإنترنت برقية شكر لكل الكون المسافي على مواساته الصادقة التي كان لها كبير الأثر على جمهور الكون الزمني، والذين كانت تصلهم تلك الفعاليات على الهواء مباشرة. وبذلك طوى الفريق الزمني هذه الصفحة البروتوكولية التي فرضت عليه فرضاً، ليستعيد حيويته ومسيرة حياته الطبيعية - رغم اعتقاد الجميع أنه قد أنهى مهمته - مبتدئاً المرحلة الجديدة بإعلان مثير:

"ترقبوا في الأيام القريبة القادمة مفاجآت أبعد من حدود تخيلاتكم".

***

دلف المحامي حسام إلى المشفى الذي يرقد فيه والد زوجته كمن يؤدي طقساً مقيتاً لا مفر منه، ولكنه كان يحاول أن يدير أزمات حياته، فهو يعلم أن الحياة مأزومة بطبيعتها وجوهرها، ويخطئ من يظن أن عليه أن يحل مشكلاتها، بل إن الحصيف من البشر من يعمل على إدارة أزماتها. لا يستطيع أن يخادع نفسه كثيراً، فنفسه تعرف تماماً أن المشكلة بينه وبين زوجته أكبر بكثير من أن يربطها بالحدث الأخير، وأعمق بكثير من أن يعتبرها مجرد ردة فعل طارئة لحدث ما ستزول بزواله، وتختفي باختفائه كأنها لم تكن. بل إن موقف زوجته المتعنت هذا لم يكن ليظهر أصلاً لولا أن المشكلة قائمة فعلاً، ولها جذورها وحيثياتها التي ستستمر، وستثمر لدى كل موقف جديد إشكاليات جديدة. "آخر العلاج الكي"، الطلاق؟ يعرف وهو المحامي المستغرق حتى

أذنيه في هكذا قضايا ما الذي يعنيه الطلاق، وما هو الثمن الذي ستدفعه طفلته جراءه أثناء طفولتها وبعد أن تكبر. ولكن إلام يتجاهل المشكلة؟ إن تجاهل المشكلة والهروب منها لن يجديه نفعاً، و"خمارة جورية" قد تساعده على تناسي همومه، لكنها قطعاً لن تحل مشاكله، ما كان منها بسبب زوجته وتنافر طباعهما، أو ما كان منها مترعرعاً في تربة نشأته الأولى. في المصعد طالعه في المرآة خياله، كاد ألا يعرف نفسه، خاطب خياله في المرآة قائلاً:

- "ألا تكون حيث ينبغي أن تكون قد يكون لك عذرك. أما أن تكون حيث ينبغي ألا تكون فما عذرك؟"

لم يكن يصدق هذا المخزون من القرف والكراهية الذي يطفح من أعماقه على وجهه في المرآة. حاول أن يهزمه بابتسامة مفتعلة، لكن ملامحه رفضت استضافة الابتسامة الدخيلة. أذعن لمشيئة مشاعره، وخرج من المصعد متوجهاً صوب الغرفة التي يرقد فيها حموه، وهناك استوقفته إحدى الممرضات قائلة بملامح طافحة بالشفقة والرثاء:

- اطمئن أستاذ حسام، التحاليل أفادت أن زوجتك لن تستطيع التبرع بكليتها.

لعل الابتسامة التي استعصت عليه منذ قليل قد ملأت وجهه الآن، شكر الممرضة بانحناءة خفيفة وتابع طريقه، ولكن عبارة أخرى من الممرضة همست بها في أذن زميلتها، وظنت أنها أوهن من أن تبلغ مسامعه، بلغت أذنه وعبرت رأسه من الصدغ إلى الصدغ. صعدت الدماء إلى رأسه، وارتفعت درجة حرارتها تكاد تغلي، وأحس أن الدنيا تدور من حوله، وأن رأسه قد

أخذ يرتطم بالجدران أثناء مسيره. دخل الغرفة وهو لا يعرف مطلقاً ما الذي يطفح الآن من أعماقه على وجهه، وما هي النسب المئوية المشكّلة لمعقد انفعالاته، وهل يليق الدخول بسحنته تلك على مريض على فراش الموت، وهناك انفجرت في وجهه زوجته متهمة باكية:

- هل ارتحت الآن؟ كليتي لا تناسب جسد والدي ولن أتمكن من التبرع بها إليه، ليتك وفرت اعتراضك، عموماً شاء الله أن يفضحك أمامي.

بدا له وكأن زوجته تحدّثه عن قضايا عاشها في حياة سابقة لم تعد مما يسترعي انتباهه، ولم يعد يدرك الآن ما الذي تعنيه، لم يكن يسمع تماماً ما الذي تقوله، لكن تعابير وجهها، ومعرفته بأساليب وطرق محاولاتها السيطرة على الآخر من خلال محاصرته بالتهم والإدانات، كل هذا كان يجعله يفهم ما الذي يحدث، وإن كان لم يعد يعنيه أبداً. أحس برغبة جامحة أن يبصق في وجهها الكلمات التي سمعها منذ قليل، لكنها كانت أكبر من أن تبصق، وإن كان لا بد لها أن تخرج من بوابة شفتيه، فالأحرى بزناد لسانه أن يطلقها إطلاقاً، وهي قبل أن تبلغ أذني زوجته ستستقر في قلب الرجل المسكين الراقد على سرير الموت. لذلك ضغط بكلتا شفتيه وأحجم عن إطلاق كلماته وخرج من الغرفة دون أن ينبس ببنت شفة.

***

دخل طه بيت أبيه لأول مرة منذ خمس عشرة سنة ، وكما توقع تملكه إحساس بأنه كان قد خرج منه منذ ساعات وها هو الآن يعود إليه. لا يستطيع طه أن يتخيل دمشق إلا من خلال هذا البيت، ولا أن يستذكر شيئاً

من مفردات طفولته إلا فيه، هنا في هذا الصالون الفسيح يتذكر والده عندما كان يشرب القهوة ويحرق التبغ في غليونه، كان عمر طه يوم وفاة والده خمس سنوات. ما زال الأب مطبوعاً في ذاكرة ابنه، ما زال يتذكر حتى تشكيلات دخان غليونه عندما كان ينفثه صامتاً شارد الذهن. كان الطفل يتوهم وقتها أن الصمت والشرود من صفات الرجولة، وأن على الرجل أن يكون دائماً صامتاً شارد الذهن ومشغول الفكر. الآن وقد أصبح رجلاً، بات يعلم أن الرجل أيضاً يجب أن يضحك ويتحدث ويتسلى، يجب أن يخالط الآخرين ويمازحهم، بل أن يلهو ويعبث ويتولدن، يجب كل هذه الأشياء الصغيرة والجميلة إذا ما استطاع إليها سبيلاً. في هذا البيت كبر ودخل المدرسة، حيث كانت زوجة أبيه تهيئ له حقيبته، ولا تنسى أن تضع فيها شطيرة الجبنة أو الزيت والزعتر. لقد منحته الكثير مما كانت ستمنحه إياه أمه لو أنها بقيت على قيد الحياة، ومن هذه المنح والعطايا أخوه خالد. لا شك أنها آذته بإدخال رجل غريب إلى البيت، ولكن لعل أخاه خالداً أيضاً يشاطره هذا الشعور رغم كونه ابنها. وحتى ابنتها خولة، فقد أمضى وقتاً طويلاً حتى أدرك أنها ليست أخته. خمس عشرة سنة مرت كانت كافية لأن تغير واقعاً وتستبدل به واقعاً آخر، تغيرت دمشق وتغير ناسها، صحيح أن بيتهم بقي على ما كان عليه، وصحيح أيضاً أنه لدى بابه أحس أنه غادره منذ ساعات، لكنه ما إن أصبح داخله حتى أدرك أنه فيه ضيف عليه أن يلتزم كل آداب الزيارة. فأخوه خالد يطلق صيحات الإنذار ليتخذ ساكنو البيت الإجراءات اللازمة لمواجهة الزائر الغازي، وزوجة أبيه التي كانت من أكثر النساء أناقة، ولا تظهر إلا مرتدية أحدث أزياء دمشق وبيروت وأجملها، تستقبله الآن

محجبة يقفز من وجهها الخالي من المساحيق حاجبان كثيفان فوضويان، أما خولة الصغيرة، فإنها تحييه وهي على مسافة خطوات منه واضعة كفها على صدرها. جلس على الأريكة فاقداً الذاكرة والهوية والانتماء كشجرة اقتلعت من تربتها، أو طائر فقد ريش جناحيه، "ما الذي حصل في هذا البيت؟ وإلى أين يمضي ونمضي معه؟". وعندما دعته زوجة أبيه إلى مائدة العشاء، وأخذ مكانه حولها، تبادر إلى ذهنه أنه قد يكون الشيء الوحيد الذي لم يتغير في هذا البيت هو الأطباق المنوّعة والأصيلة التي اغتنت بها مائدة الطعام، والتي كانت وما تزال غزوة خانم سيدة من أجاد طهوها وترتيبها على السفرة. إلا أن نفوراً غريباً قد استبد به تجاه أطباقها، جعله يحس أنه غير قادر على تناول طعامه. كان طه صامتاً أغلب الوقت لأن الواقع الذي واجهه أخرس لسانه، فلم يعد يعرف ماذا يقول، أما على الطرف الآخر، فقد كان لصمت غزوة خانم سبب آخر تماماً، لا يشبه أبداً سبب صمت طه المنفعل بالحدث، بل كان صمتاً فاعلاً يرسم الحدث كما يريد، كانت كلبوة نصبت كميناً، وهي تنتظر وقوع الفريسة فيه، إنها تنتظر زلة لسان من غريمها تفصح عما في جنانه، وتكشف عما يبيته من نوايا. أما خولة فقد التزمت الصمت وغض البصر، كما يليق بأية فتاة مسلمة ملتزمة أن تفعل، هذا السلوك الذي يشي بأن صاحبته تشعر الآن وكأنها مشروع فريسة، مما يحرك لدى الطرف الآخر كوامن الافتراس. أحس برغبة شديدة في أن يأخذ زمام المبادرة ويغير كل قواعد اللعبة، بل في أن ينسف اللعبة من أصلها، ويتصرف بعفوية وتلقائية كما يليق بابن البيت أن يفعل. أحب أن يفجر هذا الموقف المخيب للآمال، أن يقهقه ويمزح ويتجاذب مع مجالسيه أطراف الحديث وألوان المزاح والنكات،

بل ذهب به خياله بعيداً جداً على دروب الشطط والمروق، فخطر له أن يعلن لمضيفيه أنه يرغب بالصعود إلى الطابق الأعلى حيث توجد غرفة نومه، يريد أن يدخلها، وأن يطل من نافذتها على شارع الجلاء ذي الرصيف المنصف المزدان بأشجار النخيل الموزعة أربعاً أربعاً على طول الرصيف. ذات يوم سأل والده وهما يقفان على النافذة عن سرّ وجود هذه الأشجار على مقربة منهم، فأجابه: على هذه الأشجار تقيم أرواح أهلنا وأحبتنا الراحلين عنا، تغفو على أغصانها كي تبقى على تواصل معنا، لهذا نحن نفتح النوافذ كل صباح كي تدخل أرواحهم إلينا مع أشعة الشمس ونسمات الصباح. تمنى أن يتتبع بنظراته هذا الرصيف الذي ينتهي بساحة أبي العلاء المعري. أبو العلاء الذي قرأ في إحدى صحف باريس، أن رأس تمثاله قد جُزّ من بين كتفيه في بلدته " المعرة " التي استحقت اسمها من جديد. ما أشبهه الآن وهو يُقتلع من ماضيه وذاكرته وبيته برأس أبي العلاء الذي جُزّ من بين كتفيه. تمنى وتمنى أن يفعل أشياء كثيرة أخرى تلوّن زيارته لبيت طفولته، وتمنحها ما تستحق من زخرفة وبهجة، لكنّ كل ما حوله كان يعلن له أن لا حق له بالدخول إلى أعمق من الصالون الذي يجلس فيه، وكل ما كان يواجهه في بيت أبيه كان يعلن له وبقوة أنه أصبح أجنبياً فيه، لا يتمتع بأكثر من حسن الضيافة. نظر إلى أخيه خالد مستجيراً مما هو فيه، فهربت عينا أخيه من نظراته تجنباً لاعتراف مؤلم بأن زمن إغاثة الملهوف قد ولى، وأنه عاجز عن تقديم أية مساعدة، فاستعادت عيناه نظراتهما كيلا يحرج أخاه أكثر فأكثر، وازدرد ذهنه فكرة سديدة لكنها مؤلمة: عليه أن يحترم ما تبقى له من كرامة، ويقتلع نفسه من نفسه وحاضره من ماضيه، أن يودع أحلامه متحف قلبه، وينسحب من

بيته الذي لم يعد بيته. ولكن دون الانسحاب مهمة صعبة للغاية، فاللياقة تفرض عليه أن يتناول أولاً عشاءه.

***

"ما الذي يفعله البروفسور شيث في دمشق"؟

سؤال لم يعد يُطرح فقط في الشارع الدمشقي، أو في وسائل الإعلام المحلية والدولية، ولم يعد مادة للتسلية وتزجية الوقت، بل بدأ يطرح نفسه وبقوة في عواصم القرار في العالم كله، وعلى أعلى المستويات. فقد تجاوز الأمر كونه مغامرة مثيرة، ليأخذ طابع الغزو بكل ما للكلمة من معنى. غزو يقوم به شخص واحد مشطور إلى نصفين؟! كم يبدو الأمر سخيفاً، ولكن في الوقت نفسه، كم يبدو من السطحية بمكان ألا يأخذ الأمر هذا المنحى من الجدية والتفكير. نعم إن ما يحدث في دمشق لم يعد مجرد انتهاك سيادي لسوريا ولدول العالم فقط، بل هو أيضاً تحد واحتقار لكل علوم الأرض وحضارتها، أثبت وبشكل سافر غير قابل للمواربة، أن عالمنا بأكمله قد سقط بالضربة القاضية قبل أن تبدأ المبارزة في مباراة حدد الخصم فيها كل الشروط والقوانين والمواقيت، ثم اضطلع بدور الحكم. ما عاد من الممكن أبداً تجاهل أن إمبراطوريات التجسس والتنصت في العالم، قد وقفت عاجزة عن تعقب شخص واحد وهو يصول ويجول متجولاً بطريقة أو بأخرى في أنحاء مدينة واحدة. وعجزت عن اكتشاف الموقع الذي وجد فيه رفات زميله. وعجزت أيضاً عن معرفة الآلية التي تم بها نقل الرفات. وهل كان الانتقال عبر المكان أم عبر الحالة؟

لو كان الهدف فعلاً من هذه الزيارة هو البحث عن ميثاق، لوجب أن يحزم الزائرون حقائبهم ويعودوا من حيث أتوا. ففيم بقاؤهم ورفات أخيهم قد أصبح في موطنه؟ وعلام يتوعدون بالمزيد من المفاجآت التي لم يطلبها أحد منهم، وما استشاروا هم أحداً في الإعلان عنها، وقد بلغ من استخفافهم بكل أهل الأرض أنهم لم يكلفوا أنفسهم عناء تقديم أية مبررات لما يقومون به، ولا إعطاء أي جدول زمني لنشاطاتهم التي أصبحت مشبوهة في أعين الجميع. وأكثر من ذلك فما الدليل حتى الآن على وجود ميثاق أصلاً، فهم لم يُظهروا جثته أمام الإعلام المرئي، بل اكتفوا بالإعلان عن العثور عليه، ونقل رفاته إلى الكون الزمني، وكأن كون المسافة ملزم بتصديق كل ما يقولون. وماذا لو كان في مفاجأتهم التي يتوعدون بها ما يمثل خطراً على عالم المسافة؟ ألا يجدر بهم أخذ الموافقة أولاً على ذلك؟

تداعى زعماء الدول العظمى إلى اجتماع طارئ في لندن لبحث الإمكانيات المتاحة للمواجهة، وإن كانوا قد اختلقوا أسباباً أخرى لاجتماعهم. اجتماع طارئ لا معطيات لديه، ولا أوراق ضغط، ولا وسائل ردع. لذلك فإن المؤتمرين لم يواجهوا إلا ضعفهم وعجزهم عن اتخاذ أي موقف، بعد أن وقفوا وجهاً لوجه أمام جهلهم للحجم الحقيقي للوجود الزمني على الأرض، وحجم التواصل بينه وبين كونه، وحجم وأبعاد الرد المحتمل جراء أية إساءة تلحق بالمندوب الزمني إلى كون المسافة، هذا إن كانت الإساءة ممكنة أصلاً. وفوق هذا كله فهم يعلمون جيداً أن سوريا التي ماتزال تتحسس على جسدها ندوب حرب عالمية دارت رحاها على أرضها منذ فترة قريبة، لن تبادر بأية حال من الأحوال إلى ما يمكن أن يؤدي إلى استضافة حرب

عوالمية على جغرافيتها. والأهم من هذا فإن أية حرب يمكن لخيال أن يرسم ملامحها، لن تعترف أبداً بمصطلح الجغرافيا، وستكون حرباً لا أثر فيها لما يسمى بالتكافؤ. حرباً بين طرف يعرف عن الآخر أكثر مما يعرف الآخر عن نفسه، وطرف لا يعرف عن الآخر شيئاً، بل لا يعرف من هو الآخر، وهل هو موجود فعلاً أم لا. هل يتورطون ويطلبون إليهم صراحة الرحيل؟ ولكن إن حصل هذا وتم تجاهل الطلب أو رفضه، فإن ذلك سيكون بمثابة إعلان مباشر لنية الاحتلال. لذلك فإن الأدعى لحفظ ماء الوجه التريث قليلاً، وانتظار ما سيبدر منهم حين يقررون هم إعلان ما يريدون.

هكذا فرض على كون المسافة أن يلعب دور المنفعل تماماً في غمرة الأحداث، يكتفي بأن يشخص إلى ما يحدث ثم يتلمس تأثير الحدث عليه. لكأنما كتب على هذا الكون كلما ظن أنه امتلك زمام أمره، أو كاد أن يفعل، أن يعاود من جديد الإذعان لنير عبودية كانت وستبقى سمة من سمات وجوده، يكره خضوعه لها ولا يملك لنفسه عنها انفكاكاً، إلا بعضاً من عبارات بلاغية طنانة، كان لها على الدوام مفعول الأفيون في حياته.

***

النخبة المجتمعية المشكلة لنادي "سلطان العارفين" التي حامت حول السيدة وسيلة كما يحوم الفراش حول السراج، والتي كانت هذه السيدة نبراسها وملهمتها وملهبة مشاعرها، هذه النخبة التي تشكل وجدانها، ونمت وتطورت عواطفها على مائدة فكر تلك السيدة، ما كان من تلك العواطف فردياً أو وطنياً أو حتى ما كان منها يعرج متماهياً مع حدود الملكوت

الأعلى، هذه النخبة بدأت تشعر بالقلق والحرج بسبب التدهور العقلي الذي بدأ يصيب السيدة وسيلة في الفترة الأخيرة، والذي لم يكن يخطئه مراقب، البعض عزا ذلك إلى تقدمها في السن، أما البعض الآخر المناهض لأفكارها، فكان يصر أن منهجها الفكري هو ما أوصلها إلى ما وصلت إليه، ودليلهم على ذلك أن قناعاتها وشغفها الصوفيين كانا المادة الأولية لهوسها الجديد. فبعد أن بلغت من العمر عتياً، أخذت تلح عليها أعراض الشباب الآفل، وبدأ يسكنها وهم أنها أيقونة للحب والهيام، حتى أنها اقتنعت بأن روح زوجة سلطان العارفين الشيخ محيي الدين بن عربي "النظام بنت أبي شجاع" قد حلّت بها، وأن كل قصائد الشيخ وعواطفه في كتابه "ترجمان الأشواق" موجهة إليها، وأن صورتها كانت في أفق روحه وخياله عندما رتّل:

"أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه فالحب ديني وإيماني".

في البداية بدأت هذه الأعراض تظهر عليها على شكل أحلام يقظة تستبد بها وإن كانت وسط مجالسيها، فكانت تظهر على وجهها ملامح وأمارات من هو يغزو في مكان آخر، ذات مرة تدخل نجم الدين مقاطعاً حلمها بسؤال مازح:

- أين صرنا؟

انتبهت، وابتسمت قائلة:

- لو أعادت لنا الحياة خيوط الأحلام التي نسلتها من جفوننا لنسجنا منها وشاحاً يليق بوجه القمر.

ثم بدأت تلك الحالة تراودها على سويات أعمق من أحلام اليقظة، تتماهى فيها الحدود بين الوهم والحقيقة. فكانت في مجالسها وبين مجالسيها، وبينما هي تغوص في عزّ أفكارها، إذا بها تتسرب من جسدها عبر رمشيها الساهمين، مخلّفة وجهها الذي غادرته مجللاً بابتسامة تكثفت فيها حلاوة ما عرجت معه إلى ما وراء وراء المجرات. وكانت في حالتها هذه لا تسمع أحاديث من حولها، ولا تشعر بالمنبهات التي تتعرض لها، فكأنما هي جسد فارقته الحياة، وإن كانت قد أبقت على وجهه ابتسامة من نوع غريب. حتى إذا ما عادت إلى مجالسيها، همست بغنج من دللته الحقيقة، وأسبغ عليه الوجود عنايته: "كنت معه". ماضيها السياسي والثقافي والاجتماعي لم يمنحها حصانة لدى مقدمي البرامج الاستهلاكية في محطات التلفزيون الخاصة، فكانوا يتنافسون على استضافتها، وتحريضها على الإيغال في هوسها بغية تقديم مادة مثيرة للمشاهدين، لدرجة أن أحد مقدمي هذه البرامج كان يخاطبها بقوله: "يا بنة أبي شجاع" في محاولاته لجعلها تتمادى في شطحاتها أكثر فأكثر. وقد دافع عن موقفه عندما كان ضيفاً على قناة أخرى بقوله:

– آن لنا أن نتعلم من تجاربنا، خُلُقنا ودماثتنا تجعلنا نتسامح مع شطط الآخرين بداعي أن كلاً منا حر فيما يعتنقه، ولكننا نفاجأ بعد مدة بأن الآخرين يريدون أن يفرضوا علينا قناعاتهم وبالقوة أحياناً، ولنا في تجربتنا الدامية عبر السنين الماضية دليل صارخ على ما أقول.

– هل تريد أن تقنعنا أنك تخاف أن تفرض عليك السيدة وسيلة هوسها وبالقوة أيضاً عن طريق فرق ميليشياوية قد تنظمها؟

– لا، لا أخاف هذا، ولكني أخاف أن تستفيق دمشق بعد مئة عام أو مئتين على مقام آخر يطل عليها من قاسيون، لا أريد لمستقبلنا أن يكون مكب نفايات لحاضرنا.

أشد من ولع السيدة وسيلة العشقي هذا كان إلحاح حلم الإنجاب عليها، الحلم الذي عجزت عن تحقيقه رغم زيجاتها الخمس. إنجاب؟ وهي التي قاربت التسعين من عمرها! لم لا؟ ألم تكن المعجزات والكرامات مادة حياتها وغذاء عقلها وروحها على مدار سني عمرها الطويل؟ ألم تكن الخوارق على الدوام هي الدليل الوحيد على عظمة الله وقدرته، وكأن الكون الهائل بنواميسه الأزلية المتسقة، وقوانينه الصارمة المحكمة، لا يدل إلا على عجز الله وضعفه؟! فما المانع أن يثبت الله قدرته الآن من خلالها؟ وما الغريب وقد بلغت هذا الشأو من الكرامة أن تلمسها كف العناية الإلهية و تسبغ عليها معجزة ما؟ سيما وأن الله منذ مدة قد بدأ يوجه إليها رسائله الخفية، عبر تواصل من نوع ما بدأ يحدث مؤخراً بينها وبين "جبريل"، هذا ما كانت تؤكده في كل لقاءاتها التلفزيونية ومجالسها الخاصة، وعندما كان يعترض أحد ما على شططها هذا، ويتهمها بادعاء مقام النبوة، كانت تطرحه أرضاً بردها الصاعق:

– أما تواصل جبريل مع حبيبي، وأوحى إليه مقدمة كتابه "الفتوحات المكية"؟.

إضافة إلى كل هذا، فإن أحد ملامح التدهور العقلي الذي ألم بالسيدة وسيلة، كان انغماسها حتى أذنيها في خلاف بدأ ولم يعد يعرف كيف ينتهي

مع راقصة تشاركها البناء نفسه، وتقطن في الشقة التي تعلو شقتها مباشرة واسمها "مفاتن". وقد دخلت على خط الخلاف هذا البرامج ذاتها، والتي استمرأت من جديد لعبة استضافتها وتحريضها على الهجوم على الراقصة وشتمها، لترد لها الأخيرة التحية بأحسن منها في الحلقات التالية للبرامج ذاتها في لعبة كر وفر تبدأ ولا تنتهي. كل ما يمكن حصره من خلافات الجارات كان موجوداً في هذا الملف، بدءاً من طقطقة كعب حذاء الراقصة فوق غرفة نوم السيدة وسيلة، إلى سيلان الماء من أصص الزهور في شرفة الراقصة على شرفتها، وانتهاء بتبادل التهم حول السلوك الأخلاقي لكل منهما. وعبثاً حاول أصدقاؤها ومحبوها إقناعها أن هذه المهاترات تسيء إليها، وترفع من شأن غريمتها التي لا ينبغي أن تكون غريمتها بأي شكل من الأشكال، فكان يبدو عليها الاقتناع بذلك، ولكن أول فرصة لها لكيل الشتائم للراقصة تنسيها كل ما اقتنعت به، وتزين لها أن هذه فرصتها التي ستجعل كل الناس يعلمون من هي هذه الراقصة، وبالتالي لن تقوم لها بعد اليوم قائمة.

***

لا يهدر الفريق الزمني وقته أبداً، فبأسرع مما توقع المترقبون لمفاجآته، أعلن وهو العارف بمسالك الزمن وممراته، والقادر على التجول فيه جيئة وذهاباً، أنه تمكن من تصوير أفلام وثائقية لأحداث مرّت على كون المسافة في ماضيات الأيام، وأنه سيقدم فيما يلي لقطات مصورة تظهر الساعة الأخيرة في حياة السيد المسيح!.

فغر العالم بأجمعه فاه وهو ينظر إلى الرجل الأسمر ذي الشعر الخشن

والقسمات الفلسطينية الصارمة. لا ليس هذا هو الرجل الذي ظهر في لوحة العشاء الأخير لدافنشي وسائر لوحات رسامي عصر النهضة في أوروبا. أجل لم يكن يسوع الناصري بشعر أشقر مسترسل على كتفيه، ولم تكن له ملامح وجه دقيقة وابتسامة عذبة، ولم يكن بموقفه العصيب ذاك يغمر العالم بنظرات الحنان والفداء، بل كان يشخص إلى خشبات صليبه زائغ البصر واجف القلب خاضعاً لشرطه البشري غير آبه بكل ما نسجته خيالاتنا وما زينته أوهامنا. وبدت في الفيلم السيدة العذراء ضئيلة الجسم سمراء البشرة، تبدو على محياها أمارات الطيبة والورع إلى جوار سمات الجهد والشقاء، تقدم بها العمر فاستفحل الشيب في خصلات شعرها، وتعرجت خطوط الزمن على مساحة وجهها، كانت تئن أنيناً خافتاً تجهد أن تجعله لا يبلغ مسامع ابنها مرتمية بين ذراعي مريم المجدلية. وعندما أمسك رجلان غليظان بذراعي السيد المسيح، وفتحاهما صوب خشبات الصليب، انتهى العرض، فكأنما الكاميرا قد استحيت من متابعة التصوير.

مراجع كنسية كبرى في العالم أبلغت الفريق الزمني وعبر أقنية مختلفة بضرورة الابتعاد عن المناطق الخطرة تلك، وعدم التمادي في عرض وقائع دفع العالم ثمنها ملايين الأرواح عبر مئات السنين. ولكن مواقع التواصل الاجتماعي زخرت بطوفان من الآراء المطالبة بالمزيد من تلك الأفلام، والتركيز فيها على المجالس التي كان السيد المسيح يلقي فيها تعاليمه على تلامذته. وانتشرت بشكل واسع النطاق هاشتاغات تقول:

"من حق يسوع أن يعلن تعاليمه".

"دعوه يقل ما لديه".

"الكنيسة في مواجهة يسوع"

كما غصت شوارع نيويورك وروما وباريس ولندن وموسكو بمظاهرات ضخمة تندد بالمراجع الكنسية التي تريد طمس الحقائق، وممارسة سياسة كم الأفواه على المسيح ذاته. وعلى الطرف الآخر، غصت شوارع طهران وقندهار وكابول بمظاهرات استباقية حاشدة، متوعدة بالويل والثبور وعظائم الأمور، إن تجرأ زنادقة الزمن على الاقتراب من النبي محمد أو بث أية صورة له. واشتعلت مواقع التواصل بهاشتاغ يقول:

"إلا حبيب الله"

فعلى المقلب الإسلامي كان الناس ومرجعيات طوائفهم متفقين تماماً أن لا حق لمحمد بالظهور بعد ألف وأربعمائة من السنين، ليثير الاضطراب والخلل في طوائف تبدو لأتباعها قد بلغت حد الكمال. ولكن وكما في كل الأمور الحياتية، لا ينتظم كل الناس في جوقة واحدة وإن انتظم معظمهم فيها. لذلك فقد شهدت دمشق وبيروت والقاهرة مظاهرات تندد بالمرجعيات الإسلامية، وتطالب بتسليط الضوء على مجالس الرسول، وبث خطب الجمعة التي كان يلقيها على مسامع المسلمين في مسجده، والتي اختفت بقدرة قادر لمصلحة أحاديث زعم بعضهم أن الرسول قد همسها في أذنه. وقد تداعى شباب من مختلف دول العالم على الفيسبوك إلى تحديد موعد تتم فيه محاصرة كل مراكز المرجعيات الدينية الفاعلة في العالم إلى أن تفك حصارها عن الأفلام المرتقبة، وتفسح المجال لحقائق التاريخ أن تجلو نفسها،

بعد أن طال طمسها لمصلحة زيف الأديان وادعاءاتها.

وعلى جاري عادته لم يعلق المكتب الإعلامي لفريق الزمن على كل هذه الهزات الارتدادية التي خلفها زلزاله، ولم يكن أحد ليعلم، هل سيواصل بث أفلامه الوثائقية تلك أم لا.

الهزات الارتدادية التي ظهرت هنا وهناك، وفي كل أرجاء الأرض، لم تكن إلا الجزء الظاهر من جبل الجليد الارتدادي، فدائماً وأبداً ما خفي هو الأعظم والأكثر تأثيراً والأبقى عمراً، كانت ردود الفعل الحقيقية تتراكم وتتفاعل في مراجل الانتماءات العتيقة أحقاداً وضغائن تتحفز براكينها للانفجار، لا يلجمها إلا عجزها، العجز الذي أفصح عنه من غير أن يفصح اجتماع لندن. على كل المستويات كانت تتحضر وتتشكل ردود الفعل، ووفق كل الانتماءات والتشرذمات والأهواء والمشارب، على صعيد الأفراد والتجمعات والدول والشعوب . حتى غدا الكون المكاني بحق كون ردة الفعل. ومرآة هذا الكون العاكسة، أو مكب نفاياته هي صفحات الإنترنت، لذلك فقد ظهرت وانتشرت مواقع لا حصر لها على تلك الصفحات، تعتاش على مائدة الحدث الزمني، والكثير الكثير منها كان مجهول الهوية والانتماء. وكانت محاولة استجلاء انتمائها من محتوى نشاطها ومضمونه عبثاً لا طائل منه، بعد أن استمرأت تلك المواقع لعبة الإيحاء بانتماء مزيف لها. واستفادت بعض الجهات الرسمية وشبه الرسمية من تلك اللعبة بأن طرحت مواقع لها، مارست من خلالها ما تريد أن تمارسه وبمنتهى الوضوح مدعية أن هناك من ينتحل شخصيتها. وهكذا بدأت مواقع أعلنت أنها تمثل – رغم

نفي الجهات المعنية ذلك - حاضرة الفاتيكان، والأزهر الشريف، والنجف الأشرف، ومرجعيات دينية أخرى، ترشق الفريق الزمني حيناً، وتتراشق ما بينها أحياناً أخرى. لقد أسقط الحدث الاستثنائي هذا كل ما كانت تلك المرجعيات تروّجه عن نفسها من فضائل، وعلى رأسها قبول الآخر، وسمات التسامح والتراحم، فكشف المستور لديها، وجردها من أقنعتها، فأسفرت عن وجهها الحقيقي الذي تلخصه فلسفة موحدة فيما بينها، وهي أن الآخرين جميعاً إلى جهنم سائرون. هذه الحقيقة التي انتظمت كل الأديان، والتي يعرفها القاصي والداني، كأنما كان هناك تفاهم ضمني بين المرجعيات الدينية يقضي بأن تُطمس، وأن يتصرف الجميع وكأنهم غير واعين لها، والآن قد سقط هذا التفاهم. وأخطر مما انكشف من سعار المرجعيات الدينية تجاه بعضها بعضاً، كان ما بات واضحاً للجميع بأنه مطالب ملحة وشرسة من المرجعيات الدينية بكل أطيافها، إلى القوى السياسية ، تطالبها فيها وبإلحاح أن تفي بالتزاماتها نحوها، وتعمل على حمايتها كرد لدَين مستحق الوفاء، كانت تقدمه دائماً الأديان لتلك القوى، ولكن كان في اجتماع لندن ما يثبت تماماً أن السياسة اليوم عاجزة عن رد الدَين للدين، وأنها تقف في ميدان المعركة خالية الوفاض، ممسوخة القوى، ترساناتها النووية عديمة الجدوى، وكل ترتيباتها وتصنيفاتها وموازين قواها في مهب ريح الزمن.

ووسط ضجيج هذا السجال الإعلامي والعقائدي والسياسي شديد التعقيد والتركيب، لقيط الانتماء، فجّر الموقع الذي أعلن أنه يمثل الحرم المكّي قنبلته المدوية: "بطن راحيل آخذ بالانتفاخ". ولعلها المرّة الأولى في التاريخ التي يصدر فيها عن كل مرجعيات الدين في الدنيا موقف موحّد.

***

حبس العالم أنفاسه بانتظار الفيلم الوثائقي الذي أعلن عنه الفريق الزمني، تساؤلات لا حصر لها كانت تدور في كل المحافل. هل سيرضخ الزمنيان لمشيئة المرجعيات الدينية فيبتعدان عن المناطق الخطرة؟ أم سيعلنان التحدي ويمضيان قدماً في الخط الذي بدأاه في فيلم السيد المسيح؟.

تداعى أعضاء نادي "مرصد قاسيون" إلى الاجتماع في شقة المهندس طارق، ليتابعوا سوية أحداث الفيلم الوثائقي المعلن عنه، وكل منهم يأمل بفيلم يثبت صحة منظومته الفكرية، ويدحض ما سواها من أفكار. فحتى وهم في مواجهة أكثر حالات الواقعية والعلم حضوراً وسطوعاً، فإن أفيون المعجزات الذي رضعته عقولهم مذ كانت في طور نشأتها الأولى كان ساري المفعول دوماً، وكان انتظار وهم المعجزة التي هي قاب حلم أو أدنى من التشكل أكثر أشكال النشاطات التي يمارسونها في حياتهم بدءاً من ورقة اليانصيب، إلى مصباح علاء الدين، إلى المثول في حضرة ليلة القدر. لكن الفيلم المرتقب تجاوز كل حدود التوقعات:

أرسلت الشمس شراراتها الأخيرة، ثم انحدرت خلف التلال البعيدة تاركة الكون وراءها غارقاً في حالة من التفجع الأخرس. وغشا الفضاء غبش المغيب، غبش خريفي كئيب مشبع بصمت قاتل، يلج النفوس ويقبع في زواياها، ثم يتعملق ويتعملق حتى يسد على الروح منافذ الهواء، ويكتم أنفاسها، ثم ينسحب عاوياً مرسلاً عبر السكون نشيجاً ممضاً. لم يكن ذاك المساء مساءً عادياً، تشهد على ذلك سحب الخريف الرمادية، ورياح السموم،

وأسافين دّقّت في كيان تلك الأسرة، فخلقت فيه شروخاً لن يبرأ منها.

ستة أشخاص اجتمعوا ذاك المساء، ترقبهم عظمة الأرض وجبروت السماء، ويتربص بهم مصير محتوم: آدم الهادئ الصامت المتأمل، وحواء المرهفة المترقبة، وقابيل ذو القامة الهائلة والعضلات المفتولة، وساهير المهزوزة المترددة، وسارة المسكونة بالشيطان، والشاعر المنفي في محيطه ووسطه البعيد القريب عن كل ما يجري حوله . . . هابيل.

وعندما أحكم الليل فرش ملاءته على الكون، وبدأ القمر يظهر تارة ويحتجب أخرى عبر السحب الخريفية، قال هابيل بأسلوبه الشاعري وكأنه المخمور:

- فليسجل الزمن، أنه في ليلة خريفية ملفعة بالشرود، يكتنفها الغموض ويتحفز فيها المجهول للإعلان عن نفسه، في هذه الليلة المشهودة، تقدم الشاب هابيل لخطبة الحسناء سارة، وهو ينصت الآن ليتلقى من والديه مباركة هذا الزواج.

قالت حواء وقد داهمتها سعادة مباغتة:

- أحقاً ما أسمعه يا سارة؟!

وانفجرت سارة غاضبة:

- كفّ عن هذا الهذر يا هابيل.

ثم وهي تلتفت إلى أمها:

- كم أكره سماجته يا أمي.

سقطت كلمات سارة دوياً على مسامع الساهرين على ضفاف النهر، وقالت حواء بلهجة تنطوي على أكثر من شعور:

- ألم تتبادلا الحديث في هذا الموضوع يا هابيل؟

كانت الدهشة في عينيه تقسم: "أن بلى"، ولم يخطئ ما تريد أن تقوله عيناه أحد من حوله، فانبرت سارة قائلة:

- ظننته يمزح بادئ الأمر فجاريته قليلاً، حسبته يسخر من نفسه إذ يطلب الزواج بي فسخرت منه أيضاً. ولكنه الآن يعلن عن رغبته وبمنتهى الجدية. هل فقدت بصرك أم أضعت بصيرتك يا هابيل؟ أيُعقل أن يقترن حسني بضعفك وهزالك، أنت يا من نخشى عليه أن تهشمه رياح الخريف كما تهشم أوراق الأشجار الصفراء.

صرخت حواء بحدة:

- كفى أيتها المجنونة.

- بل ما زال لديّ ما أقوله يا أمي، سأترك هذا المعتوه لساهير، أما أنا فقد اخترت قابيل وحقّ لمثلي أن تختار.

وهيمن على الجمع صوت آدم الذي طال انحباسه:

- صمتاً أيها الأشقياء، سننظر في الأمر فيما بعد.

ثم نهض فانسحب من المجلس، فتبعته حواء، وبدون أن تنظر ساهير

إن كان أحد يراقب حركاتها أم لا، ذهبت إلى حيث اعتادت أن تنام، لترمم هناك بعض ما انصدع في كيانها، أما سارة فقد مضت تتمشى على ضفة النهر وهي موقنة أن قابيل سيتبعها لا محالة، وظل هابيل يشخص بوجهه نحو وجه القمر، يضيء القمر مساحة عينيه ويبدو لها مكفهراً كالحاً.

أحست سارة بوقع أقدام قابيل خلفها، فالتفتت إليه وهي ترتجف من السعادة:

- ما رأيك يا قابيل؟

- لم أفهم شيئاً مما حدث، أي ذنب أتاه هابيل فاستحق عليه هذا العقاب؟

صدمتها تلك الحقيقة المباغتة فقالت وقد انكمش خيلاؤها قليلاً:

- أردت أن أغيظ ساهير. لقد أعلنت أنت وهابيل لي عن رغبتكما بالزواج مني، وأنا أراكما متكافئين، فلو اخترت أحدكما وتركت لها الآخر لخرجت وإياها من الصفقة متعادلتين، فرأيت ان أختار أحدكما بعد أن أحطم لها الآخر.

- أي كان من الممكن أن أكون أنا الآن في موقف هابيل؟

- كفى يا قابيل، لا شأن لك بتصرفاتي.

وكحالة نادرة الحدوث أحست سارة بوطأة تأنيب الضمير. وأحست أن حلقها يريد أن ينفجر، وأدرك قابيل الذي كان يقف صامتاً أن سارة التي توليه ظهرها تبكي. هاله بكاؤها فمضى يمسح دموعها مهدئاً من روعها:

- ليذهب هابيل وساهير إلى الجحيم، إنهما لا يستحقان دمعة واحدة من دموعك، صدقيني يا سارة أنني لم أكن جاداً فيما أقول.

ألقت برأسها إلى صدره محاولة الكفّ عن البكاء، فتصعّد البكاء من أعماقها شهقات متقطعة، أخذت طريقها شيئاً فشيئاً إلى التلاشي، بينما كان قابيل يرفع عن جبينها خصلات شعرها المبللة بالدموع، ورفعت عينيها إلى عينيه وأصابعه ما زالت تسرح في شعرها وقالت:

- قابيل ها قد ألقيت أمامك الآن كل أقنعتي، وظهرت أمامك بقوتي وضعفي، بخيري وشري، فهل تحبني بحقيقتي تلك يا قابيل؟

- أيخالجك الشك بحبي يا سارة؟ تأكدي أنني أحبك بأقصى قوتي، وبأكثر بكثير مما أستطيع التعبير.

- أتقسم على ذلك يا قابيل؟

- أقسم أيتها الفاتنة.

وعندما ابتعدت سارة قليلاً، وجلست وأمارات الرضى والاطمئنان بادية على وجهها، همس قابيل لنفسه:

- "ما أسرع ما يستريح ضميرك يا سارة!"

***

"آدم وحواء في فيلم وثائقي مصوّر"!!!

أي تعليق على الحدث يُنقص من قيمة الحدث. "آدم وحواء" يشاهدهما

الناس على الشاشات الملوّنة، كما يشاهدون أي رئيس دولة مع السيدة عقيلته في نشرة إخبارية! هل هو الجنون بعينه، أم استرداد العقل بعينه؟ إن كان هو استرداد العقل، فكم يعني هذا أن الناس قد أمعنوا في أخذ عقولهم فيما مضى على دروب الجنون، كل مسلّمة فرضوها على عقولهم في عالم لا يخضع لمسلّماتهم كانت كفراً صراحاً. كل استخدام لعقولهم، وقسر لها على تبني آراء وأفكار ومواقف لا تنسجم مع تلك العقول كان جرماً بحق العقل البشري المطلق، جرماً يستحق العقاب، وكان البشر يعاقَبون وهم لا يشعرون.

على مساحة العالم بأجمعه لم يستطع اثنان أن يتبادلا تعليقاً حول ما شاهداه، لم يناقش فيما رأى زوج زوجته، ولا أخ أخاه، ولا صديق صديقه. وحدها الدهشة كانت المهيمنة والمسيطرة والباسطة سلطانها. كم بدت عبارات من نوع "أبعد من حدود خيالكم"، أو "إن أدهشكم حقاً فيلم السيد المسيح فابتلعوا دهشتكم، فأنتم على موعد مع الدهشة الكبرى"، إلى آخر ما هنالك من تلك العبارات التي مهدت للفيلم على موقع الفريق الزمني، كم بدت تلك العبارات مقصرة في التمهيد له، وقاصرة عن تهيئة العالم لتلقيه. حتى مواقع المرجعيات الدينية الكبرى في العالم، سواء أكانت مواقع حقيقية، أم مواقع مفبركة، حتى تلك المواقع آثرت الصمت، وكل منها ينتظر الآخر أن يتورط في التعليق أولاً. كان هذا هو الوضع عقب عرض الشريط المصوّر مباشرة، أما ما حدث صباح اليوم التالي فكان مختلفاً تماماً، لقد تنافست إمبراطوريات الإعلام في العالم على الارتقاء إلى مستوى الحدث، ما كان منها مقروءاً أو مسموعاً أو مرئياً، وضجّت مواقع التواصل الاجتماعي في التعليق، والاستسلام لمرامي الدهشة الكبرى. ووحدها مرجعيات الدين

بقيت على صمتها المطبق، وكأنها من عالم آخر. وعلّق زين العابدين في مرصد قاسيون قائلاً:

- كم بدت تلك المرجعيات مسوخاً فكرية لا تمسّها الدهشة، وهي ترى آدم وحواء يعيشان ملء السمع والبصر بين ظهراني هذا الزمن، كل ما يهمها أن لا شيء مما عُرض يدحض شيئاً من روايتها عنهما.

عقّب جورج شماس بقوله:

- بل إن ما يخشونه حقيقة أن يُعرض فيما بعد، ويشاهده الناس كل الناس، مما يناقض روايتهم عنهما، أو ما ينسفها من أساسها.

قال رياض:

- بكل الأحوال، لم يرتق هذا الحدث، بل لم يقارن لدى كل المرجعيات الدينية في العالم بأي شكل من الأشكال مع بطن راحيل المنتفخ.

وعلقت لمياء:

- لقد ألمح البروفسور شيث في مؤتمره الصحفي - وإن كان عن طريق التساؤل وليس بشكل صريح - إلى أن آدم لم ينجب إناثاً، فمن أين أتت ساهير وسارة؟

***

تثاقلت أجفان الليل في خمارة جورية وما زال الساهرون متمسكين بأذيال سهرتهم، حريصين على استمرارها، فالنعاس في صالون إياد الطيان ضيف

بغيض، تلفظه ملامح الوجوه، وتنكره عقارب الساعات. لكأن السهر يشحنهم بوهم بائس بأنهم يعاقرون الحياة، الحياة التي أعطت السوريين دروساً بأنيابها مدّخرة لسانها لتمده لهم بعد كل امتحان. أحس إياد أن رياضاً يوشك أن يخرج على إجماع الساهرين، ويعترف بنعاسه، فرأى أن يزجّ به في دائرة جدال عقيم يبتدئ ولكنه لا ينتهي:

– كفى تثاؤباً يا رياض، فلسنا ممن يذعنون لعدوى التثاؤب، لقد تركنا الإذعان لمن يتفاخر بعبوديته من أمثالك، أما نحن فالإذعان مفردة لا تعرفها قواميسنا.

عقّب أسامة ساخراً:

– لا يتفاخرون بالعبودية فحسب، بل يحدثونك عن عزة العبودية لله.

قال رياض:

– حمقى جاهلون، تتوهمون أن إلحادكم يلغي عبوديتكم؟ قد يحرركم إلحادكم من التزامات الدين كالصلاة والصيام وما إلى هنالك من التزامات أخرى، ولكن هل يجعلكم تأتون إلى هذه الحياة بقراركم؟ هل يتيح لكم أن ترحلوا عنها بمشيئتكم؟ هل تتحكمون بأي تفصيل من تفاصيل حياتكم؟ إن لم تكن هذه عبودية فما عساها أن تكون؟

قال إياد:

– تتحكم بنا صُدف الحياة نعم، ولكننا لسنا عبيداً.

– هذا هو ما نسميه عزة العبودية لله، أليس من العزة أن تكون عبداً لجهة

عاقلة عادلة رحيمة مقارنة بالعبودية لصدف عشواء رعناء متحكمة؟

قال أسامة:

- أنتم من افترض أن الله جهة عاقلة عادلة رحيمة، هناك أطياف أخرى من البشر لا تراه هكذا، بل هناك من يرى أنه غير موجود البتة.

قال رياض:

- هب هذا صحيحاً، على الأقل حاولنا أن نفلسف عبوديتنا بنفي الظلم عن معبودنا، وجعله يلزم نفسه بإنصافنا لأننا لسنا ممن يستمتع بتذوق الذل وقبول المهانة، أما أنتم من أذعن لعشوائية الصدفة متلذذاً بخضوعه لها وباستعبادها إياه، ممارساً مازوخيته ومتهماً بها الآخرين.

أكّد إياد:

- المهم الآن أن تكف عن تثاؤبك، فما زالت جلستنا في بدايتها، سيما وأننا لن نستطيع الالتقاء قريباً بسبب العاصفة الثلجية التي يعدوننا بها.

قال حسام وهو يستلقي على شواطئ الثمالة:

- وهل ستحول العاصفة الثلجية دون لقائنا؟!

أجابه إياد:

- في كل المواقف المشابهة تتبجحون بمثل هذه الكلمات ثم لا تأتون.

قال زاهر:

- من لن يأتي فهو مذعن لعبودية العاصفة.

قال أسامة:

– هكذا نضمن مجيء رياض، فالعاصفة ليست جهة عاقلة عادلة رحيمة.

وختم بقهقهته التي تخرج من حجابه الحاجز.

قال حسام:

– المجيء إلى هنا ليس مدعاة لكل هذا التبجح، إن كنتم أحراراً حقاً تقبلون بعرضي عليكم.

تساءل إياد:

– وما هو؟

– أن نقضي فترة العاصفة الثلجية كلها في الفيللا التي أملكها في جبال بلودان.

صمت الجميع وقد تلألأت على وجوههم ابتسامة تشي بقبول متوجّس فأردف حسام:

– لدي الكثير من الحطب والمؤونة، ولدي ما يفوق توقعاتكم من النبيذ المعتق، ستكون إقامتنا هناك فرصة رائعة للانقطاع عن الناس جميعاً، وممارسة التحدي المطلق، وتحقيق "جمهوريتنا" المنشودة. هيه . . ماذا قلتم؟ تحتاج الحياة أحياناً قرارات مجنونة تعجز عن اتخاذها عقولنا، هلّا أخذتم إجازة من عقولكم، أو أعطيتم عقولكم إجازة؟.

في الواقع كان حسام في أمس الحاجة إلى ظرف انعتاقي كهذا، للهروب

من واقعه الصادم على جاري عادتهم في هذا النادي. وكان أسامة كعادته المبادر الأول في قبول العرض:

– فكرة رائعة، منذ زمن طويل لم نفعل شيئاً استثنائياً كهذا، أنا بأمس الحاجة لأن أقول "واو" أه أه أه.

قال رياض:

– إنه الجنون بعينه، لا أصدّق أنكم جادون بذلك.

انضم إياد إلى جوقة الموافقين على العرض:

– بل جادون جداً، فعلاً نحن بحاجة ماسة إلى خروج عن المألوف.

قال رياض:

– فعلاً الجنون خروج عن المألوف.

قال حسام:

– يا سيدي نسينا أنك عبد لجهة عاقلة، ابق أنت عاقلاً، ودعنا نحن نمارس عبوديتنا للجنون.

نهض أسامة من مقعده ومع خطواته الراقصة المعهودة بدأ يغني:

– "قالوا عـني مجـــنونة قد ما بحـبك يا عيوني"

وانضم إليه رهط الثملين:

– "يا ريت كل المجانين جنونن عا شكل جنوني".

***

عادت تلك الأمسيات المسحورة من جديد، تلك الأمسيات التي تعانق ما بين نهايات الربيع ومطالع الصيف. وعادت الأسرة من جديد إلى السهر على شاطئ الغدير. كان النهر كدأبه في تلك الأيام من السنة رقراقاً شهياً، وأشجار الصفصاف على الضفتين تتزاحم وتتراقص مختالة بحلتها القشيبة، وكأنها في حفيفها وهمسها تتبادل أسرار هذا الكون الرحيب. أما البدر فكان يطارد في كبد السماء بقايا من غيوم متناثرة، مشيعاً على الوديان والهضاب ضياءه الخافت الفضي، كاشفاً في تلك اللوحة المسائية الخلابة شخوص هذه الحياة، وقد لفهم صمت عميق، تهتف من ثناياه ألسنة وألسن، وكأنها تشدو على وتر السكون أناشيد هابيل الخالدة.

إلى جذع صفصافة وارفة استندت فاتنة الزمان سارة، تعبث بخصلات شعرها الفاحم، تتأمل شقيقتها ساهير التي تزوجت وإياها في يوم واحد، كيف بدأ بطنها يكبر ويتكور جاذبة بذلك انتباه واهتمام أفراد العائلة. همست لنفسها:

– "دائماً كعادتها تنال في النهاية كل شيء رغم كوني أنا التي تختار، لقد فازت بهابيل اللطيف الودود، وها هي على وشك الإنجاب منه، واخترت أنا قابيل الجلف المحدود، لأعاني معه صقيع العقم والحرمان".

بالقرب من سارة كان قابيل يتمدد على المرج الأخضر، يتمطى بين حين وحين فيبدو جسده ذو العضلات القوية كجسد حصان جموح، ومن حين إلى حين أيضاً كانت سارة ترميه بنظرات مترعة بحقد مهووس. أما ساهير

فقد كانت ساهمة النظرات تتحسس بطنها المنتفخ، متقاسمة جذع صفصافة واحدة مع هابيل، الذي انسكب ضياء القمر على وجهه النحيل الملائكي القسمات، فبدت لحيته الشقراء وكأنها خيوط من الذهب.

- "هل تحبينه يا سارة؟"

سؤال ناجت به سارة نفسها بحضور ذاك الوجود العظيم، والتفتت صوب أمها تستجلي ردة الفعل لديها، وارتجفت حواء رعباً، وغمرت ابنتها بنظرة استنكار وإشفاق، وعندما انحسر كفا سارة عن وجهها، ورفعت عينيها إلى عين القمر، تلألأت في سواد حجريها السحيق دمعتان كبيرتان. أما حواء فقد نهضت مذهولة، ومشت متوغلة بين الأشجار، إنها عارفة ببواطن الأمور، وتكاد تستشف عواقبها، وإن كانت تحيطها وعن عمد بضباب كثيف، لتوفر على نفسها عناء تلك المعرفة. أحست بوقع أقدام سارة وراءها، فابتعدت عن الجمع عامدة، إلى أن بلغت مكاناً قصياً عن العائلة، استدارت إلى ابنتها محاولة الكلام، لكن سارة سبقتها قائلة:

- أماه، لم تستنكرين هذا؟

- لأنه خيانة لزوجك وأختك.

- أختي نالت ما تريد، إنها دائماً كذلك تنال في النهاية كل شيء.

- إنها أختك يا سارة.

- لا بأس، أما قابيل فلا أريده زوجاً بعد اليوم يا أمي.

- إرادتك هذه جاءت متأخرة جداً، والأخلاق والنواميس تحظر عليك

الآن هذا.

– أتحرمني نواميسكم حق الأمومة يا أماه؟

– سارة، هذه النواميس نواميسنا جميعاً، وعلى كل حال كانت الإرادة إرادتك، وكان الحظ حظك قبل كل شيء.

– دعوني أجرب حظي ثانية.

– تجربين؟!

– أجل، ما المانع يا أمي؟ ثم لعلّه ما يزال يحبني.

– حتى لو كان يحبك فلن يتغير في الأمر شيء.

– سوف أسأله على كل حال.

– أنت مجنونة يا سارة.

– أكون مجنونة لو سمحت لنواميس غبية أن تغتال أيامي.

– يبدو أنك نسيت أننا لم نطرح الموضوع على أبيك بعد.

– أبي؟ تقصدين ذلك الرجل الأشيب الذي ما زال يعيش وهمه الكبير، والذي يرفض حتى الآن أن يهبط إلى حيث نحن.

– ماذا أسمع يا سارة؟!

– ما سمعته يا أمي، لو وافق هابيل على الزواج بي، فلن يحول بيني وبين ذلك حائل. هل تسمعين؟

لفظت سارة كلماتها الأخيرة وأسرعت مبتعدة لا تلوي على شيء، أما حواء فقد تسمّرت في مكانها صامتة صمت القبور، وعندما انسكبت الدموع من عينيها، انحنت أغصان الصفصاف على بعضها وتبادلت ما بينها كلمات ما.

أحسّت سارة بشيء من الارتياح بعد أن أفضت إلى أمها بمكنون صدرها، وفي إحدى لحظات التسامح والتسامي، فتّشت في زوايا نفسها فلم تجد أثراً لمشاعر الحقد والكراهية تجاه ساهير، كيف لا وقد احتل الحقد على قابيل كل تلك الزوايا؟

- "لِمَ لا أبدأ معها مرحلة جديدة لا خصام فيها ولا عداء؟ فقد تعبت من المواجهة وآن لي أن أستريح".

وفي تلك اللحظة من التسامح والتسامي، والنزوع إلى راحة الضمير، قررت سارة أن تفاوض ساهير على هابيل!

- هل تذكرين أننا تبادلنا في يوم من الأيام حديثاً عفوياً لا لف فيه ولا دوران؟

- إلام ترمين يا سارة؟

- في هذه المرّة لن تزعجي نفسك في البحث عما أرمي إليه. أتيتك راغبة بالتحدث معك بصدق وتلقائية، ولن أرمي إلى أبعد مما تنبس به شفتاي.

- صدّقيني أتمنى لو أنني أصدّقك.

- تجاهلت سارة تلك المزايدة اللفظية، ومضت باختصار ووضوح:

– هل تحبين هابيل يا ساهير؟

– أما أعلنت ذلك أمام الجميع؟

– ورغم أنك تدرين أنه يحبني أكثر مما يحبك؟

صمتت ساهير لحظة وهي تحدّق بعيني سارة اللتين لم يرفّ لهما جفن، لكنها قررت في النهاية أن تسترسل في الحديث فقالت باقتضاب:

– ولكني لا أعرف هذا.

– ألم يخطبني أولاً؟

– قلت لك إلام ترمين يا سارة؟

– وأنا قلت لك لن ألف ولن أدور، لقد قضيت منه وطرك، وها أنت الآن تنتظرين مولودك منه، فتخلّي لي الآن عنه.

تمتمت ساهير كمن أصابه مسّ:

– ما الذي تقولينه أيتها المجنونة؟

– بل ما الذي ستقولينه أنت الآن؟

– سأقول إنك الشيطان متستّراً في صورة إنسان.

– اجتنبي هذا الشيطان إذاً يا ساهير.

وانتابت ساهير حالة هستيرية مفاجئة، فمضت تصرخ كالمجنونة:

– هابيل لي، لي أنا، لن أتخلى عنه، ولن يتخلى عني، هل سمعت أيتها

الساقطة؟

انتظرتها سارة إلى أن فرغت من حالتها تلك، وقالت لها ببرود وضيع:

- أخطأت إذ تحدثت إليك يا ساهير.

ومضت سارة إلى هابيل، مضت إليه غير مترددة على الإطلاق كما لو أنها لا تفعل شيئاً. إنها مستعدة لو استطاعت أن تقوّض حتى أركان السماء دون أن يرفّ لها جفن، فهل ستتورع عن تقويض أركان قيم ونواميس أراد لها أبواها أن تحكم تلك الحياة.

- هابيل، أريد أن أتحدّث إليك.

كانت المرّة الأولى التي يتحدثان بها بعد تلك الليلة المشؤومة.

- ها أنا منصت يا سارة.

- أتيت أعرض عليك الزواج يا هابيل.

نظر إليها هابيل ولم يجب فقالت له:

- عهدتك لا تعجز عن التعبير عما تريده في كل المواقف.

- ألا ترين إلى كل ما يفصل بيننا يا سارة؟

- نظرت مليّاً فلم أر أي شيء.

- زواجك من قابيل.

- ثم ماذا؟

- زواجي من ساهير.

- ثم ماذا؟

- حبي لساهير، وعدم رغبتي في استبدال أحد بها.

- ثم ماذا؟

- حب قابيل لك إن افترضنا أنك لا تحبينه.

- ثم ماذا؟

- نواميسنا التي تجعل كل ما سبق يحول دون زواجنا.

- هل هذا كل شيء؟ أنت تغالط نفسك يا هابيل. زواجي من قابيل، وزواجك من ساهير سوف يُلغيان بمجرد زواجنا، حبّك لساهير وهم أقنعت به نفسك بعد أن رفضتك، حبّ قابيل لي أمر يخصّه ولا شأن لنا أنا وأنت به، نواميسنا نحن من وضعها فلمَ لا نضع سواها. أما السبب الحقيقي لرفضك فقد أحجمت عن ذكره. أنت تريد الانتقام لكرامتك مني ليس إلّا.

وقبل أن يجيب استطردت سارة قائلة:

- ثقتي الكبيرة بنفسي يا هابيل، تقف حائلة بيني وبين الإحساس بالغضاضة من أي شعور أشعر به، وتكفل لي دائماً الشجاعة على الاعتراف بكل ما يكنه صدري، لذا فأنا أقول لك الآن إنني أحترم فيك بعض الجوانب، وفي نفس الوقت أنا يقينة أنك تحترم فيّ قوة شخصيتي وتبلور ملامحها، سيما وأنك تفتقد كل ذلك في زوجتك. ولكن ورغم كل هذا، فأنا أقول لك إنني

أعلن عليك الحرب الآن، وسوف أجعلك تُهزم في النهاية يا هابيل. هل تسمعني؟ تذكّر ذلك دائماً وإياك أن تنساه، سوف تهزم في النهاية يا هابيل.

***

صحيح أن صالون إياد الطيان كان يلبّي حاجات كثيرة في نفوس رواده، إلّا أن فيللا حسام قد حققت ما توارى في خفايا نفوسهم من رغبات وأحلام، كان صالون إياد يحركها في دواخلهم بطريقة حييّة وخجولة. فها هم ينفصلون تماماً عن واقع يرفضونه، ويكرهون الانتماء إليه، فيللا بمثابة جمهورية مستقلة، بل أكثر من ذلك، إنها وطن بكلّ ما للكلمة من معنى، جغرافيا بناسها مع كلّ ما ينطوون عليه من آمال وآلام، خير وشر، عدل وجور.

– ما أروع منظر الدروب وهي تختفي معالمها تحت نُدف الثلج المتراكمة فتمنع عنّا تطفّل المتطفّلين.

– الأروع من هذا أن سياراتنا قد موّهها الثلج المتراكم، فما عاد هناك من دليل على وجودنا هاهنا.

في غمرة انتشائهم بتحقيق عزلتهم المنشودة، تبلورت في أذهانهم أكثر فأكثر حقيقة انقطاعهم عن العالم الخارجي، حقيقة كما كلّ الحقائق، نعشقها ونهفو إليها، حتى إذا ما استلقينا في أحضانها، جرحتنا في بشرتها الناعمة أنصالٌ من نوع ما، توارت بطريقة ما. يا لرضوض الأرواح في مخدع الطمأنينة. ويالقسوة الأحلام تهاجر من نفسها حال تحقّقها.

تساءل أسامة:

- حتّى متى ستكفي المؤونة لديك يا حسام؟

- حتّى تقوم الساعة.

قال زاهر:

- نريد جواباً جديّاً فنحن جادّون في قلقنا.

- هل عليّ أن أريكم مخزن المؤونة؟

أكّد إياد موافقاً:

- حتّى يطمئن قلبي.

هبط الجميع سلماً حلزونياً يفضي إلى القبو: المعلّبات مكدّسة بعضها فوق بعض، والأطعمة واللحوم المجمّدة في مجمّدة كبيرة، ودنان النبيذ، والحبوب بأنواعها، وعبوات مياه الشرب، وأسطوانات الغاز، وحتّى أكياس الطحين.

- لمَ كلّ هذا يا حسام؟!

- لست أدري، على الدوام يسكنني إحساس غامض أنني سأختبئ هنا عن عيون ما لمدة طويلة.

- تختبئ؟ ممّن؟

- لا أعرف ممّن، ولكن أعرف أنني أختبئ مع نفسي.

- عليك أن تخضع لتحليل نفسي.

– خضعت، قيل لي نحن شعب خائف بأكمله، وأنا بالذات لديّ رهاب جوع قديم بسبب نشأتي المدقعة.

– وماذا تفعل بكلّ هذا قبل أن يفسد؟

– أوزعه على الملاجئ ودور العجزة ثم أزوّد نفسي بالجديد.

– وهل مضى على ذلك السلوك مدّة طويلة؟

– نعم، مذ أصبحت قادراً على ممارسته.

– ولم تملّ بعد؟

– لا. أشعر أن حياتي السرّية تلك هي حياتي الحقيقية، أما الأخرى المعلنة فهي مجرّد قشور سطحية. كم من شخصية عامّة أخبأتها في الوهم هنا، ثم قمت بزيارتها بين الحين والآخر زيارات حقيقيّة وليس في الوهم، أقف أمام المرآة، وأحدّث ضيوفي، وأتابع مظهر وجهي في عيونهم. لو اعترف الواقع بأوهامي، وبأسماء ضيوفي، لكان لهذا البيت تاريخ مجيد وشأن أيّ شأن.

– ولماذا تختبئ لديك تلك الشخصيّات الشهيرة؟

– كلّ الذين أحبهم أشعر أنهم يشاركونني خوفي، وأنا أتلذذ بمنحهم الأمان.

كانت تلك أوّل رضّة تصيب انتشاءهم، ثمّ وهم يصعدون السلم الحلزوني مزودين برضّتهم تلك، وقبل أن يبلغوا صالة الجلوس، تابع حسام وقبل أن يستردّ أقنعته التي آثر التخلّي عنها في موقف التخلّي ذاك:

- كما ترون، حتّى خمّارة جوريّة كان فيها - كما في الأماكن الأخرى - الكثير الكثير من "التقيّة"، وكنا ندخلها ممتشقين أقنعتنا، نظنّ أنّنا نعرف بعضنا عن بعض كلّ شيء في حين أننا لا نعرف إلّا ما تسفر عنه الأقنعة.

قال زاهر:

- أي أنّنا كنّا نلتقي لنمنح أقنعتنا فرصة قضاء جلسة ممتعة!

قال أسامة يحاصره اعتراف مخز:

- كم حسبنا أنّنا كنّا أحراراً وصادقين مع أنفسنا؟!

تهكّم حسام بنبرة فيها من البكاء أكثر ممّا فيها من السخرية:

- تنتشي بتصالحك مع نفسك و نبذك عقد الأمس البعيد، وإمعاناً بذلك تفشي سراً من هنا و تعلن اعترافاً من هناك، تستمرئ اللعبة أكثر فأكثر، فتستعرض مكنوناتك كصورة قمر صناعي على محرّك بحث. "تزوّم" متبججاً على النقاط الحميمة. و . . فجأة تتوقّف مقهوراً مغلوباً على أمرك "منطقة محرّمة، يمنع الاقتراب والوقوف والتوقّف". ها أنت تعود إلى المربع الأوّل، تقف وجهاً لوجه أمام شرطك البشري.

مضى الممثل زاهر مسلّحاً برصيد من الشجاعة شحنته به صراحة الموقف الذي هم فيه صوب جهاز عرض الفيديو، وبدأ يقلّب الأقراص المدمجة التي إلى جواره. سأله حسام:

- عمّ تبحث يا زاهر؟

- أليس لديك أفلام بورنو؟

- لديّ، في الدرج الأسفل.

فتح زاهر الدرج السفلي، وبدأ يقلّب الأقراص مدقّقاً في صور أغلفتها باستغراب:

- هل لديك ميول مثليّة يا حسام؟!

- لا، لا، ولكن لديّ تشكيلة متنوّعة من الأفلام.

- غالبيتها العظمى رجال برجال!

- الفعل الجنسي بحدّ ذاته لا يشدّني، ما يستهويني حقيقة هو تسلّط الرجل، ولا أبالي بجنس الشريك، سيّان عندي أكان رجلاً أم امرأة.

- أي أنّك بميول سادية؟

- ما أعرفه أن كلّ الرجال بميول سادية، ثم إن ساديتي ليست مطلقة، فأنا لا أستطيع أبداً متابعة فيلم يقوم على التعذيب، فقط أحب التسلّط في العلاقة الجنسية.

قال إياد:

- لا تستهويني العلاقات المثلية أيّاً كان نوعها.

قال أسامة:

- هل تذكرون معبد "كاجراو" الهندي الذي حدّثنا عنه رياض ذات مرّة؟ قال إنه يضم تماثيل تمثّل كلّ طيوف العلاقات الجنسية، ما كان منها فطرياً أو

شاذاً.

قال حسام:

– لا وجود لما يُدعى ميلاً شاذاً، كل الميول فطرية. علينا أن نتحرر من تابواتنا القديمة ونصوغ مبادئنا من جديد.

قال إياد:

– نتحرر؟ ها نحن نسقط في فخ المصطلحات، كيف تسمي الإذعان للرغبات حرية؟

– هذه سفسطة تغتال جوهر الفكرة.

قال أسامة:

– إياد على حق، ما تسميه حرية قد يكون شكلاً من أشكال الإذعان، ثم هب أنني لا تستهويني العلاقة الجنسية إلا إن كانت اغتصاباً؟

– يمكنك أن تجد شريكاً يحب أن يُغتصب، ابحث عن صاحب الميل المُكمّل لميولك بدلاً من كبتها.

قال إياد:

– إن فلسفنا الخطأ بهذه الطريقة لا تبق لدينا أخطاء أبداً.

أجاب حسام:

– وهو المطلوب يا إياد، أنا شخصياً لا أحب أخطائي ولكنني أيضاً لا أكرهها، عموماً لقد غفرتها وانتهى الأمر.



قال أسامة موجّهاً كلامه إلى زاهر:

- زاهر، الله يلعن اللي بيشوّق وما بيدوّق، شغّل شي فيلم بدل هالفذلكة.

***

عندما رأت الأرواح المُغفية على نخلات شارع الجلاء مجموعة من النساء الدمشقيات يتقاطرن إلى بيت غزوة خانم في "أبو رمانة"، نفرت مهتاجة هياجاً يشبه هياج سرب من الحمام مرّت في سمائه طائرة مقاتلة. فقد باتت هذه الأرواح تعرف ما ينتظرها بعد كل لقاء من هذا القبيل، لكأنما النابغة الذبياني كان يتحدّث عنها عندما قال: "لهنّ عليهم عادة قد عرفنها". فمنذ سنوات دأبت غزوة خانم على إقامة جلسات تحضير الأرواح في منزلها، تقصدها فيه مجموعة من النساء الدمشقيات الثريات لحضور هذا الطقس الذي أسبغن عليه بقدرة قادر طابعاً دينياً إسلامياً. يأتين متوضئات طاهرات إلا من رجس قلوبهن، يقترفن شعوذاتهن عامدات متعمدات، سالكات دروب الشيطان، راغبات في الوصول عبرها إلى مجالي الحق العلوية، حيث عادت الأرواح حافرتها الأولى. وإذ تفرّقت الأرواح مضطربة، ولاذت بالفرار شرقاً وغرباً، فإن روحاً واحدة شقّت طريقها، رابطة الجأش واثقة الجناح كورقاء "هبطت من المحل الأرفع"، ومضت عبر سماء دمشق إلى "باب توما" يستدعيها إلى هناك اجتماع آخر من نوع مختلف.

على طاولة الطعام في شقة جورج شماس في باب توما، تحلّق كل من طه وأخوه خالد وجورج وزين العابدين، تجمعهم وترفرف فوقهم وتكلؤهم روح رشيد بك. اغتنت المائدة بصنوف بسيطة من المأكولات الدمشقية،

لا تشبه الصنوف التي تعدّها غزوة خانم وتزيّن بها سفرتها. فلا "الملوخية" كانت حاضرة، ولا "الكبة اللبنية ، ولا "داوود باشا" ولا حتى "عساكره". كان على المائدة طبق من الفتّة بالزيت، وقليل من الفلافل والبطاطا المقلية إضافة إلى اللحم بالعجين، وتخلّلت السفرة وزيّنتها تشكيلة غنية الطعم والألوان من المخلّلات. وقبل أن يبدأ الحاضرون بتناول طعامهم، أحضر طه من البار الصغير القابع ما بين الصالون والمطبخ وغرفة الطعام زجاجة من النبيذ المعتق، دُهش خالد وتساءل:

- أتشرب النبيذ يا طه؟!

- كما كان والدنا يشربه من قبل.

بدأ طه بملء كأس جورج العجوز المسربل بحزنه الشفيف، والذي فاجأ الحاضرين بصوته الواهن يشدو برائعة "أسمهان":

- "أسقنيها بأبي أنت وأمي"

ووسط دهشة جورج هذه المرّة، تابع طه المنتمي إلى جيل يُفترض أنه ما سمع هذه الأغنية يوماً:

- "لا لتجلو الهمّ عنّي"

مدّ جورج كلتا يديه باتجاه طه يوشك أن يحتضنه مكملاً:

- "أنت همّي"

وتابعا معاً:

- "املأ الكـاس ابتســاما وغـرامــا

فلقــد نام النــدامـــى والخزامى

زحم الصبح الظلاما فإلامـــــا"

كادت روح رشيد بك أن تصرخ طرباً ونشوة، فنطق بلسانها جورج شماس:

- كانت أغنية والدك المفضّلة.

- حدّثني خالي عن ذلك، قال لي أنه كان مفتتناً بأسمهان وبهذه الأغنية بالذات، وهذا ما جعلني أسمع وأحب وأحفظ كل أغنياتها.

ثم التفت طه إلى زين العابدين متسائلاً:

- وأنت ألن تشرب أيضاً؟

- لم أشرب سابقاً ولكني سأشرب الآن.

قال طه:

- عظيم جداً، هذه أولى النتائج الهامة لجلستنا تلك، لحظة فارقة بين شطري عمر

- لا تغال كثيراً يا عزيزي، فعمري كله مشطور بين عالم واقعي وآخر افتراضي.

- وأنت؟ أين تجد نفسك بين الشطرين؟

- أنا أراهما كياناً موحداً، المشكلة عند الآخرين وليست عندي.

- كيف ذلك؟

- أقول: أنظر إلى الأشياء فأرى مرادفاتها في العالم الافتراضي، يقولون: خيالي حالم منفصل عن واقعه، يقول رجل آخر: لا أنظر إلى نصف الكأس الفارغ بل إلى نصفه الملآن، فيقولون: واقعي متزن و رأيه سديد ... !!!!!

قال له جورج:

- لا يُسكب الصبح في فنجان قهوة، فلندع جانباً كل القوالب والأطر، فلن تستطيب أرواحنا إلا المطلق ميداناً.

نظر خالد إلى جورج قائلاً في محاولة منه لإقفال ملف النبيذ:

- لم أكن أعرف أنك كنت صديقاً لوالدي، فقد كنت أعرفك بصفتك صاحب تجمع أنطون سعادة وشريكاً في مرصد قاسيون.

- أما أنا فكنت أعرفك معرفة شخصية، وأتابع كل أخبارك ولكن بصمت.

- ولماذا لم تسع إلى التواصل معي؟

- لقد كنت صديقاً حميماً لزوجة أبيك الأولى وشقيقها، لهذا لم أكن صديقاً مرغوباً به من قبل السيدة والدتك في حياة والدك، وبعد وفاته وزواجها من السيد عبد الواحد لم أعد غير مرغوب به فحسب، بل أصبحت شخصاً

بغيضاً.

غرز طه شوكته في قطعة أرجوانية من مخلل الشوندر، كي يمنح عينيه حقّ النظر فيها بعيداً عن وجوه محدّثيه وقال:

- التقيته في باريس.

- عبد الواحد؟!

- نعم، يقيم فيها باسم مستعار وهوية مزوّرة.

- وكيف تأتّى له ذلك؟

حرّر عينيه من قطعة المخلّل ناظراً إلى وجوه الحاضرين هذه المرّة:

- كما تأتّى له أن يعقد كل صفقاته، ويهرّب كل طروده "البشرية" بعيداً عن كل أعين الرقابة في الداخل والخارج. لم يكن متورطاً في تجارة الرقيق فحسب، بل في الاتّجار بالأعضاء البشرية أيضاً. الغريب أن الجميع هناك يتناقل أخبار نشاطاته ويعرف تفاصيلها إلّا السلطات الفرنسية.

قال زين العابدين:

- قد يكون للمرحلة السابقة - على كل مساوئها - حسنة واحدة، وهي أنها عرّت كثيراً من الحقائق في مجتمعنا لم نكن نراها من قبل، لعلّ ذلك يكون سبيلاً إلى تخطّيها وتجاوزها.

هذه المرّة فإن جورج هو من هرب بعينيه من وجوه محدّثيه كي يتجرأ على دخول معاقلهم، ثم بعد فترة صمت قصيرة قال:

– تمنّيت أن يتبرع أحد منكم بقول ما سأقول كيلا يُساء فهمي لكنكم صمتّم. لا يا زين العابدين لا يبدو على مجتمعنا أنه رأى الحقائق أبداً، بل على العكس إنه يوغل أكثر فأكثر في انتماءاته المريضة، وفي قضاياه البائدة التي يعتقد أن الحياة لا تستقيم قبل الفصل بها، متجاهلاً أن أمم الأرض تسير وتتطوّر دون حتّى أن تسمع بها.

قال زين العابدين وقد رسم على وجهه استياءً ساخراً:

– حذار من الكفر والمروق أيها النصراني، يلوح لي أنك تلمّح إلى الشرخ السني الشيعي، بل لعلّك تتطاول على نادي أبي أيضاً.

قال طه ضاحكاً:

– وهل لأبيك ناد أيضاً؟

– نعم نعم. وأنا عضو فيه رغماً عنّي. إنه في خلاف كبير مع المرجعية الشيعية في دمشق لأنه يطالب بتنقيح كتب التراث.

أكّد طه مؤيّداً:

– موقف ممتاز. ليت كل الطوائف تفعل هذا.

– المشكلة أن أبي يطالب بذلك لسبب طائفي أيضاً، وهو استقطاب السنّة المتسرّبين من طائفتهم كرهاً بالجماعات التكفيرية.

تابع طه:

– حتى هذا ليس عيباً، من حقّ كل فرد أو تجمّع الترويج لنفسه وأفكاره

بالطرق المشروعة.

قال زين العابدين وقد استعاد ملامح الجديّة على وجهه:

– نعم يا طه، كل ما تقوله مقبول ولا أختلف مع أبي بسببه. مشكلتي معه أنّه في عزّ هذه المواقف الصحيحة والبنّاءة إلى حدّ ما، لا يلبث أن يبتلعه الثقب الأسود العابر بنا كل سنة في العاشر من محرّم. إنني أستعرض ماضيّ محايداً وكأنني لا أعرف الشخص الذي كنته منذ سنوات، أستغرب كيف يتعصّبون لطائفة أو قومية أو حدث حصل منذ مئات السنين، وكأنّه خارج للتوّ من لحظتهم الآنية.

قال طه:

– حتّى في هذا يتحمّل السنّة قسطاً كبيراً من المسؤولية، من حقّ كلّ المسلمين وليس الشيعة فقط على المرجعيّات السنيّة الرصينة أن ترفع الحصانة الدينية عن دول الخلافة الوراثية وكلّ شخصياتها، وأن تتبرأ من قتلة أحفاد الرسول.

قال زين العابدين متهكّماً:

– لماذا لا تنضمّ إلى نادي أبي أيها السنيّ المتسرّب من طائفته؟

– ألديك طلب انتساب؟

ضحك الحاضرون قبل أن يستطرد زين العابدين:

– لنعد إلى الجدّ يا طه، ما هي خططك القادمة في دمشق؟

عاد طه إلى التشاغل بشوكته لائذاً بالصمت، وأحسّ خالد أنّ الجميع ينتظرون الردّ منه، فنظر إلى أخيه وجهاً لوجه منهياً صولة المراوغة تلك:

- حسن يا طه، الالتفاف حول المشكلة لن يحلّها فلنضع النقاط على الحروف. كيف سنحلّ مشكلة البيت ما بيننا؟

قال زين العابدين:

- لا حلّ في مثل هذه الحالة إلا ببيع البيت واقتسام ثمنه.

قال طه:

- يوجعني مجرّد التفكير في مثل هذا.

عاد زين العابدين إلى التأكيد:

- في كثير من الحالات يكون الوجع قدراً.

زفر خالد زفرة طويلة قبل أن يقول:

- من باب الاطّلاع على واقع الأمر، استبقت الأحداث وعرضته على المكاتب العقارية في الحي لأعرف قيمة البدل المادي الذي يمكننا الحصول عليه، فكان الجواب واحداً "بيتكم غير مرغوب فيه فهو مسكون بالأشباح".

قاطعه طه مستغرباً:

- بيتنا؟!

- أجل يا عزيزي، بيتنا، ففي هذا الوقت وبينما نحن نتناقش هنا، تعقد أمي هناك إحدى جلساتها الدورية لتحضير الأرواح.

ساد المجلس صمت عميق قطعته قهقهة عابثة من زين العابدين قبل أن يقول ساخراً:

– هل هناك من لا يزال يمارس تحضير الأرواح بعد أن صوّر لنا البروفسور شيث جدّو آدم وتيتة حواء في أفلام وثائقية؟!

وتساءل جورج موجّهاً كلامه إلى طه وخالد:

– وأنتم؟ هل تصدّقون هذا!

قال خالد:

– وما الفائدة إن كان الناس يصدّقونه.

– تبيعون بيتكم لمن لا يصدّق.

– حتى من لا يصدّق سيساوم على السعر وكأنه مصدّق.

– من يصدّق لن يساوم أبداً.

– بكلّ الأحوال عندما تكون الخيارات محدودة ينخفض الثمن.

***

لقد جرت العادة، ومنذ أن شب قابيل وهابيل أن يقوم الأول بعملية الاحتطاب، بينما يقوم الثاني برعي الأغنام، ولم يُبد أي منهما امتعاضه من عمله ورغبته في عمل شقيقه. ولم يتغير شيء من هذا بعد زواجهما، وتكوين كل منهما أسرة صغيرة جديدة. وحلا لسارة أن تدكّ هذا العرف السائد، لا لرغبتها في تقويض كل ما هو متعارف عليه كعادتها فحسب، بل لسبب آخر

أيضاً بدأ ينمو ويترعرع في صدرها، وهو بث بذور الشقاق بين قابيل وهابيل ذاك الذي توعدته أن تكون له بالمرصاد. وأخذت تلح على قابيل أن يستبدل بعمله عمل أخيه، وعبثاً حاول قابيل إقناعها أنه الأوفر صحة وقوة، وأنه الأقدر على عملية الاحتطاب، كما أن مهمة الرعي لا تستهويه، بل يجدها مملة رتيبة ولكن دون جدوى. وأخيراً توصّلا إلى حل وسط، يقضي أن تكون أسرتاهما صورتين كاملتين لأسرة أبويهما، أي يقتسمان القطيع، فيرعى كل منهما قطيعه الخاص به، ويحتطب أيضاً ما يلزمه من الحطب، وذلك بعد أن تعهدت سارة باضطلاعها بدور الراعية لأغنامها.

أعلن آدم عن موافقته على الفكرة دون أن يظهر إن كان راضياً بها أم لا، أما حواء فأكدت أن ليس من حقها الاعتراض على حق سارة وقابيل بالاستقلال عن الأسرة الأم، ولكن ذلك يؤلمها كثيراً. وبأسلوب فظ أجابت سارة:

- كلنا مررنا بمواقف مؤلمة يا أمي لدرجة أننا اعتدنا الألم.

ويوماً بعد يوم هدأت الضجة التي رافقت تلك الحادثة، بل أكثر من ذلك فقد بدا للجميع أن ما حدث هو حالة صحية، وأنه كان يجب أن يكون. أما سارة التي اضطلعت بدور الراعية لقطيعها فقد عادت للتفكير بمكيدة توقع بها بين أخويها، ويسوق لها القدر ما تريد. فذات صباح وهي تخرج القطيع من الحظيرة، وبعد أن خرج آخر خروف وقفت مشدوهة:

- "الخراف ناقصة"

قالت سارة لنفسها هذا، ثم دخلت الحظيرة لتتأكد وبعد تمعن طويل

تمتمت:

- لا مجال للشك أبداً فالخراف ناقصة خروفاً.

فتح هابيل باب حظيرته وقال لقابيل:

- ادخل وتأكد بنفسك من خرافي.

ودخل قابيل ودخلت معه سارة، وأمعنا التدقيق جيداً كانت خراف هابيل كما هي لكن هذا لم يمنع سارة أن تقول:

- هل طار الخروف يا هابيل؟ لا شك أنك أخفيته في مكان ما.

- سوء الظن ليس جديداً عليك يا سارة، ولكن لعل قابيل لا يشاطرك إياه.

قال قابيل:

- لم تسئ بك سارة ظناً يا هابيل، وأنا أشاطرها اتهامك.

وكما في كل مرة يستفحل الداء لن يكون الدواء إلا في جعبة حواء، فقد طلبت إلى الجميع أن يلوذوا بالصمت ليسعها التحقيق في الأمر. وفي صباح اليوم التالي استيقظت حواء باكراً، وخرجت تتمشى مطرقة على شاطئ النهر مفكرة بأمر الخروف. كان الجو بليلاً، فلم تكن الشمس قد ظهرت بعد على صفحة السماء، أما الأرض المعشوشبة فكانت تبترد بقطرات الندى السخية فجر هذا اليوم. وبهتت حواء وهي تنظر إلى الأرض أمامها، وتمنت لو أنها لا تصدق عينيها، ولكن ما الفائدة ها هي تغمض عينيها وتفتحهما من جديد

فترى الشيء نفسه. إنه هو! هو بالتأكيد وتلك خطواته تدل عليه، الخطوات التي لن تنساها أبداً، ولن تنسى كم فرت وآدم من أي مكان وجدت فيه فرارهما من موت محقق. هل تعود إلى أسرتها وتلقي على مسامعهم الخبر الصاعق، أم تتأكد من الأمر أولاً؟ رأت حواء أن تتأكد أولاً، فتتبعت الخطوات كانت آثارها تختفي حيناً بين الأعشاب لتظهر حيناً آخر، وكانت تظهر بوضوح أكبر كلما اقتربت أكثر من النهر حيث الأرض اللينة، إذ ذاك كانت تبدو المخالب المريعة واضحة جلية على التراب. لم تسر حواء كثيراً، ولكن خُيّل إليها - والذعر رفيق رحلتها - أنها سارت عمراً بأكمله. وهناك في البعيد لمحته، لمحت النمر يتمطى، وكأنه الموت معلناً عن نفسه.

خيّم على الجمع وجوم مطلق، وجوم أطلقه الذعر في قلبي آدم وحواء، والدهشة في نفوس أبنائهم. وتساءلت ساهير:

- إذاً فالنمر موجود فعلاً؟

قال قابيل:

- هو الذي سرق الخروف إذاً.

وارتفع صوت سارة الموضوعي يقول:

- أهذا ما يشغلك الآن أيها الأخرق، ما الذي سنفعله الآن يا أبي؟

قال آدم:

- لا بد من قتل النمر قبل أن يفتك بنا جميعاً.

وتساءل قابيل:

- كم تبلغ قوته؟

قالت حواء:

- إنه قادر على تمزيق أي منا في لمح البصر.

انكمش قابيل على نفسه ولاذ بالصمت، قالت ساهير:

- ليتصد له قابيل إذاً فهو أقوانا.

وردت سارة على الفور:

- لا، لن يفعل قابيل ذلك.

فقال آدم:

- ولِمَ لا يفعل قابيل ذلك يا سارة؟

- لا أهمية لقوة قابيل طالما أن النمر يفوقه قوة بكثير.

- ولكن ألا يجدر بقابيل أن يتخذ قراره بنفسه؟

قال قابيل متلعثماً:

- ما جاوزت سارة الحقيقة يا أبي، لا أهمية للقوة في مواجهة النمر.

ساد الجمع صمت مطبق إلى أن قطعه هابيل بقوله:

- لا أعرف عن النمر شيئاً كي أرسم خطة لمواجهته، ولكنني سأتصدى له وعندما أواجهه سأحاول اتخاذ أنسب المواقف.

قالت سارة:

– وإن تمكن منك النمر يا هابيل؟

– على الأرجح سوف يحدث هذا.

لقد طرح هابيل بموقفه هذا مفهوماً جديداً على مسرح الحياة هو الشجاعة، فلم يكن أحد يفكر بوجودها، وإن هي لاحت في مخيلة أي من أفراد الأسرة، فلا شك أنها كانت تسير جنباً إلى جنب مع شقيقتها التوءم "القوة". أما الآن فقد بدا للجميع أن هذين التوءمين يمكن أن يعيش كل منهما على حدة، فتقطن القوة جسد إنسان، بينما تورق الشجاعة في قلب آخر. وفكرت سارة قليلاً، هي لا تريد لهابيل أن يقتل النمر فيفوز بتقدير وإعجاب الجميع، كما أنها لا تريد له أن ينتهي بين براثنه حرصاً عليه، فهي في قرارة نفسها لا زالت تفكر بالزواج منه بغية تحقيق حلمها في الإنجاب.

– إنني أشاطر ساهير رأيها أن على قابيل التصدي للنمر فهو أقوانا.

قالت سارة هذا في محاولة يائسة منها لإعادة اللحمة بين القوة والشجاعة، وتطويق عنق قابيل بإكليلهما المشترك، لا حباً به بل لتحرم هابيل مجد الفوز بهذا الإكليل. لكن قابيل عاد فأكد أنه لن يواجه النمر أبداً. قلبت سارة شفتيها اشمئزازاً وهمت أن تتكلم لكن هابيل سبقها قائلاً:

– لكنني تطوعت لمبارزة النمر وانتهى الأمر.

قالت سارة متحدية:

– لن تفعل هذا يا هابيل، أنا التي ستواجه النمر وتقتله.

وتبادل آدم وحواء نظرات متألمة قبل أن يقول آدم:

– حتى والخطر الداهم يحيق بنا، فأنتم تغلّبون صوت التحدي والخصام على صوت العقل، كلنا سنواجه النمر مجتمعين، فإما أن نقتله، وإما أن يمزقنا جميعاً.

أمضى الجميع يوماً أسود يملؤه الحذر ويسوده الرعب المميت القاتل، وحين هبط الليل أوى كل زوج إلى مخدعه، وأوصدوا أبوابهم جيداً مستسلمين لنوم قلق غير عميق، رفض أن يزور أجفانهم حتى ما بعد منتصف الليل، ووحده هابيل أمضى الليل ساهراً، فقد كان يبيت لأمر ما، وحين لاح الفجر قام هابيل بهدوء وحذر، فتناول رمحاً حجرياً وخرج إلى الفناء ثم أغلق الباب خلفه جيداً، ورغم كل حرصه على الهدوء سمعت سارة صوت حركته في الخارج فنهضت مرعوبة:

– "إنه النمر"

تمطت إلى جوار الخوف في صدرها رغبة جارفة في رؤية ذلك الغريم الوافد من عالم أساطير أمها، وحين فتحت الباب قليلاً رأت هابيل يهم بالابتعاد عن المنازل. خرجت على إثره فالتفت إليها مرتبكاً.

– أمجنون أنت يا هابيل! إلى أين تمضي؟

– أحسست بالضيق قليلاً فخرجت أستنشق الهواء الطلق.

– في هذا الظرف الذي نحن فيه؟

حاول المراوغة لكنها حاصرته قائلة:

– لا تخدعني يا هابيل فتلك مهمة ليست باليسيرة، أنت ماض إلى النمر أليس كذلك؟

– صدقيني كل ما أريده هو التعرف عليه عن بعد، ألا يجدر بنا أن نعرف عدونا قبل أن نواجهه؟

حدّقت فيه قليلاً ثم قالت:

– لا باس يا هابيل ولكن انتظر قليلاً.

ودلفت إلى الداخل برهة، ثم خرجت تحمل بيدها رمحاً حجرياً، فمدّ هابيل يده برمحه قائلاً:

– ذاك هو رمحي لقد أحضرته معي.

– وأنا الأخرى أحضرت رمحي معي.

كان يعرفها ويعرف تماماً أن لا سبيل إلى حملها على التراجع عن قرارها.

– سارة سأقول لك الحقيقة، أنا أنوي لقاء النمر الآن وليس مجرد التعرف عليه.

– ولِمَ تواجهه بمفردك؟

– أبي رجل عجوز، وقابيل لم يُبد الرغبة بالمواجهة، وأنتن نساء غير قادرات على ذلك، فلم يبق إلا أنا.

– بل أبي وأمي عجوزان، وساهير حبلى، وقابيل جبان، فلم يبق إلا أنا وأنت.

- لن أضيع الوقت معك يا سارة، هلمي بصمت.

توغلا بين الأشجار، ثم سارا في مسار مواز للنهر، محاولين ألا يصدرا أي صوت أو جلبة. وإذا هما كذلك دوى في البعيد زئير مرعب، فتسمرا مكانهما ونظرا جهة الصوت، كان النمر يتقلب على المرج الأخضر متثائباً، يتمطى حيناً وينكمش على نفسه حيناً آخر، وفي كل الأحيان كان يملأ المكان حوله رعباً وهلعاً. ونظر هابيل إلى سارة وكأنه يسألها:

- "أترين ما أرى يا أختاه؟"

فازدردت ريقها وكأنها تجيب:

- "يا لهول ما أرى يا هابيل"

- ساعديني يا سارة في لف طبقات من الأشواك حول جسدي.

- لماذا؟

- سأمضي إليه محتمياً بها.

وما هي إلا دقائق حتى كان هابيل يغرق وسط كومة كبيرة من الشوك، أفقدته قدرته على الحركة تقريباً، كان قادراً على السير ببطء، أما يمناه فكانت ممدودة إلى الأمام والأشواك تحيط بها، في حين أطبقت أصابعه بقوة على رمحه المدبب.

- ابتعدي يا سارة وارقبينا بهدوء، إن تمكن مني عودي وأخبري العائلة بما حصل، وإن تمكنت منه أسرعي إليّ فساعديني في انتزاع الأشواك عن

جسدي.

وعندما أصبحت سارة على بعد كاف، بدأ هابيل بلفت انتباه النمر إليه. وتقدم النمر، وحبست سارة أنفاسها، وتماسك هابيل. كان النمر جائعاً، ورائحة الفريسة مثيرة، والحصن منيعاً. وكخبير مجرب جعل النمر يدور حول هابيل، يحاول أن يجد الثغرة المناسبة، يمد يده بين الحين والحين بهدوء وحذر، فيلمس بها أطراف الأشواك، ثم يبعدها. كان هابيل ينتظر أن يأخذ النمر وضعية مناسبة، تجعله عرضة لرمحه المسنون. يجب أن يوجه إليه الطعنة بقوة وبلمح البصر دون أن يعبأ بما سينغرز في جسده من أشواك جرّاء ذلك، وأتت اللحظة التي أصبح النمر فيها على مرمى الرمح تماماً، كان يتجمع على نفسه متحفزاً لوثوب لن يحدث، خوفاً من الأشواك أولاً، ولأن طعنة نجلاء من يمنى هابيل أصابته في حلقه، فانغرز الرمح فيه كالإسفين. وانطلق الزئير المتحشرج أكثر رعباً من سابقه، وأخذ الجسد القوي ذو العضلات المرنة يتلوى أرضاً وكأنه جسد أفعوان، بينما كان الدم يتدفق غزيراً حاراً معلناً انتهاء فصل الرعب هذا. وعندما توقف عن الحركة تماماً، قالت سارة بمزيد من الإعجاب:

– كان عظيماً وهو يموت عظمته وهو حي يرزق.

وأخذت تساعد هابيل في نزع الأشواك عن جسده فقال هابيل:

– علينا أن نعود بسرعة قبل أن نسبب القلق لأفراد الأسرة.

– ليس قبل أن ننتزع جلد النمر ألا ترى أنه يليق بي يا هابيل.

***

كان تميم مستسلماً لإغفاءة القيلولة عندما أعطى جوّاله تنبيهاً خافتاً إلى ورود رسالة قصيرة، التنبيه كان أخفت من أن يوقظ الرجل من غفوته، لكنه كان كافياً للفت انتباه زوجته، قرأت زوجته نجوى الرسالة الواردة من صديقه في نادي سلطان العارفين الصحفي نجم الدين:

"لقاء أعضاء النادي سيتمّ غداً الساعة الخامسة في بيتي لا في بيت السيدة وسيلة" توقّفت نجوى للحظة وهي تمسك بجوّال زوجها وجفناها معلّقان بشيء غير منظور، وقد تحوّل جسدها إلى تلك المحطة التي تنطلق منها المرأة عادة عبر أفكارها في رحلة مبيتة، تعود بعدها وقد حقّقت غزوتُها كلَّ النجاح المطلوب. وبعد أن عادت إلى قواعدها سالمة حرّرت جفنيها ممّا هما عالقان فيه، ثم مسحت الرسالة، وأعادت الجوّال إلى مكانه وكأن شيئاً لم يكن. كان هذا الإجراء الذي تضمّنته الرسالة حلًّا ضروريّاً بعد اللقاء الأخير المخيّب للآمال، والذي تمّ في بيت مؤسّسة النادي السيدة وسيلة. فعبثاً وبدون أي طائل، حاول جميع الحاضرين إقناع ملهمتهم بالتغاضي عن طقطقة كعب حذاء الراقصة " مفاتن " التي تسكن الشقّة التي تعلو شقّة السيدة وسيلة تماماً، وأن يتابعوا جلستهم وكأنّ الراقصة غير موجودة.

– تريدونها أن تظنّ أنّها نالت مني؟ لا والله، لن يحدث هذا أبداً.

– على العكس، تجاهلك لها سيجعلها تحتقر نفسها.

– هذه؟! أنتم لا تعرفونها.

ووسط إحساس الجميع بالخيبة والخزي، أحضرت السيدة وسيلة مكنسة يدوية، وبدأت تردّ على حذاء مفاتن بدقّات من عصا المكنسة الطويلة على سقف الصالون. مضى الاجتماع بأكمله بين هجوم وهجوم مضاد، وبين الكرّ والفرّ سيل من السباب والشتائم يصف الراقصة بأقذع الصفات، وسرد على مسامع الحاضرين لكلّ تفاصيل المعارك التي تحصل في غيابهم. وعندما كان الضيوف يغادرون في آخر السهرة وهم على شفا الغثيان، كانت السيدة وسيلة تبتسم لهم باعتداد:

- هكذا دائماً أردّ لها الصاع صاعين.

عندما فتح نجم الدين باب شقّته قدّمت السيدة الزائرة نفسها:

- أنا نجوى زوجة تميم.

أخذت مكانها في الصالون دون أن تنبس ببنت شفة، رغم معرفتها بالأسئلة التي تدور في رؤوس شركائها في المجلس، فلم تكن أبداً معنية بالمبادرة إلى اختصار مرحلة دهشتهم، فكل لحظة تمرّ تفرضها أمراً واقعاً أكثر فأكثر، وتجعل من حضورها المباغت حدثاً لا مباغتة فيه. بل أكثر من ذلك فقد كانت تستمتع بقراءة تساؤلات شركائها غير المنطوقة، وترتّب إجاباتها عليها بهدوء وتؤدة. سألتها السيدة وسيلة:

- هل حصل مكروه لتميم؟

- أبداً.

- لماذا أرسلك عوضاً عنه إذاً؟

– لم يرسلني، بل هو لا يعرف بمكان هذا اللقاء وزمانه أصلاً، أنا من تلقّى رسالة نجم الدين ثم مسحتها من جوّاله.

تلألأت ملامح الموجودين بمتعة تذوّق إثارة مرتقبة كان مجلسهم يحتاجها منذ مدة، وابتلع نجم الدين وهو يزدرد ريقه بعضاً من حلاوتها قبل أن يقول للزائرة:

– أنت تبيّتين إذاً لأمر ما ، مرحباً بك على كلّ حال.

– الأمر أبسط مما تتصوّرون، فقط أردت اكتشاف الأجواء التي يعيشها زوجي هاهنا، الأجواء التي جعلته ينسى أنه تاجر إن لم يخلص في السعي لرزقه فلن يسعى الرزق إليه، الأجواء التي جعلته ينسى أنه زوج لامرأة شابّة، وأب لطفلين صغيرين، الأجواء التي صرفته عن دنيا تورّط بها وتورّطت به، ليستغرق في ترف ذهني لا يليق برجل يحمل على عاتقه من المسؤوليات ما يحمله تميم.

بكلّ ما ينطوي عليه الاستخفاف بالآخرين وبأفكارهم، أشاحت السيدة وسيلة بوجهها وتمتمت للسقف قائلة:

– لا غرابة إن تعرّض تميم لمثل هذا، فسقراط نفسه لم ينج من هذه الترّهات.

انبرت نجوى مجيبة بحزم:

– لا تشهروا في وجهي أصنامكم، فلست ممن يسجدون للأصنام، أصلاً ما جاء بي إلى هنا إلّا خشيتي أن يُمسخ زوجي "سقراطاً"، رجل ما مارس

عملاً في يوم من الأيام، حتّى أفكاره لم يكلّف نفسه عناء تدوينها، فليس له أي كتاب. تتحدّثين عن زوجته؟ ماذا كنت تنتظرين من زوجة لا يمتلك زوجها إزاءها أيّ حسّ بالمسؤولية، ولا يوفّر لبيته من الطعام إلّا الخبز، بينما يأكل هو على موائد تلاميذه الموسرين؟ هل كان عليها أن تكون سعيدة لأنّ زوجها يهيم في أزقّة أثينا، يصطاد فرائسه من تجّار الأوهام، ويسألهم أن يعرّفوا مصطلحات حياتهم وبدهياتها؟

فوجئ الجميع بأنّ المعركة قد بدأت دون أية مقدمات، ومن غير أيّ تمهيد، لكأنّ كلمة "سقراط" كانت كلمة السرّ بين السيدة وسيلة والسيدة الزائرة. قال نجم الدين:

– هل يمكننا اختزال سقراط بهذه الطريقة؟ صحيح أنه لم يترك لنا وراءه أثراً يدلّ عليه، ولكن تلاميذه وعلى رأسهم أفلاطون نقلوا لنا درر أفكاره.

– ليس لزوجي أفكار ولا تلاميذ، إنّه لم يأخذ عن سقراط إلا كسله وسلبيته.

– لم يكن سقراط سلبياً، بل كانت له مواقف مشهودة، فقد عرّض حياته يوماً للخطر كي ينقذ أحد تلاميذه في المعركة.

– يا إلهي! رجل مسنّ ضعيف يعرّض حياته للخطر من أجل شابّ فتيّ قويّ. ولدى التحقيق في الأمر، نجد أن هذا الشاب هو السبيادس أحد أثرى شباب أثينا وأكثرهم وفرة. هل كان سقراط يفكّر في قرارة عقله بالثمن؟ يلوح لي أنّ الأمر على هذا المنوال.

قال نجم الدين:

– كم يبدو الأمر مضحكاً أن نكون في موقع الدفاع عن سقراط وكأنه موضع شبهة. هو الذي فتح للعالم بوّابات الفكر الأولى، وعبّد له مسالك العقل والحوار. لو أنّه كان يفكّر بالثمن كما تدّعين لكان أقرب الطرق إليه أن يمالئ النظام الديموقراطي الحاكم بدلاً من مواجهته، هذه المواجهة التي أدّت به إلى تجرّع السمّ عقاباً.

– ما الذي كان سيكسبه من ممالأة النظام الديموقراطي؟ هل كان هذا النظام سيستثنيه من دور الترتيب الأبجدي لاسمه ضمن قائمة سكّان أثينا للفوز بمقعد في الديكاستريا؟ لعلّ موائد الموسرين أكثر إغواء. ها هو يغدو الملهم والأب الروحي للحزب الأوليجاركي رغم فقره المدقع، وعندما تشترط إسبارطة المنتصرة على أثينا المهزومة أن تعيد رجالات هذا الحزب من منافيهم، يكون وراء الأكمة ما وراءها، وتلك "مأثرة" أخرى لسقراط وحزبه.

قالت السيدة وسيلة:

– هل أنت الآن هنا لمقاضاة سقراط؟

– أبداً، أبداً، كنت أحدّثكم عن تميم وأنتم من ذهب إلى سقراط. لنعد إلى تميم من جديد، إن كنتم فعلاً أصدقاء لهذا الرجل فكّروا في مصلحته، فديونه تتفاقم وهو قاب قوسين أو أدنى من إعلان إفلاسه. حريّ به أن يلتفت إلى عمله بدلاً من التفكير بالعلاقة بين الله والعالم ووحدة الوجود، والاستغراق في البحث عن تأثير ابن عربي على الكوميديا الإلهية وفلسفة

اسبينوزا. لست ضدّ الفكر وإعماله في قضايا الحياة وأسرارها، لكنّ لقمة العيش أكثر ضرورة، وأعلى شرفاً، كما أنّ واجب تميم في السعي والعمل ليس فقط من أجل الكسب - على أهميته - بل لكونه قدوة لأبنائه، ومثلاً أعلى لهم يجب أن يأخذوا عنه صفة حبّ العمل وتقديس الواجب، وواجبه في هذا الموقع هو أهمّ بكثير من واجبه إزاء ابن عربي.

ثم نهضت نجوى مستأذنة بالانصراف دون أن تترك لنجم الدين خياراً بالتمسّك بها، أو استبقائها، وعند باب الصالون التفتت إلى الوراء وقالت لجمع الحاضرين:

– يقال إن زوجة سقراط كانت محدّثة بارعة.

***

"مرحباً أيّها الحزن" هكذا عنونت فرانسواز ساغان روايتها الأولى، معتقدة أنّها أحسنت الاحتفاء بحزنها كما يليق به الاحتفاء، وخلعت عليه صفة الكائن الحيّ الذي يتفاعل معنا ونتفاعل معه، ويمكن أن نعيش معه وبه ردحاً من عمرنا قد يطول أو قد يقصر. ولكن فات الأديبة الفرنسية الشهيرة أنها ما زالت تحبو على مضمار الحزن بعيدة جدّاً عن إعطائه ما يستحقّه وما يليق به. فمنذ أكثر من ألف وأربعمائة سنة، والمسلمون الشيعة ما زالوا يحيون مأتم الإمام الحسين عليه السلام، وفق طقوس حزن مدروسة ومبرمجة بدقّة استحدثت لنفسها في ضمائرهم مرتبة تعلو مرتبة القداسة. ولم تكن تلك الطقوس، ولا تلك المرتبة، مما جال بوهم حمزة الهاشمي أو بيقينه أن يقاربها نقاش أو أن يطالها تغيير. ففي ليلة رأس السنة القمرية، وبعد أن

يحتفل ببدء التأريخ الهجري يبدأ العدّ التنازلي للحزن التصاعدي لديه، يقوم بكلّ ما يمكن أن يذكّر به نفسه أنه بعد عشرة أيام سيحزن . . بعد تسعة أيام سيكون حزنه كبيراً . . . بعد ثمانية أيام سيكون حزنه عارماً . . . . وهكذا يوماً بعد يوم، ومشاعره تخضع لبرمجة مدروسة تصاعدية، حتى إذا وافى العاشر من محرّم، كان مهيّأً نفسياً وجسديّاً للتطبير.

يتصدّى حمزة الهاشمي سنويّاً في يوم عاشوراء إلى تنظيم حلقة ندب ولطم خاصة به، ينافس بها الحلقات الأخرى التي تتوزّع هنا وهناك في بعض الساحات الدمشقيّة. يفعل ذلك حبّاً واحتساباً لا يرجو من ورائه أيّ هدف آخر، وإن كان الكثيرون يشيعون أنّه يفعل ذلك تثبيتاً لوجوده، بعد أن خلعت المرجعية الشيعية في دمشق عنه انتماءه، وعليه لقب "المهرطق".

عندما وجد حمزة الهاشمي - قريباً من الساحة الصغيرة التي يجمع فيها سنوياً مجموعة من المعبّئين نفسيّاً وعقائديّاً لأداء الطقوس العاشورائيّة - منصّة صغيرة قد نصبت لاحتضان حفل خطابي، توقّع أن جهة ما تريد أن تناكفه. وأوّل ما تبادر إلى ذهنه هو المرجعيّة الرسميّة، لكنّه عاد فاستبعد هذا الاحتمال فوراً، فتصرّف كهذا سيفقدها مصداقيّتها ويسلبها موقعها المرجعي. فكّر باحتمالات واحتمالات أخرى، لكنه لم يخطر بباله - على كامل طيف توقعاته - أن ابنه زين العابدين هو من نظّم هذا الحفل الخطابي، ودعا إليه خطباء من كلّ أطياف المجتمع الدمشقي على اختلاف انتماءاتهم الدينية والفكرية . كان على رأس المدعوّين جورج شماس وطه وأخوه خالد، إضافة إلى عدد من شخصيات الحيّ بمن فيهم بعض أعضاء نادي سيّد الشهداء.

وبينما انخرط حمزة الهاشمي والرهط المتحلّق حوله باللطم والنحيب، كان الفريق الآخر بكامل أناقته وقيافته، يتناوب أعضاؤه على المنصّة لإلقاء خطبهم، والتي لم تكن من حيث المعنى المباشر لها بعيدة جدّاً عن مضمون هتافات المطبرين، وإن كانت بعيدة كل البعد عن أسلوبها والهدف منها. فمقابل آليّات ضخّ الحقد والكراهية على هذا المقلب، كان على المقلب الآخر محاولات لامتصاص أحقاد عاشت مئات السنين، محاولات امتصاص لو حصلت أيّام الفاجعة، أو بعدها بقليل لآست وواست ووفّرت على المسلمين أحقاداً وضغائن، وأرواحاً ودماء، ومشوار كرب وبلاء. تحدّثت الخطب عما يعنيه الإمام الحسين عليه السلام في الإسلام، وعن مكانته التي لا تدانى لدى كافة أطياف المسلمين، نفت أية صفة دينية لقتلته، ورفعت كل حصانة عن خلافة اقترفت جرم قتاله وقتله، تحدّثت عن المعاني الإنسانية العظمى التي مثّلتها ثورته، والتي ما زال أحرار العالم يستلهمونها حتّى يومنا هذا، أعادت الخطب له مكانته التي يستحقها وبجدارة كإمام للمسلمين كلّ المسلمين، لا تحتكره فئة ولا تتنكّر له أخرى. وعندما انفضّ التجمّعان كان أصحاب زين العابدين لا يزالون على أناقتهم ونظافتهم، ليمثلوا - وكما يليق - تراث الإمام الحسين وسيرته العطرة.

متهالكاً، مدمى، ومتصبّباً عرقاً، كان حمزة الهاشمي يجرجر ساقيه عائداً إلى بيته وهو لا يدري لِمَ كل هذا؟ وهل هو يفعله لأنّه ما زال مقتنعاً به، أم أنّه أصبح لديه مجرّد عادة قهرية؟ ما مضى من عمره كلّه يشبه لحظة يتردّد فيها المرء قبل أن ينظر إلى وجهه في المرآة، وليس يدري فيما تبقّى له من عمر، هل سيواجه وجهه وجهاً لوجه أم سيبقى متردّداً. رغماً عنه، وخارجة على

كل القوانين التي التزم بها وانتظمت حياته، طفت على سطح وعيه أفكار لا عهد له بها، تسرّبت من عمق أعماق فصوص مخّه متجاوزة سحاياه وعظام جمجمته، هاربة من فتحتي عينيه ودهاليز أذنيه، لتحوّم حول رأسه هواجس غريبة وأفكاراً لا عهد له بها:

- "تستبدّ بنا فكرة ما في مرحلة ما من أعمارنا، نحبّها، بل حتّى نحبّ استبدادها بنا ثم تتقادم السنون، وتمضي بنا الأعمار، فتنوء بفكرتنا كواهلنا، ويعيا منطقنا في الدفاع عنها، ولأنّنا نحبّها نقسر منطقنا على الدخول في قوالبها، والترويج لها، وشيئاً فشيئاً يفقد منطقنا سماته وخصائصه، وشيئاً فشيئاً أيضاً نبدأ في لاوعينا نكره فكرتنا التي أحببناها زمناً، والتي اضطرتنا إلى تشويه منطقنا ومصادرة عقلنا، وتحويله مسخاً علينا تلقينه وتوجيهه بدلاً من أن يكون مرشداً لنا وهادياً. نحاول التنصل مما ورطنا به أنفسنا، والتخلص من الفكرة القديمة، فيتصدى لنا منطقنا المشوّه رادعاً وزاجراً، قسونا عليه فقسا علينا".

وعلى الطريق تناهى إلى مسامعه من الكنيسة المريمية صوت منشدة ملائكي يرتّل، أصاخ السمع إلى الكلمات التي تفوه بها المنشدة، فإذا هي تتحدّث عن معاني الفداء التي مثّلتها ثورة الحسين.

***

أحدث مصرع النمر دويّاً في وسط العائلة فاق حتى خبر وصوله، واستحوذ النبأ على كامل أحاديث الأسرة في كل لقاءاتها لمدّة طويلة، وكان هذا كله بمثابة الطوق الضاغط على عنق قابيل، حتى إنه بات يخشى مجالسة

الأسرة، فيتشاغل عن ذاك بأيّ عمل كان. وكانت سارة ترقب ما يحدث بسعادة وتشف. أمّا ساهير فكانت تصرّ كلّما اجتمعت العائلة أن تنتزع الأشواك من ظهر هابيل وكتفيه في محاولة منها لتذكير الجميع ببطولة زوجها، وبتخابث ساذج كانت تسترق النظر إلى سارة لتستطلع ردّة الفعل لديها، أمّا سارة فكانت تكتم ضحكتها قائلة في سرّها:

- "أيتها البلهاء ليس لديّ الوقت الكافي للانشغال بك، آه لو تعلمين أية خدمة تسدينها إليّ دون وعي منك"

وكما في كل مرّة تضيق بأحد أفراد الأسرة السبل، أحست حواء بموقف قابيل الصعب، وبالعزلة التي بدأ يحيط بها نفسه، فأعلنت أمام الجميع، أنها تريد أن تنسى النمر وما سبّبه لهم من رعب وقلق هم في غنى عن استمراريّته الآن من خلال التحدّث عنه، ولكنّ سارة أجابتها على الفور:

- لم تكن مجرّد فترة عصيبة ومرّت يا أمي، بل لقد كشفت لنا أبعاداً وحقائق لم نكن نراها، وما زالت ماثلة أمامنا حتى بعد مصرع النمر. ثم إنكم قد تستطيعون جميعاً أن تنسوه يا أمي أما أنا وهابيل فلا، لقد عشنا لحظات الرعب معه ولمحنا طيف الموت يعربد بين أنيابه.

قالت ساهير:

- تتحدّثين وكأنك أنت التي قتلت النمر يا سارة.

قالت هذا وانكمشت بانتظار ردّة الفعل لدى أختها التي فاجأتها بقولها:

- لا يا ساهير لم أقتل النمر لقد قتله زوجك قتله هابيل.

ثمّ نهضت فمضت إلى ساهير ووضعت جلد النمر على كتفيها قائلة:

- أنت الأحق به لست أدري كيف فاتني هذا فاعذريني.

أدرك قابيل أن حواء قد أحسّت به، وأدرك أيضاً وبطبيعة الحال أنها كفيلة بحمل جميع أفراد الأسرة على إقفال هذا الملفّ إلا سارة، فليجرّب هو إقناعها بذلك، ولكن كيف السبيل؟ فبالتأكيد لن يفلح بما يريد عن طريق الخداع والمراوغة، فهل يتخلّى عن كبريائه واعتداده برجولته، ويطلب من سارة أن ترفق به وتكفّ عن إذلاله؟ استبعد تلك الفكرة من رأسه بينما كان يمضي إلى سارة لتنفيذها فلا حل سواها.

- هل تذكرين يا سارة عشيّة خطبة هابيل إيّاك؟

ظنّته يحاول أن ينفخ في رماد حبّهما المطفأ، فأمعنت النظر فيه ملياً ثمّ سألته:

- ولماذا تتذكّر تلك العشيّة الآن؟

- أتذكّرها لأنها كانت ليلة مشهودة، بدت فيها سارة في إحدى لحظاتها النادرة، تقف مع ذاتها وقفة صدق باكية ملقية كل أقنعتها، متحدّثة من غير لفّ ولا دوران.

لمح في عينيها الحقد يعانق الوعيد:

- ولماذا تذكّرني بكل هذا يا قابيل؟

- فليطمئنّ كبرياؤك يا سارة، جئت أذكّرك بما فعلته أنت من قبل، تمهيداً

لأن أفعله أنا الآن. جئت ألقي أمامك أقنعتي، وأرجوك أن تكفّي عن إهانتي أمام أفراد الأسرة، سيّما وأنّني لا أفعل معك هذا على الإطلاق.

تمنّت أن تحدّثه عن مهانتها وألمها نتيجة عدم إنجابها، وأن تخبره أنها تحمّله مسؤولية هذا، وأحسّت كم سترتاح لو هي أفرغت على مسامعه ما تعانيه جرّاء ذلك، لكنّها خشيت أن يأتي اليوم الذي يذكّرها فيه بضعفها كما جاء يفعل الآن. تأمّلته جيّداً، تأمّلت تلك القامة الهائلة غير القادرة على معرفة ما بداخل أقرب الناس إليها دون أن تضطرّه إلى ألم الاعتراف، فرأت أن تتابع لعبتها التي لا تعلم حتّى هي إلام ترمي.

– متى ستنصرف يا قابيل عن التفكير في القشور إلى التفكير في اللباب؟ أيسوءك جداً أنّ هابيل قد صرع النمر وفاز بهذا المجد السابغ؟ إنه مجد زائل وهو إن عاش فلن يعيش لأكثر من أيام معدودة، أمّا المجد الحقيقي فهو ما يضفره هابيل حول رأسه منذ مدة طويلة. أولم تحسّ حتى الآن يا قابيل أنّ هابيل يمضي حثيثاً نحو النبوّة؟

زلزله قولها من الأعماق فقال ملتاعاً:

– من قال لك هذا يا سارة؟

– كلّ ما حولنا يقول هذا: انصرافه عن الدنيا، عزلته وانفراده، روحانيته.

قاطعها قائلاً:

– يمكنني أن أفعل الشيء نفسه.

– سيكون هذا رياء يا قابيل، هل تظن أنك ستخدع الله؟

- بل سيكون فعلاً نابعاً من الصميم مادام لقاء النبوّة.

- هناك شيء آخر يا قابيل لن تستطيع أن تفعله.

- ما هو؟

نظرت إليه وجهاً لوجه، وقالت وهي تشدّد على مخارج الحروف:

- لن تقطن النبوّة فرعاً متحطّباً وتترك غصناً مثمراً يا قابيل.

قال وهو يهزّها من كتفيها:

- أنت المسؤولة يا سارة، أنا واثق أنك أنت المسؤولة.

أزاحت كفّيه عن كتفيها بعنف وهي تقول:

- فلتجرّب غيري إذاً يا قابيل.

***

لعل الثلج فقد ذاكرته ونسي كيف يتوقّف عن الهطول، لم يتوقّع أحد أن يستمرّ الهطل أكثر من عشرة أيّام ولا شيء يوحي بقرب انقطاعه، ملأ الثلج كل الأخاديد والمعالم في جبال بلودان حتى بدت تلك الجبال وجهاً فقد قسماته، واختفت ملامحه بمشيئة طبيعة متغطرسة لا ينضب مزيدها، وجهاً فقد ملامحه تماماً كتلك الوجوه المطموسة التعابير المرابطة على زجاج النوافذ المغلقة في فيللا المحامي حسام. ندف الثلج تكاد تمرّ عبر الزجاج المضاعف، وتدخل في محاجر أولئك الرجال، وتملأ تلافيف أدمغتهم، وتحيل ذواكرهم إلى ضباب منتشر متبدّد كيفما اتفق. أودت العاصفة الثلجية بكل أشكال

الاتصالات السلكية واللاسلكية، فوضعت بذلك اللمسات الأخيرة على فكرة الانعزال المطلق. ممّا لا شكّ فيه أن المؤونة تكفي، ولكن هل المؤونة وحدها تكفي؟ فالتيار الكهربائي قد انقطع، والريح العاتية أطاحت بمدخنة الموقد، والتحدّي المترف تحوّل إلى مواجهة حقيقية مع واقع يزداد صعوبة يوماً بعد يوم. التبجّح ورفض العبودية على المحك تماماً، وصكوك الإذعان تكتبها الحياة والطبيعة بصلف من ينتظر بسادية إمضاء الطرف الآخر. انسفحت كرامة النبيذ المعتّق من سنين وهو يُكرع من غير تلذّذ ولا تذوّق، وإن كان يؤسّس لصنف آخر أخرجه حسام من مخابئه.

- هل تعاطيت هذا من قبل يا حسام؟

- منذ زمن طويل.

تمطّت لديهم الجرأة الأزلية لدى بني البشر على اقتراف المحظور، وعلى نهج أبيهم آدم ساروا، لكنّهم بدلاً من أن يغادروا الفردوس ولجوا إليه.

- نحن أسياد العالم، نحن الوحيدون الذين أدركوا كنه الحياة.

ضجّ في آذانهم صوت رياض:

- أدركتم كنه الحياة وقد أتيتموها مكرهين؟

- صه يا رياض، لا تفسد علينا روعة ما نحن فيه.

سكت صوت رياض، ولكن بعد أن خدش انتصارهم. لكنّ هذا لم يمنعهم أن يلقّموا جهاز التسجيل بأكثر الأغاني ضوضاء، وأن يجعلوا معدل الصوت في حدّه الأعلى. رقص كلّ منهم كما وجّهه سلطان الصنف

غير عابئ بحركات الآخرين. أين هم الآن من حلقات الدبكة، والرقص المنظم الذي كانوا يزخرفون به مجالسهم وسهراتهم في خمارة جورية؟ "خمارة جورية"! فعلاً كانت من أكثر الأماكن تقية، وأقرب ما تكون لمعبد تزجى فيه الصلوات. وكما كلّ الأطفال، بعد أن أخذ منهم التعب مأخذه جلسوا يبكون لأنهم مرهقون.

نهض الممثّل زاهر ومشى متثاقلاً صوب النافذة، إله الثلج ما زال نشطاً، وندف الثلج المتراكمة توشك أن تصل إلى أعلى زجاج النافذة:

- ما أحوجنا إلى المرأة.

عقّب إياد:

- فاتك هذا يا حسام.

مسح حسام دموعه، وكما لو أنه تذكّر شيئاً من زمن غابر، أخذ يهذي وقد توارت ملامح البكاء على وجهه تحت مسحة من ابتسامة شفيفة:

- قالت لي الممرّضة في المشفى: "اطمئن أستاذ حسام ، زوجتك لا تستطيع التبرّع بكليتها". سررت بذلك وشكرت الممرضة التي تابعت هامسة لزميلتها: "أفادت التحاليل أن زوجته ليست ابنة أبيها".

أطلق ضحكات متقطعة اختلطت بالبكاء:

- تزوّجت وعشت وأنجبت من "بنت حرام"! لا، لن أذعن لقدري، ولن أستمرّ معها. صحيح أنه يؤرقني مصير ابنتي، ولكن ما أدراني أنها ابنتي وما أدراني أنّ زوجتي ليست كأمها. حماتي! هي امرأة محجبة مواظبة على الصلاة

والصيام وتلاوة القرآن. لم أعد أفهم شيئاً.

عن غير قصد، لم يكن حسام مخطئاً في اختياره هذا الزمان والمكان ليزيح عن صدره ما جثم عليه، فإنّ أحداً من الحاضرين لم يكترث للأمر كثيراً، وإن كان إياد قد تساءل بلا مبالاة:

- والآن ماذا تنوي أن تفعل؟

- أفكّر في السفر.

لاعب خط الوسط في خمارة جورية، أسامة، لم يكن في يوم سعده، كان يجرجر ساقيه متثاقلاً متأرجحاً بين الوعي واللاوعي، وقريحته المعتادة في ارتجال الكلام في اللحظة المناسبة قد شابها النضوب. تساءل محتاراً:

- هل كنّا نضحك ونرقص منذ قليل أم أنني أتوهم ذلك؟

قال إياد:

- كنّا، أليس كذلك؟ ألم نكن؟

وشيئاً فشيئاً غاب الجميع في سهوب اللاوعي الفسيحة. تلك الحالات هي فرص نادرة للعقل البشري في أن يتحرّر من سلطة الكيان من جسد وميول وأهواء. نخطئ إذ نظن أنّنا نغيّبُ عقولنا، إنّها لا تغيب، فقط تغادرنا وترقبنا عن كثب. انسحبت عقول الحاضرين إلى ركن منفرد، وتحلّقت حول طاولة الطعام:

- خُلق الإنسان كي يأتمر بعقله ويتحكم في سائر مكوّناته الأخرى،

فاستسلم لمرامي سائر مكوّناته الأخرى وتحكّم بعقله.

– المشكلة أنهم ينسبون إلينا أفكارهم بعد أن يقسرونا على تبنيها.

– وهم يدفعون ثمن ذلك منذ بدء الخليقة.

– حتى وهم يدفعون الأثمان الباهظة تجدهم يستنتجون أنّ العقل البشري قاصر، وأنه هو المسؤول عمّا آلت أمورهم إليه.

– حتى شاعرهم الملهم يقول: "ذو العقل يشقى في النعيم بعقله"

– لا أيها الشاعر النجيب، لم تشق بعقلك بل شقي عقلك بك.

– لم يستوعبوا حتى الآن أنّنا من طبيعة لا تخطئ. الصواب جوهرها. لكنهم مصرّون على امتطائنا وأخذنا إلى مواقع الخطأ.

– أنصتوا إليهم كيف بدؤوا يتشاجرون.

– هذا مثير للشفقة، نبل جوهرنا يمنعنا من اللامبالاة بأمرهم.

– لا حيلة لنا الآن بأمرهم، نحن منفيّون إلى أجل مسمّى.

– انظروا، انظروا. إنّهم يتعاطون المخدّر بطريقة مجنونة، هذا مخز للغاية.

– هل تتوقّع أن ينساقوا أكثر فأكثر في هذا؟

– لاشكّ في ذلك فللسيل مسار واحد.

– يلوح لي أنّ فترة مكوثنا معهم قاربت أجلها المحتوم.



كما في كل يوم فرشت الشمس أشعتها البرتقالية على بحر طرطوس، وعابثت نسمات الأصيل صفحته الزرقاء الصافيه فرسمت عليها خطوطاً بيضاء فائرة. لم يتغير في ذاك النظام أي شيء. بل حتى المدينة ما زالت على حالها، مدينة صغيرة جميلة، ما إن يحين وقت الأصيل، حتى تختزل نفسها بخط متطاول يمتد بمحاذاة البحر كجسد شبق يتلوى. وهاهم شباب المدينة وشاباتها يجوبون هذا الخط جيئة وذهاباً بملابسهم العصرية جداً، المختلفة الأشكال والألوان وسط مجموعات السيّاح والمصطافين. مرفأ أرواد يضج بالسفن الصغيرة والكبيرة المتأرجحة بمرح وطفولة في مياه المرفأ الصغير. والسفن الذاهبة والعائدة إلى الجزيرة ومنها تكاد ترسم في البحر خطاً متصلاً لا ينقطع، وشوادر السمك تتبارى بعرض أكبر الأسماك وأغربها، التي يصطادها يومياً صيادون عتاة، توارثوا مهنتهم أباً عن جد منذ أيام فينيقيا. وهؤلاء هم باعة البوظة والذرة يشكلون على الكورنيش محطات ثابتة ومتحركة. كل شيء على حاله لم يتغير فيه شيء، وكان هذا كله أقل من عادي، ففترة غياب نزار هي أقصر بكثير كثير مما يحتاجه واقع كي يتغير، وإن كان نزار يراها حقبة طوت أجيالاً وأجيالاً، وانطوت على ريح صرصر، قلبت أسس الحياة رأساً على عقب، حتى كادت تودي بعرش الله نفسه. جلس على أحد المقاعد المنتشرة على طول الرصيف، وأخذ يتأمل الوجوه العابرة أمامه، وجوهاً مستبشرة مطمئنة توزع الابتسام والفرح يميناً ويساراً. كان يتساءل: "هل الناس حقاً سعداء؟ أم أن لكل وجه من هذه الوجوه وجهاً آخر". أحس بشوق حقيقي في أعماقه لأن يسفر هو الآخر عن وجهه السعيد، ولعل الزمن يتكفل بالوجه الآخر له، كما تكفل بوجهه المقبل

على الحياة خلال الشهور الماضية. وخلقت ابتسامة نفسها على شفتيه دون تدخّل منه، ظنّها أصدقاؤه المقبلون إليه أنها تحية الاستقبال. عانقوه واحداً واحداً، وبدأت الأحاديث المتنوعة تتتالى واحداً إثر آخر، تحدّثوا إليه كما تحدّث إليهم، واستعرضوا جميعاً أحوالهم وأخبارهم، وأخبار زملاء آخرين لهم جمعت ما بينهم مقاعد الدراسة، فهؤلاء موزعون ما بين محافظات القطر يدرسون في جامعاتها، وأولئك سافروا في بعثات خارجية، وذاك يعمل قبطاناً بالوراثة على باخرة أبيه. وبدأت الحياة تتلون وتتألق وتتأطر بإطارها الأليق بها. وفي خضم هذا الواقع الجديد والأليف، انتبه إلى تركيبة مشاعره وهي تدور مئة وثمانين درجة، لكنه لم يحس أبداً أنه مصادر. وعندما عاد في المساء، كان يشفق على نفسه أن تتسارع خطواته وهو يعبر أزقة الحي الذي أحب "حيّ الساحة" الحي الذي وُلد وترعرع وشب فيه، بناسه الطيبين، وبيوته المتجاورة المتلاحمة، وضوضاء باعته الحميمة. وها هو الجامع الصغير قلب الحيّ النابض، وملتقى أبنائه ما زال يربض حيث كان، يوزع الرحمة والتواصل بين أبناء الحي. لقد بدأ يستعيد شيئاً فشيئاً الأحاسيس التي كانت تمنحه إيّاها هذه التفاصيل الصغيرة المحيطة به، لكنها أبداً لن تكون نسخة طبق الأصل من الأحاسيس القديمة، أحاسيس نزار إزاء هذه الرموز الحياتية العتيقة أحاسيس جديدة لنزار جديد، نزار مزوّد بتجربة غنية علّمته بمقدار ما أوجعته، نزار مزوّد برصيد ثمين مقداره دورة كاملة على دائرة الدكتور سميح. في البيت لمح أمه المحامية ناديا منهمكة بإعداد مسودة لقضية العمر، وقف على باب الغرفة بضع ثوان لكنها لم تنتبه إليه، كانت تقرأ بتمعّن دفتر المذكرات الوردي ثم تسجل ملاحظاتها على ورقة جانبية، وعلى وجهها

مسحة من الإصرار لم يرها على وجه أمه مذ عرف وجه أمه. تمتم لنفسه قائلاً:

- "نهايات الدروب تحددها بداياتها، كان لا بد أن ندفع هذا الثمن يا أمي"

وعندما استقر في حجرته، وفتح نافذتها المطلة على البحر، فدخلت النسمات المنعشة تحيي في الغرفة ما هجع منذ زمن، وتمسح بطهرها أدران المواريث المعنكبة على الزوايا، فاجأته رغبة مباغتة اعتصرت حبة قلبه، فمضى معها والدموع تكاد تطفر من عينيه. لم يعرف كم من الوقت أمضى مع السجادة الرفيقة، ولا عدد المرات التي مسح بها جبينه، لكنه عندما فرغ من صلاته وجد زوج أمه يرقبه بسعادة لا توصف:

- حمداً لله أن عدت تنعم بهذه الطمأنينة يا بني.

ولأنه يعلم أن عمّه لن يستوعب قوله إن هو قال:

- "طمأنينة لن تخبرها على حقيقتها لأنك لم تدفع ثمنها"

لذلك لم يقل له هذا.

***

ما يبدو لنا على أنه تغيير هائل يطرأ على حياتنا، لا يبدو للحياة ذاتها أكثر من تعديل طفيف في ديكور مسرحها. فما زال ديكور المسرح الحياتي هو ذاته وإن طرأت عليه تغييرات طفيفة، لا زالت السهرات العائلية على شاطئ النهر هي هي، وإن باتت ساهير تحتضن طفلتها الجميلة التي يحيطها الجدّان بكل حب واهتمام. بل أكثر من ذلك، تبقى السهرات هي نفسها حتى وإن باتت سارة تتحسس وهي جالسة بطنها المنتفخ المتكور، سارة حامل!!

سقط الخبر على العائلة سقوط الغيث على الأرض العطشى، حدث كان كفيلاً بأن يصالح سارة مع حياتها إلى حد بعيد، وخاصة فيما يتعلق بعلاقتها بهابيل، وهذا ما حصل، لكن الذي لم يحصل أنه لم يرو ظمأ قابيل، فالأبوّة لديه أصبحت تحتل موقعاً خلفياً، مفسحة الساحة الأمامية من اهتمامه برمتها للنبوّة. وعدم تفاعل قابيل كما يجب مع الحدث زاد من احتقار سارة وحقدها عليه. انتهاء حالة الحرب بين قطبي الحوار في العائلة - هابيل وسارة - قد لوّن أماسي الأسرة بأطياف متعددة من الأحاديث والنقاشات افتقدتها الأسرة منذ زمن، لدرجة أن آدم وحواء كانا يكتفيان بدور المستمع مستغرقين في الإنصات لأحاديث ابنيهما. بكت الطفلة في حضن ساهير، فحملتها أمها ومضت إلى ركن قصي تهدهدها فيه. وهناك في ركنها المظلم الذي لا يرده حتى شعاع القمر، في ذلك المكان الذي تخفره أشجار الصفصاف الكثيفة، وينساب بجواره النهر صامتاً مسرعاً فوق صخور ملساء. أعلنت ساهير حالة من التواصل بين سني عمرها، فأطل حاضرها على ماضيها عبر بوابات الزمن المصمتة. واختلج الماضي وسرى فيه دبيب حياة وليدة، فتتالى صوراً متلاحقة حيية تتالي أجساد عارية أمام أعين غريبة. ورغم خجل الماضي وحيائه، فإنه لم يضنّ باستعراض كل خباياه، تحدوه إلى ذلك تلك الحاجة المجهولة الغامضة التي تدفع الأشياء دوماً إلى الإعلان عن نفسها.

"لقد كنت على الدوام قليلة الكلام ضيقة الأفق، ولكنني لم أكن عديمة الشخصية فاقدة الملامح كما أنا الآن. ما الذي حصل لي؟ ولِمَ انحسرت بهذه الطريقة المحزنة؟ فأنا منذ أن تزوجت بهابيل دخلت شرنقته، ومحوت شخصيتي بشخصيته، لكنه ما ترجل على أرضي ولا حلّقت في سمائه. وها أنا

أدخل حلقة مفرغة، يزيدني الانحسار سطحية وتزيدني السطحية انحساراً ."

أيقظها من مواجهتها مع نفسها صوت قابيل، لم تسمع ما قاله جيداً، بل بهتت لمجيئه، لم تكن قد تبادلت حديثاً معه منذ أن تزوج كل منهما. سألته:

- قابيل! لِمَ قاطعتني تلك المدة الطويلة يا قابيل؟

- وهل كنا متخاصمين يا ساهير؟

- هل تذكر حديثاً، أي حديث، جرى بيننا بعد أن تزوجنا؟

حاول أن يتذكر فلم يفلح فقال معترفاً:

- لا أذكر الآن شيئاً، ولكن ثقي أنني لم أقصد ذلك.

- هنا جوهر المشكلة يا قابيل، أنا أيضاً لم أقصد خصامك.

- هل تعنين أننا قد نسي بعضنا بعضنا الآخر؟

قالت وذل الاعتراف المكابر يحاصرها:

- بل تشجع وقل نسينا أنفسنا يا قابيل، أجل أنا وأنت نسينا أنفسنا ودرنا في فلك الآخرين لدرجة أننا ما عدنا نحس حتى بوجودنا.

لم يكن يحلو له أن يدخل معها في هذا الحوار، فقد كان لديه ما يشغله عنه، سألها:

- لم تجيبي يا ساهير، هل هناك خلاف بينك وبين هابيل؟

- أجابته ساهير مندهشة:

- أبداً، من أوحى إليك بهذا؟

- كنت مستاءة منه خلال جلوسك معنا.

- بل كنت مستاءة من نفسي.

- كفانا مكابرة يا ساهير، أجيبيني أكاد أجن، أتشكين بوجود علاقة بين زوجك وزوجتي؟

عقدت حاجبيها رعباً ودهشة وهي تقول:

- كيف تجرؤ على هذا الظن أيها المجنون؟!

- أقول لك إن الأمر يعنيك كما يعنيني بالضبط فدعينا نتصارح ألا تحسين فتوراً بعلاقتك بهابيل؟

- لا أنكر الفتور في علاقتي بهابيل، ولكن مرد ذلك إلى كونه من معدن مختلف، إنّ له عالمه الهلامي الخاص الذي لا يشبه عالمنا يا قابيل.

- لَمَ لا يكون مرد ذلك إلى أنه يعوّض هذا الفتور بعلاقة أخرى مع امرأة أخرى هي زوجتي؟

- ولكن ما الذي يجعلك تشكّ بهذا؟

- حمل سارة المتزامن مع التقارب الحاصل بينها وبين هابيل.

- لقد حملت سارة قبل هذا التقارب صدقني.

- بل نحن لم ننتبه إلى هذا التقارب إلا متأخرين.

صمتت للحظات ثم تنهدت قائلة:

– كلامك هذا يزيد في تعقيد مهمة كنت أنوي القيام بها يا قابيل.

– أية مهمة؟

– أخشى أن تظنني أشاطرك الشك بهابيل إن عرفتها؟

– قولي يا ساهير ولن أربط بين الموضوعين أبداً.

قالت وعلى وجهها ملامح إصرار افتقدته منذ زمن:

– سأطلب الطلاق من هابيل.

قال والدهشة تتملكه:

– ولكن لماذا إن لم تكوني تشكين به؟!

– ووعدك يا قابيل؟

– آسف، إنني مرغم على التنكر له، المجنون وحده من لا يربط بين الموضوعين يا ساهير.

لفظ كلماته الأخيرة والشرر يكاد أن يتطاير من عينيه، فقالت ساهير محاولة التهدئة من روعه:

– صدقني يا أخي، كل ما أريده من طلاقي أن أستعيد نفسي التي افتقدتها منذ أن تزوجت بهابيل، أريد أن أسترد شخصيتي وكياني أليس هذا من حقي؟

قاطعها قائلاً:

– كفّي عن كل هذا بحق السماء، أحس برأسي يكاد أن ينفجر.

قالت محاولة إقفال الموضوع:

– لقد مضى من الليل أكثره، والسامرون على ضفاف النهر أوى كل منهم إلى مضجعه، فلنذهب نحن أيضاً يا قابيل، اذهب فنم واطرد كل هذه الأوهام من رأسك.

– سأذهب يا ساهير، ولكن تأكدي أن تلك الأفكار ستلازمني حتى أقطع الشك باليقين، حتى أتأكد أنها فعلاً أوهام كما تقولين. أما أنت ففكري بها أيضاً فقد لا تكون أوهاماً على الإطلاق.

انتهت بسرعة مرحلة الدهشة التي زرعها قرار ساهير الحاسم في نفوس أفراد الأسرة، لتليها المرحلة الأهم والأكثر واقعية، وهي مرحلة القبول بالأمر الواقع. لقد كان هناك تأهّب ضمني لدى الجميع لتقبل أمر كهذا. فآدم وحواء كانا يحسان أن هابيل لا يرغب في أن يكون زوجاً، لكنه يضطلع بتلك المهمة بدافع من الواجب العائلي. لذا أدركا أن طلاق ساهير منه سيكون أدعى لراحته وراحتها. أما قابيل الذي لسعه القرار بدأة ذي بدء، ظنّ أخيراً أنه سيجد في ساهير مستودع أحقاد رحباً على هابيل وسارة، يمكنه أن يأخذ منه ويستودع فيه ما شاء له من مشاعر الحقد تجاههما. لكن الذي حدث كان خلاف ذلك تماماً. لقد انتعشت من جديد علاقة ساهير بهابيل بعد أن بات كل منهما يسكن كوخاً منفرداً، وكانت العلاقة صحيحة صادقة هذه المرّة مؤطرة بالإطار الأنسب والأليق بها. بل أكثر من هذا، فقد بات أمراً

مألوفاً أن تُرى ساهير وسارة تتساران وتتضاحكان على شاطئ النهر صباح مساء، تقدّم لها ساهير النصائح والخبرات المكتسبة جرّاء تجربتها السابقة في الحمل، بينما تساعد سارة شقيقتها، وتقدّم لها العون بالاعتناء بطفلتها التي تشبه خالتها إلى حد مدهش. فزاد هذا كله من عزلة قابيل لدرجة بدأ يجد نفسه جسماً غريباً في كيان العائلة.

- "أي ذنب أتيته كي أستحق عليه هذا العقاب؟ لطالما ترفعت فوق خلافات الآخرين، ووقفت مواقف نبيلة إزاء بعض الأحداث".

كان يقصد طبعاً موقفه من سارة يوم هاجمت هابيل أمام سمع الجميع وبصرهم دون أن يقترف بحقها أدنى ذنب يستحق عليه هذا الهجوم، لكنه تجاهل تراجعه السريع أمام قوة شخصيتها، وجبنه عن التمسك بموقفه السليم إزاء إصرارها على التمسك بباطلها. وهام قابيل على وجهه، وأخذ يقضي الساعات الطوال يتسلق الجبال ويهبط الوديان، مرهقاً جسده ما استطاع أن يحتمل الإرهاق، كي يقتل داخل ذلك الجسد الأفكار اللاهبة المهلكة. فإذا كان المساء عاد بقدمين متورمتين، ورأس أثقله الصداع وهيكل ضخم أخذت تنخر فيه الهموم. فيلقي بقدميه إلى ماء الغدير، ويستسلم لخدر واه يعده بوأد همومه لكنه في النهاية لا يفعل. وكهبة عجيبة من القدر لم يكن حتى ليحلم بحدوثها سألته سارة مرّة:

- ما بك يا قابيل؟

فاجأته تلك النعمة المباغتة، فلم يحسن الاستفادة منها، بل اندفع بحمق يتساءل:

- هل ذاك الذي ينمو في أحشائك هو ابني يا سارة؟

ربما انتقاماً من ماضيه الآثم في نظرها، أو انتقاماً من شكوكه الحاضرة في سلوكها، أو رغبة في الاستفادة من ميزة أسبغتها الحياة عليها كامرأة، المهم أن سارة أجابته:

- لن تسمع مني الجواب الشافي ما حييت.

- سارة أرجوك افهميني فأنا فعلاً أرغب في أن أفهمك.

- يلزمك عمر آخر كي تفهمني يا قابيل.

ومضت مبتعدة في الغابة ليبتلعها الظلام رويداً رويداً، تاركة قابيل وحيداً يفكر في قوة وجبروت تلك التي تبكي الآن في الظلام بين جذوع الأشجار العملاقة.

وفي هذا الوقت الذي انتصب فيه الماضي كله أمام عيني قابيل كياناً ضخماً من التناقضات والآلام والشكوك، في هذا الوقت الذي انسحبت فيه سارة مبتعدة بين الأشجار تسوق أمامها بطنها المنتفخ الممتلئ بالخطيئة، في هذا الوقت الذي تضخمت فيه كل الأشياء إلا فسحة الأمل المحيطة بقابيل، في هذا الوقت كان ظلام الغابة يتمخض عن شخص يقترب من شاطئ النهر، وعبر أمام عيني قابيل شبح هابيل مطرقاً شارداً، كيف حدث هذا؟ لا أحد يدري، حتى قابيل لم يعرف متى اتخذ القرار ومتى بدأ التنفيذ، كل ما يعلمه أنه وجد نفسه وجهاً لوجه أمام هابيل، فانقض عليه انقضاض الوحش الكاسر، واشتبك معه في صراع محموم مجاني، وأسفرت المعركة عن سقوط

قابيل. وعندما استفاق من ذهوله لم يجد أحداً أمامه.

كذبة كبرى لا يعرف متى وُلدت ولا كيف ترعرعت لكنها الآن تُدحض تماماً. هابيل هو الأقوى! رغم شحوبه ورغم هزاله، رغم قامة قابيل ورغم انتفاخ عضلاته، رغم كل شيء، هابيل هو الأقوى!

وبكى قابيل بصوته العريض بكاء مرّاً كبكاء الأطفال.

وعند الصباح لم يكن قابيل متأكداً من حقيقة ما حصل ليلة أمس، أكان واقعاً أم حلماً مزعجاً أنجبه تعبه وإرهاقه طيلة ساعات النهار. حاول تجنب لقاء هابيل والانزواء منفرداً متابعاً من بعيد حركات أخيه وتصرفاته، ولم يظهر على هابيل أي دليل يؤكد حدوث الواقعة أو ينفيها. وظل قابيل في منفاه إلى أن سمع صوت آدم يناديه وهابيل، فأسقط في يده ومشى باتجاه أبيه وكأن قوة أخرى لا علاقة لها به البتة هي التي تحرك قدميه. ورغم قصر الزمن اللازم له كي يصل إلى حيث كان يجلس آدم، فإن أفكاراً لا حصر لها قد دارت في خلده. وتخيّل أحاديث ومواقف عدّة كلها محرجة ومخزية، وانتهى تطوافه مع أفكاره على صوت أبيه يقول:

– لقد جرت العادة كما تعلمان أن أذبح كل عام أكبر كبش لدي قرباناً لله تعالى كي تلد نعاجي التوائم وبأكبر عدد من الإناث. أما هذا العام فقد اقتسمتما الخراف بينكما، وهذا يتطلب أن يذبح كل منكما أكبر كبش لديه نذراً لله عزّ وجل، كي يبارك له في قطيعه كما كان يبارك لي من قبل.

وامتثل الشابان لأمر أبيهما، واختار كل منهما أكبر ما لديه، وكان كبش قابيل هو الأكبر فسرّ لذلك غاية السرور. ومرّت الأيام وأنجبت النعاج،

فوضعت نعاج هابيل التوائم المؤنثة في حين ماتت أكثر نعاج قابيل دون الولادة. وجنّ جنونه:

- "هي النبوة إذا لا محالة".

ذات صباح بادرت سارة زوجها قائلة:

- إنني اليوم منهكة فاسرح في القطيع أنت يا قابيل.

ومضى قابيل وهابيل معاً يحفّ بهما قطيعاهما عبر الجبال القريبة، سار هابيل في المقدمة، في حين تأخر قابيل قليلاً ليجمع ما تخلّف من الأغنام، ويحفزه على اللحاق بركب القطيع. ووسط تلك الهضاب والسهوب الفسيحة حدّث قابيل نفسه قائلاً:

- "في تلك المساحات الواسعة الخاوية تقضي سارة وهابيل منفردين ساعات النهار الطويلة"

وعلى ثغاء الأغنام ووقع حوافرها "تناهى إلى مسامع قابيل صوت سارة تصرخ صراخاً يشبه صراخ ساهير أثناء الولادة"، تشاغل عن شبح الصوت هذا بالنظر إلى الأغنام واحداً بعد الآخر، فانتهى به المطاف إلى هابيل "وعاد الصراخ يضج في أذنيه، ورأى أمه وساهير منهمكتين في التخفيف عن سارة، ومساعدتها على الولادة، بينما كان هابيل يقف مضطرباً قلقاً، ينتظر نهوض سارة من الولادة بسلام". كاد أن يصرخ وما شأنك أنت يا هابيل، لكنه كفّ عندما نظر إليه فوجده يسير في المقدمة صامتاً مطرقاً. "عاد الصراخ إلى أذنيه من جديد" وعبثاً حاول إسكاته فلم يستطع "وفجأة تناهى إلى مسامعه بكاء

طفل. أسرع في المسير إلى حيث ترقد سارة" إلى أن بلغ هابيل تقريباً، "كان الطفل يبكي بين يدي حواء وكل شيء فيه ينطق أنه ابن هابيل، أما هابيل وسارة فكانا ينظران إليه برعب شديد". صعدت الدماء إلى رأسه وأحس الأرض تدور أمام عينيه فواسى نفسه قائلاً:

- "كل هذا لم يحدث"

وأجاب نفسه على الفور:

- "بيد أنه سوف يحدث".

أراد أن يريح نفسه قليلاً فحدّثها قائلاً:

- "ليذهب هابيل وسارة إلى الجحيم، ليتزوجا إن أرادا ذلك، ولينجبا ما شاءا من الأطفال".

قاده ذلك إلى التفكير بساهير فغمغم:

- "ما أرجح عقلك يا ساهير".

وتصدى لتلك الأفكار هاجس معاكس يقول:

- "ساهير اقتنعت بابنتها وابتعدت عن ساحة الصراع، أما أنت كيف ستعرف إن كان جنين سارة هو ابنك أم لا، وهبه كان كذلك فما زال أمامك التحدي الأكبر، إنه الصراع على النبوّة"

ونظر إلى هابيل نظرة تفيض بالاشمئزاز:

- "هل يعقل أن يظفر ذلك الفاجر بالنبوّة"

وتذكر امتحان القربان:

- "إذاً فالله قد اختار نبيّه وانتهى الأمر"

وتمطّت في أعماقه الرغبة بالتحدي المطلق، تحدي كل شيء، بدءاً من الجنين الذي لم يولد بعد وانتهاء بالله نفسه.

كانا على قمة الجبل، الغيوم الرمادية تمنح السماء وجهاً مكفهراً، والسفح يتهاوى في الأعماق السحيقة، وهابيل يسير مطرقاً شارداً "وسارة تتقيأ حملها، ونعاجه تموت دون الولادة، وحواء تتفجع على حدث لم يكن يدري إن كان قد حدث أم لا"

كان هابيل ممدداً على الأرض يتفجر الدم من رأسه، والحجر القاتل يتدحرج على السفح المنحدر باتجاه الأعماق السحيقة، وقابيل يجلس على الأرض في حالة من الانسلاخ الكامل عن التفكير.

جنحت الشمس نحو المغيب، فانبعثت منها الأشعة الملتهبة رماحاً انغرزت في أصقاع السماء، وغلّ أحدها في كبد الشمس نفسها، فانبجست منها الدماء النارية، وفاضت إلى أن غمرت الهضاب والسهول، واختلط دم هابيل بدم الشمس، ففاحت رائحة الدم الحديدية تملأ الأرض والسماء. ومشت الأغنام بخطوات ملولة مترددة، وثغاء ممض كئيب مشكلة حول قابيل حلقة تضيق وتضيق. "وتناهى إلى مسامعه صوت سارة تصرخ صراخاً يشبه صراخ ساهير أثناء الولادة"، تشاغل عن الصوت بالنظر إلى الأغنام

واحداً بعد الآخر فلم ينته المطاف به بهابيل.

- "هابيل مات".

لم يصدّق نفسه، فأعاد العبارة بصوت مسموع هذه المرّة:

- هابيل مات!

كان لكلمة "مات" وقع غير مألوف في أذنيه فكررها بصوت واضح جلي:

- مات، مات . . .

وتأكد أخيراً من تلك الحقيقة المرعبة. راودته الرغبة في البكاء، تمنى لو يبكي بكامل كيانه لا بعينيه فحسب، لكن البكاء امتنع عليه هذه المرّة. تلفت يمنة ويسرة كأنما هو يبحث عن متنفس له. ازدادت حركته اتساعاً، تحوّلت إلى عدو هنا وهناك وفي كل الاتجاهات، وأخذ يطلق أصواتاً غريزية لاهي بالصراخ ولا البكاء. وتناهى إلى مسامعه صوت سارة تصرخ صراخاً يشبه صراخ ساهير أثناء الولادة. لم يكن من الممكن تجاهل الصوت هذه المرّة، فاستسلم إليه وتابع السير قدما نحو الأمام، واتضح الصوت أكثر فأكثر، إلى أن اقترب من الأكواخ ضجّ في أذنيه بكاء طفل صغير. أسرع راكضاً صوب مصدر الصوت. وهناك وقف مذهولاً لاهثاً، كان طفله بين يدي حواء وكل شيء فيه يشبه هابيل، كل شيء حتى لحيته الشقراء الطويلة.

***

عند منتصف الليل، وبعد أن غطّت السيدة وسيلة بنوم عميق مستسلمة لأحلام ليلية لن تتفوق مهما مالأتها نواميس النوم المتساهلة على أحلام

يقظتها، كان هناك من يثبّت كاميرا مخفية على مدخل شقتها تمهيداً للعبة خسيسة ستحصل عند الصباح.

"ظلام دامس يحيط بكل شيء، يلف جنبات المكان، ويخترق جسد السيدة وسيلة متدفقاً إلى أعماقها محيلاً دخيلتها سواداً بسواد، جسدها المسجى على السرير غير قادر على الإتيان بأية حركة. هل أنا ميتة؟ انتظرت جواباً من نفسها لكن الجواب تمنّع ولم يأت. ضجيج وأصوات لاهية تصعد الدرج، تمرّ من أمام باب شقتها صاعدة صوب شقة الراقصة مفاتن. لا شك أنهم ضيوف قدموا إليها لقضاء سهرة صاخبة. ليتها تستطيع النهوض وملاقاتهم لتخبرهم عن حقيقة مضيفتهم ونذالة طبعها، ولكنها لا تستطيع الحركة. هل أنا ميتة؟! سألت نفسها من جديد، بطريقة ما علمت أنها ليست ميتة بل مقيّدة. من وضع القيود في يديّ وقدميّ؟ الضيوف يبلغون شقة الراقصة ويملؤون الجو بلغطهم وضجيجهم. توجس أنها ستقضي ليلة سوداء. الغناء والرقص على أشدّه في الأعلى، ومن بين العديد العديد من الراقصات تستطيع أن تميّز وقع كعب الراقصة مفاتن، لكن صوتاً آخر عصف في أذنيها أقوى بكثير من طقطقة كعب الحذاء. الراقصة تصرخ وتستغيث! ما الذي حدث؟! لغط من جديد وأصوات متداخلة تسمعها ولكن لا تميّز كلماتها. خطوات ملهوفة تنزل الدرج هذه المرّة. طرقات ملحّة على باب شقتها، ولكنها غير قادرة على الحركة. يُفتح الباب من تلقاء نفسه، أو أن أحداً يفتحه بطريقة غير مفهومة. يهرع عدد من أطراف الحفل الذي تحوّل مناحة نحو حجرتها مستضيئين بضوء نابع من رجل يواكبهم، ولكن يبدو عليهم أنهم لا يرونه. في الوقت الذي يتوسل فيه القادمون إليها أن تصعد لإنقاذ جارتها مما

هي فيه، يقترب الرجل المضيء غير المرئي فيفكّ قيود يديها وقدميها. تصعد معهم إلى الطابق الأعلى، لتجد الراقصة منهارة، وقد انغرز كعب حذائها في بلاط الشقة في الوقت الذي التصق نعل الحذاء بقدمها. تقف السيدة وسيلة محتارة ماذا يمكنها أن تفعل. يقترب منها الرجل المضيء غير المرئي لغيرها قائلاً لها:

- هذا وقتك يا نظام.

- من أنت؟!

يبتسم لها ابتسامة لم تر أجمل منها في حياتها فيتحشرج صوتها في حنجرتها:

- محيي الدين!

- محيي الدين يا نظام، مدّي لها يدك واسحبيها برفق، يُقتلع كعب حذائها من الأرض وينفصل نعلها عن قدمها.

- ولكنني لا أريد أن أفعل ذلك.

- بل تفعلين يا نظام، لأنك نظام، وستحتقر نفسها مدى الحياة".

استفاقت السيدة وسيلة من حلمها على صوت جرس الباب يرن، نهضت من فراشها مفعمة بالأمل وقد أشرقت شمس الصباح، ففتحت الباب لتجد نفسها وجهاً لوجه أمام شاب فارع الطول، عريض المنكبين، ببشرة بيضاء نقية تشوبها حمرة منسجمة مع شقرة شعره وشاربيه، يرتدي بنطالاً أبيض ناصع البياض، وقميصاً أزرق مع ربطة عنق بيضاء. بدا لها بهيئته تلك وكأنه قطعة من سماء توشحت بالغيوم. سألته مأخوذة بحضوره:

- من أنت يا بني؟!

- أنا ملك كريم، أرسلني الله إليك، لأبلغك استجابته لصلواتك، ومنحه إياك الابنة التي تطلبينها.

تراكمت الكلمات في حنجرتها فلم تستطع بلوغ لسانها، فتابع الشاب بنبرة مفعمة بالبشرى:

- نعم، نعم، ستكون لك الابنة المنشودة.

تغلبت على تثاقل لسانها لتقول بدلع تشوبه الدهشة:

- ولكن كيف؟ ولم يمسسني بشر!

كاد أن يسرد على مسامعها أسماء أزواجها الخمسة، لكنه تذكّر أنه في مهمة رسمية فاكتفى بالقول:

- كذلك شاء ربك.

تحسست بطنها المتهدل فوق أعلى فخذيها قائلة كمن هو في عالم آخر:

- منذ فترة وأنا أحس أن بطني قد بدأ يتكوّر.

قال الملك متبرماً:

- لا، لا، هذا كرش لا علاقة له بالموضوع. ابنتك أرسلها لك الله جاهزة، ولن تعاني معها آلام الحمل والولادة. إنها معي.

وضعت كفها على قلبها تكاد تصرعها أمومتها، في حين أردف الملك قائلاً:

- فوتي عمو فوتي، لا تخجلي.

وسحبها من ذراعها إلى مواجهة الباب المفتوح، لتجد السيدة وسيلة نفسها وجهاً لوجه أمام الراقصة مفاتن. كان الشاب يتوقع هو ومن أرسله أن اللعبة ستنتهي هنا، وأن السيدة وسيلة ستكتشف عند هذه اللحظة أنها تعرضت لخديعة ساخرة، فتصفق الباب في وجهه وسيكتفون بما صوّروه. لكن السيدة وسيلة المشحونة بالحلم الذي كانت فيه فاجأته بأنها ما زالت ضحية لعبته، التي عليه أن يرتجل تتمتها على الهواء مباشرة. من جديد وجدت نفسها عاجزة عن النطق، أشارت بسبابتها إلى الراقصة أمامها بإشارة تعني:

- "هل هذه هي"؟!

من غير إخراج ولا سيناريو تابع الشاب قائلاً:

- ولك إي إي هي، هيي.

- وشو بدي أعمل فيها؟

رفع كتفيه وفتح كفيه محتاراً ماذا يقول قبل أن يجد كلمته:

- ربيها . .

- أعرفها تماماً، والله ما بتتربى.

- هذا شأن لا علاقة لي به سأتركك مع ابنتك وأنصرف.

- لحظة، لحظة، أرجوك. إلى متى ستبقى معي؟

من جديد وجد نفسه يرتجل:

- إلى أن يأتي نصيبها.

- هذه، سيأتي نصيبها؟!

خرجت الراقصة عن صمتها رغبة منها في إنهاء التمثيلية:

- وما الذي ينقصني أيتها الحيزبون؟

- اخرسي أيتها الوقحة.

والتفتت صوب الملك قائلة:

- هل رأيت وقاحتها؟ ألست شاهداً على عقوقها؟ لا، لا أريدها.

تبادل الشاب والراقصة النظر وكأنهما يتساءلان ما الذي علينا أن نقوله كي تنتهي اللعبة؟

- هذه سابقة لا مثيل لها! ترفضين هبة الله!!!

- لم أعد أريد الإنجاب من أصله.

- كسرت بخاطرها تبّاً لك. تعالي عمو تعالي لا تبكي.

وسحبها من ذراعها، فتراجعت بجسدها ثانية صوب فتحة الباب وذراعها ما زال في قبضة الشاب، والتفتت إلى السيدة وسيلة متوسلة:

- ماماااا

- اغربي عن وجهي أيتها العاهرة.

أغلقت السيدة وسيلة باب شقتها، وعادت إلى سريرها وهي لا تدرك

أن المسرحية التي اضطلعت ببطولتها دون أن تدري، تتناقلها الآن صفحات الإنترنت.

***

صقيع هذا الشتاء الذي لا يرحم طبع بطابعه كل تفاصيل الحياة الدمشقية، واستجاب له متضافراً وإياه صقيع من نوع آخر، غلغل في مفاصل وشرايين النوادي في دمشق. نكباتٌ وانتكاساتٌ أصابتها بلا استثناء، وإن كانت فاجعة "خمارة جورية" تطغى على ما سواها. وكما في كل المآسي الأخرى هناك دائماً ناج وحيد: "مرصد قاسيون".

كان العدد مكتملاً هذه المرّة، وصالون شقة المهندس طارق يشع دفئاً وضوءاً. سفراء النوادي الأخرى كانوا جميعاً حاضرين، بعد أن أصبح هذا النادي الحاضنة الوحيدة لهم بعد تداعي نواديهم الأخرى.

كان الجميع متلهفاً لاستقصاء حقيقة ما حصل للموسيقار إياد الطيان وزملائه في نادي "خمارة جورية". وأحس رياض بالنظرات المتسائلة تحيط به من كل صوب، ينتظر كل من أصحابها الآخر كي يطرح السؤال. فاختصر الموقف قائلاً:

– صدقوني لا أعرف عن الموضوع أكثر مما نُشر في وسائل الإعلام، لم يكن هناك شاهد وحيد على ما حصل.

قال طارق:

– ربما لو كنت معهم يا رياض لعملت على عقلنة الموقف، ولتجنبنا هذه

المأساة.

– ربما، ولكن استعراض قضاء العاصفة الثلجية في أعلى جبال بلودان لم يرق لي منذ البداية.

قال الدكتور سميح:

– رحمهم الله، قبل أن ينتحروا حقيقة كانوا يسيرون في منهج انتحار فكري.

علّق رياض بعد فترة صمت قصيرة:

– لم يكن منهجهم – والذي كنت ولا أزال أنتهجه أيضاً – في هذا الدرك الذي تتحدث عنه من السوء، بل لعل لدى كل منا في أعماقه شيئاً مما أعلنوه هم صراحة. وأعتقد أن ما حصل لم يكن ثمرة منهج فكري بقدر ما كان نتيجة وقوعهم تحت تأثير المادة المخدرة.

وكما لو أنه أراد أن يسدد إليه لكمة مقابلة، سأله:

– هل صحيح أن والدة سحر تريد أن تقاضي الدكتورة ثراء؟

– نعم، بل لقد شرعت في ذلك.

– وهل تجدي المقاضاة نفعاً في مثل هذه الحالة؟

– لست أدري، تبدو ثراء غير مبالية.

قالت لمياء:

– الحديث عن الدكتورة ثراء يفضي إلى الحديث عن السيدة وسيلة، أليس

من المعيب على المجتمع والإعلام المتهافت أن يحصل لمثل هذه السيدة ما حصل.

فقد انتشر فيديو السيدة وسيلة مع الملاك المزعوم انتشار النار في الهشيم على صفحات الإنترنت، وحقق نسب مشاهدة قياسية. قال نجم الدين:

- بالتأكيد ، من المعيب جداً. لقد حاولنا في النادي جهدنا أن نلملم الانهيار العقلي الذي أصابها ولكن دون جدوى. كانت تستيقظ لديها من أيام الطفولة أفكار لطالما دعتنا إلى نبذها ومحاربتها، فقد كانت فيما سبق تحذرنا دائماً من الاستغراق في موضوع الكرامات والمعجزات، والالتهاء بها عن مضامين التصوف الحقيقية، فإذا بها تغرق حتى أذنيها في انتظار معجزة ما. لقد قررنا حلّ النادي علّ ذلك يسهم في انحسار الضوء عنها شيئاً فشيئاً، ما يدفع المستفيدين والعابثين إلى الكف عن ممارسة ألعابهم القذرة تلك.

انتبه جورج إلى أن خالداً شارد النظرة والذهن، فكأنما هو موجود وغير موجود، فبادره متسائلاً:

- هل حُلّ الإشكال بينكم وبين طه؟

- تخطط أمي لشيء من هذا.

قالت لمياء:

- ما نعرفه أن والدتك تعمل على خط المشكلة لا الحل.

- يبدو أنها ستحل المشكلة على الطريقة التي اعتدنا دائماً حل المشكلات بها، طريقة قذف المشكلة إلى الأمام، ووضعها في ذمة القادم من الأيام.

قال جورج:

- ماذا تعني؟

- تريد أمي أن تزوّج أخي بأختي!

قطع الحديث صوت جرس الباب الخارجي، فتبادل الجميع نظرات مستغربة. قالت لمياء لطارق:

- اعتدت ألا تعطي موعداً لأحد أثناء جلساتنا.

- ما أعطيت موعداً لأحد.

- "ضاحكة" إذاً فاصرف القادم بكل تهذيب، لنتابع أخبار عرس أخيه وأخته.

- سأحاول ما استطعت إلى ذلك سبيلاً.

لم يكن هناك أي سبيل لصرف الزائر الطارئ، بل لم يكن في الجلسة أصلاً أحد ليرغب في ذلك، فالزائران كانا حزقيل وراحيل!

سريعاً بددا دهشة المجتمعين من زيارتهما المفاجئة، وبأسرع وأيسر من ذلك أنهيا أجواء الاحتفاء والترحيب بمقدمهما. فمن الصفات الهامة التي كانت تسم الزائرين تمتعهما بنقيضين هائلين: الحضور الطاغي الذي يجعلهما يملأان كل مسامات المكان الذي يحضران فيه، وطبيعة الحضور الشفافة التي تجعلهما وكأنهما غير حاضرين. هذان النقيضان جعلا الجلسة تستمر وكأنهما لم يحضرا، وبنفس الوقت وضعا الجلسة كلها بين أيديهما. قالت راحيل:

- بيتك أنيق جداً يا طارق وينم عن ذوق رفيع.

- من دواعي سروري الفائق أن أسمع منك هذا يا سيدتي.

أحبت لمياء أن تستغل الموقف في استيضاح المزيد من ضيفي السهرة:

- أتتشابه بيوتكم مع بيوتنا؟

يجيب حزقيل:

- وكيف يمكن للمكان أن يتشابه مع الزمان؟ نحن نسكن بيوتاً من زمن.

يستوضح سميح:

- وكيف يكون المنزل الزمني؟

- وكيف تصف اللغة المكانية واقعاً زمنياً؟ لن يكون ذلك ممكناً. ولكن هناك بعض التقارب في طرق التعاطي مع الأملاك ما بيننا وبينكم، وما أود أن أبينه في هذا المجال أننا مقابل ملكياتنا في كوننا الزمني، لا ندفع رسوماً وضرائب كما تفعلون، بل نزيد من رصيدنا الذهبي في خزائن السلطات لدينا مقابل كل ملكية جديدة.

قال طارق:

- وهل على كل مواطن لديكم أن يكون له رصيد ذهبي؟

- نعم، هناك رصيد أساسي تضعه السلطات في حساب كل منا، هذا الرصيد لا يمكننا سحب شيء منه إنه مكافئ المواطنة. ثم علينا أن نضيف

إلى الرصيد مكافئاً لكل ملكية جديدة، وفي حال التخلي عن بعض الأملاك نستعيد مكافئها الذهبي. وعلى أساس الرصيد الذهبي للمواطن لدينا تكون العقوبات الجزائية في حال ارتكاب المخالفات القانونية، حيث تُحتسب العقوبات كنسب مئوية تتوافق مع حجم المخالفة ومع الرصيد.

- أليس لديكم سجون؟

- لا، لا، ما الذي ستجنيه مثلاً لو ارتكبت تعدياً عليك فسجنتُ مقابل ذلك؟ مقابل اعتدائي أسدد لك ما يعادل نسبة مئوية من رصيدي الذهبي تعادل حجم التعدي، وكلما كان رصيدي أكبر كانت غرامتي أكبر.

قالت لمياء:

- هروب ذهبي من توضيح أي مفهوم زمني نرغب في الاستيضاح عنه.

قال حزقيل:

- هكذا أنتم دائماً معشر المسافيين، لا تتقبلون فكرة محدودية عقولكم وعجزها عن مقاربة الكثير من الحقائق.

تابعت راحيل مؤكدة:

- وفي غمرة جهلهم الكثير الكثير مما ينبغي عليهم معرفته، تراهم يتطاولون محاولين معرفة ماهية الله نفسه.

قال جورج:

- كي لا نسقط في هذا المطب ظهر لنا الله على صورتنا.

تهكّم خالد:

– بل شخصتم الله بسبب غروركم الذي تحدّث عنه الضيفان العزيزان الذي جعلكم تحاولون مقاربة الله.

أيّده في قوله زين العابدين:

– فعلاً هذا ما فعلتموه، وهذا ما لم نفعله نحن معشر المسلمين، فقد كنا دائماً ننزه الله عن مقاربة كهذه.

قالت راحيل موجهة كلامها إلى جورج الذي بدا عليه أنه لا يرغب في الاستطراد في هذا الحوار:

– لمَ انسحبت أمامهم بتلك الهيئة المزرية؟ ألا تعلم أنك إن عدوت أمام الآخرين أثرت فيهم غريزة المطاردة؟ موقفك ليس ضعيفاً كما يتوهمون، وموقفهم ليس قوياً كما هم دائماً يعتقدون. صحيح أن المسيحيين قد غالوا في نبيهم أكثر مما فعل المسلمون، ولكنهم في نفس الوقت هم أكثر تنزيهاً لله منهم.

وعندما بدت الدهشة في عيون الحاضرين من تناقض الفكرتين المطروحتين، وضّح حزقيل القضية بقوله:

– من ألقى في روعكم أن تأليه إنسان هو أكثر تطاولاً على الله من "أنسنة" الله نفسه. لقد ألّه المسيحيون نبيهم، ولكنهم بذلك لم يؤنسنوا إلّا سوية من ثالوثهم، وأبقوا على السوية العليا غيباً لا يدرك ولا يقارب، ولا يخضع لفهم بشري أو معايير بشرية، ولا يُعبّر عنه بلغة ومفردات بشرية، أليس هذا اقتراباً

من التنزيه؟

قال خالد:

- وهل أخضع المسلمون الله للفهم البشري والمعايير البشرية؟

- ألم تجعلوا لله - كل الله - أسماء حسنى شاطرتموه إياها؟ ألم تجعلوه يؤلّف كتاباً باللغة العربية؟ تأملوا هذه الآيات: "وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً{١} وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً{٢} وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً{٣} فَالسَّابِقَاتِ سَبْقاً{٤} فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً{٥}". أليست هذه دولة بشرية بأركان حكم وكبار موظفين؟

قال جورج وقد طفح وجهه بفرح طازج:

- هل يعني هذا أنكم تعتقدون بالثالوث المقدّس؟

وكعادتهم في المباشرة بعيداً عن أي شكل من أشكال المجاملة:

- أبداً. الثالوث المقدّس هو نتاج العقل البشري. عندما أردتم أن تقاربوا الله بعقولكم ومفرداتكم وجدتم أنفسكم تتعاملون مع السوية البشرية "بوذا ، عيسى . . . إلخ"، وينطوي تحت هذه السوية أيضاً أي شكل من أشكال أنسنة الله حتى وإن لم ينتخب له شخص بذاته. السوية الثانية هي أن تعرفوا أن الله ليس كما قاربتم. أما السوية الأعلى فهي "الله كما يدرك ذاته"، ذلك هو جوهر الثالوث المقدّس .

قال زين العابدين:

- وأين يقف المسلمون في هذا السياق؟

– المسلمون الذين يتوهمون أنهم يوحدون الله وينزهونه، لا يتعاملون إلا مع السوية الدنيا للثالوث أي السوية البشرية، لأنهم أنسنوا الله، فهم مشركون من غير أن يدركوا ذلك { وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ } يوسف١٠٦. وأكثر المسلمين تطاولاً على الله هما الطائفتان الكبريان، واللتان لا تعترفان بانتماء الأقليات الأخرى إلى الإسلام، هذا إن اعترفت إحداهما بإسلام الأخرى، السنة والشيعة نعني.

قال زين العابدين:

– لماذا؟!

– لأنكم تتعاطون مع الله كحقيقة موضوعية مجردة ثم تصرون على مقاربتها وفهمها، وفي هذا تحديد لله وتشييء له. مهما بلغ غلو الأقليات الأخرى وشطحاتهم، فحسبهم أن في مقارباتهم ملامح من ذواتهم، وهذا يعلن سلفاً أن الله ليس هكذا، ولكننا لا نستطيع التعبير عنه إلا بهذه الطريقة، وفي هذا شيء من التنزيه.

قال سميح ذو الأصول الساحلية:

– إذا فالأقليات الإسلامية في نظركم هم أكثر صوابية من الطائفتين الرئيستين.

قال نجم الدين:

– للصوفيين أيضاً مقارباتهم الذاتية ورؤاهم الخاصة.

قالت راحيل موجهة كلامها لكل من نجم الدين وسميح:

- الصوفيون والأقليات الإسلامية تعاطوا مع مقاربات أسلافهم الذاتية بطريقة موضوعية، فكانوا أسوأ من الشيعة والسنة، بل حتى واضعو النظريات الصوفية أنفسهم قد سقطوا في هذا المطب، واعتبروا رؤاهم حقائق مطلقة وليست مقاربات ذاتية. ألم يؤثر عن ابن عربي قوله "من قال بالحلول فدينه معلول وما قال بالاتحاد إلا أهل الإلحاد"؟ ما معنى هذا؟ معناه أنه يرمي الحلاج وابن الفارض بتهمة الإلحاد، أي أنه يعتبر رؤيته حقيقة موضوعية مطلقة ويكفّر ما عداها، ألسنا والحالة هذه أمام فكر ابن تيمية؟

قالت لمياء:

- يا للروعة "سلطان العاشقين" ملحد في موازين "سلطان العارفين"

احتد نجم الدين قائلاً:

- "سلطان العاشقين"؟! عشق من؟ الغلام الذي هام به قبل أن يتحول إلى عشق الله؟

استغرب سميح قائلاً:

- وهل كان ابن الفارض واقعاً في هوى غلام؟!

عقبت راحيل ضاحكة:

- عندما يختلف السلاطين تتكشف حقائق السلطنة.

قال زين العابدين ساخراً:

- أهذا ما رمى إليه عندما ترنم وترنمنا معه:

"لي في الغرام سريرة   والله أعلم بالسرائر"

قال طارق:

- لا نزال نبحث عن التمايز و نرتقي سلالمه درجة درجة، حتى إذا سكرنا بنشوة التفرد، نظرنا يميناً و يساراً فإذا الآخرون حولنا من كل الجهات. كلنا نفكر بنفس الطريقة تقريباً ثم نسقط في المطبات ذاتها. أسلم الحلول إذاً أن نكف عن تفسير الله ونتصالح مع جهلنا لحقيقته.

قال حزقيل:

- حتى هنا أنتم تسقطون في مطبات تشوش أفكاركم، لقد ظهر لديكم وعلى مرّ العصور أشخاص أحبوا أن يوحدوا الله وينزهوه فعلاً بعيداً عن الثالوث المقدس - الذي هو نتاج العقل البشري كما أسلفنا - فامتنعوا عن مقاربة الله تماماً، معلنين أنهم لا يعرفون شيئاً، منصرفين عن كل الأديان والقوالب، فتحولوا إلى بهاليل وهاموا على وجوههم في أصقاع الأرض. لقد كان موقفهم من الله صحيحاً، ولكن ذلك أدى إلى خروجهم من الحياة الدنيا، ما يجعل تعميم سلوكهم مستحيلاً لأنه يتنافى مع الآية الكريمة: "وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ..."

قالت لمياء:

- هو دأبكم دائماً - وعلى الطريقة السفسطائية - تجيبون على السؤال بسؤال، أو تجعلوننا نمسك بطرف خيط ثم تثبتون لنا بطلانه. ما الحل إذاً؟ لماذا لا تقدمون بدائل ناجعة، واضحة وصريحة؟

قالت راحيل:

- ما تأخذونه علينا أسلوب صحيح تعاطته دياناتكم ولكنكم ما استوعبتم ذلك، إنها توجهكم صوب وجهة معينة، حتى إذا ما تغيرت الظروف طالبتكم بسواها، ولكنكم عجزتم عن إدراك هذه الديناميكية في أديانكم. ألم تقولوا إن آيات قرآنية قد نسخت آيات أخرى؟ ألا يعني هذا أن الدين يعدّل مواقفه تتابعياً حسب نضجكم لتلقي تعاليمه؟ هل أخذتم على الدين هذا الفعل؟ عندما نزلت الأديان السماوية لم يكن الإنسان على مستوى تدبير أمور دنياه بنفسه، فوضعت الأديان هذه المهمة بين يدي الله، ولأنها مهمة بشرية صرفة فقد أنتج العقل البشري السوية البشرية لله، مما اقتضى إنتاج الثالوث المقدس كما أسلفنا. ما الذي أفرزته السوية البشرية لله؟ إما تأليه أشخاص بعينهم وهذا إشراك صرف، أو ما هوّم حوله الصوفيون من ربط وبطريقة ما بين الإنسان وبين الله، فكانت نظريات الفيض والصدور والاتحاد ووحدة الوجود، أو أنسنة الله بمطلقه وإن تم الادعاء بتنزيهه، وهذا برأينا هو أسوأ أساليب التعاطي مع الله. تسألون ما الحل؟ الحل بين أيديكم، فطالما أنتم الآن على مستوى يؤهلكم لتدبير شؤون دنياكم، استفيدوا من ديناميكية الدين وعدّلوا فيه بما يتناسب مع وضعكم الجديد، ونزهوا الله عن مهامه البشرية التي أوكلت إليه أيام عجزكم عن أداء هذه المهام، ما يقتضي سلخ السوية البشرية عن الموكب الإلهي، وإعادتها إلى بشريتها، فيتقوض الثالوث المقدس، ولديكم الآن البديل الصحيح للنماذج الثلاثة التي أفرزتها السوية البشرية لله، والتي ما استطعتم الركون إليها، البديل الحالي هو الدولة العادلة بقوانينها، والمجتمع الراقي بأعرافه، مسلّحين بالعلم والأخلاق. لقد

بشّر بهذا بعض جبابرة العقول البشرية، ولكنكم سارعتم إلى تكفيرهم قبل أن تفهموا ما رموا إليه، ألم يعلن نيتشه مثلاً أن الله قد مات وأن الخبر الهائل في طريقه إليكم، لقد كان يعني بذلك موت السوية البشرية لله، والبديل عنها هو السوبرمان البشري الذي بلغ سن الرشد، وأصبح قادراً على إدارة شؤون دنياه. وهذا ما ألمح إليه أيضاً جبران خليل جبران في كتابه آلهة الأرض، حيث جعل النماذج التي قاربتها عقول البشر لله، والتي هي تنتمي بطبيعة الحال إلى السوية البشرية له، جعلها تتناقش وتختلف وتعاني من السأم وتبكيت الضمير، كيف لا وهي نتاج عقل بشري، وخاضعة للمعايير البشرية. هذه الآلهة تعلن أثناء حوارها أنها ليست العلي القدير، فالعلي القدير هو الله كما يدرك نفسه، غير الخاضع لمعايير البشر، وغير المُعبّر عنه بلغات البشر، وغير المتمتع بأهواء البشر وما يعتورهم من عجز ونقصان. تحرير الله من سويته البشرية وتنزيهه عنها، يجعلكم قادرين على التعاطي معه على طريقة العارفين الذين فهموا أنهم لا يعرفون عن الله شيئاً، ثم ساحوا في متاهات الدنيا، لكنكم لن تضطروا إلى أن تشاطروهم متاهتهم الدنيوية، فالدنيا الآن أصبحت إحدى مهامكم أنتم، واعترافكم بجهلكم كل شيء عن طبيعة الله لن يجعلكم تخسرونها، وبالتالي لن تنسوا نصيبكم منها.

- هل يعني هذا أن تنقطع الصلة بين الله والإنسان؟

- الصلة بين الله والإنسان الفرد لا يمكن أن تنقطع أبداً، والتواصل بينهما ضروري وحتمي. ولكن انسوا أن لله دولته على الأرض، أو أنه سيقدم الحلول لمجتمعاتكم عليها.

***

أخيراً تمت تسوية قضية بيت أبي رمانة بمبادرة من جورج شماس، فقد اشترى بيت صديقه القديم رشيد بك بثمن عادل بعد أن باع بيتيه في العفيف وباب توما، ليتقاسم ورثة صديقه الثمن كل حسب حصته. بدا الأمر لجورج ولطه وحتّى لحجارة البيت أن الأمور تعود إلى نصابها. أمام حقائق الحياة وبدهياتها تسقط كل مسلّمات البشر وأعرافهم، تتهاوى قرابة الدم، ووحدة الدين، كحقائق وهمية من ورق تعصف بها أنفاس الحياة التي لم تستطع أحقاب الزيف والتشويه أن تخمدها.

دخل جورج شماس بيت أبي رمانة بعد أن آلت ملكيته إليه لأول مرة مصطحباً معه ابنه الروحي "طه". قاد المالك القديم الشاب المالك الجديد العجوز مباشرة إلى غرفته القديمة في الطابق العلوي، فالأشياء التي تُمنع عنا تغدو بالنسبة لنا حاجة ملحة نقتنصها في أول فرصة متاحة. فتحا النافذة وأطلا على شارع الجلاء برصيفه المنصف المزدان بأشجار النخيل الموزعة أربعاً أربعاً على طول الرصيف. طواعية ومن تلقاء نفسها هذه المرّة، أوت الأرواح المغفية على أغصان النخيل إلى البيت الأليف عند فتح نوافذه، ملامسة بريش أجنحتها الهفيف خدود الرجلين الواقفين على النافذة المفتوحة. شعرا بها، وتعرفا عليها واحدة إثر أخرى، وأعطياها كامل الوقت لمعانقتهما وتقبيلهما، ثم هبطا معاً والأرواح ترفرف حولهما إلى الطابق الأرضي، جلسا في الصالون، الصالون الذي طالما تعذبت الأرواح فيه، والذي ضاق ذرعاً بغزوة خانم وشعوذتها، وموائدها العامرة والأغراض الكامنة دائماً وراء

دعواتها وعزائمها، الصالون الذي يحتفظ فيه طه بذكرياته عن رشيد بك، فلا يستطيع أن يتذكر وجه أبيه إلا فيه، هنا مجّ دخان غليونه، وشرد وتعذب، وهو يفكّر بمحالّه التي خسرها واحداً إثر آخر في أسواق تحكمت بإرثها التجاري العريق الممتد إلى زمن معبد جوبيتير بأفنائه الحرم الآمنة قبضة أمنية لا تعرف التحليل ولا التحريم، هنا عانى وناضل وصاول في شروده بنات آوى التي تكاثرت عليه لأنه رفض أن يستقوي بالكلاب. وكانت حقبة من الزمن لبنات آوى، حقبة من الزمن مهما طالت فلا بد لدمشق أن تلفظها، ثم ترقنها من سجلات الذاكرة. وعندما بكى الرجلان كان كل منهما يعلم ما الذي يُبكي الآخر. قال جورج:

- أنت تعلم أن لا وريث لي يا بني، سأوصي لك بهذا البيت فتؤول ملكيته إليك بعد موتي، وخلال ما تبقى لي من عمر، فأنت تعلم أن لا أحب إلى قلبي من أن تزورني فيه.

- أما من أقارب لك هنا أو في بلاد الاغتراب؟!

- لا، لا أحد يا بني، كثيرة هي العائلات التي تسير على طريق الانقراض.

- ولم يسبق لك الزواج من قبل؟

هزّ رأسه ورفع حاجبيه. فقال طه بعد فترة صمت قصيرة:

- أما مللت من الوحدة عبر سنوات عمرك يا عماه؟

- في أشد حالات الوحدة عسفاً وقسوة هناك أسرة كبيرة من الأحلام والرغبات و . . . الخيبات، لا تصدّق وهم الوحدة والانفراد يا بني.

– لماذا أنت متحمس لزواجي إذاً؟

ضمّه إلى صدره ثم قال وهو يقبل رأسه:

– كي لا تُضطر في سنوات عجزك أن تفلسف قهرك كما أفعل الآن.

قال طه مداعباً في محاولة منه لتبديد الانفعالات المشحونة لدى صديقه:

– أما أحببت يوماً؟

ابتسم جورج وأطرق في الأرض دون أن يجيب، فتمادى طه في مناكفته، قال وهو يتمايل بحركة راقصة:

– أكاد أسمع رنين موسيقاك، يبدو لي أنني لمست وتراً مشدوداً.

– بلى، أحببت . .

– ولماذا لم تتزوج؟

– كنت قد كبرت نسبياً واقتربت من تجاوز سن الزواج، وحين أتت الفرصة في الحصة الزمنية المضافة، ترددت كثيراً في إعلان حبي. كانت فتاة مسلمة.

– ثم ماذا؟

أخذ نفساً عميقاً وقال مرتبكاً:

– خطبها ثم تزوجها أعزّ أصدقائي.

غمغم طه مستغرباً:

- أمي!

لاذ جورج بالصمت كشاب خجول يطلب يد حبيبته من ولي أمرها، وصمت طه أيضاً لا يدري ما يقول، ثم تساءل بعد فترة صمت:

- هل كانت تدري؟

- لم تدر، ولم يدر خالك، ولا أبوك. أغلقت صدري على سرّي، وانسحبت بصمت وهدوء، وباركت زواج صديقيّ، ثم استسلمت لصافرة النهاية.

ثم تابع وهو مصر على عدم البكاء:

- لم يكن أحد منا مخطئاً، هكذا أرادت الحياة يا بني. الآن أنت على يقين أكبر بأنك أقرب الناس إلي، وبالتالي من الطبيعي أن تكون وريثي في هذا البيت بالذات. إلى أن أموت ستغدو لقاءاتنا هاهنا أنا وأنت وخالد وزين العابدين، وربما تتسع الدائرة أكثر فأكثر، سيكون هذا البيت بيتنا جميعاً، وسيتسع لنا جميعاً، فهو كما ترى واسع وجميل ومريح.

***

كما في كل مرة يدعو فيها الفريق الزمني أبناء كون المسافة إلى ترقب خبر هام، تقاطر أعضاء نادي "مرصد قاسيون" إلى شقة المهندس طارق لاحتساء الخبر سوية.

عبر الواجهة الزجاجية لصالون شقة طارق، المطلة على سفح قاسيون، كانت دمشق تتلألأ مدى الالتفات، يخيم عليها ترقب الخبر الزمني المزمع الإعلان عنه. لا يغيب حضور دمشق عن مجالس طارق أبداً، هي حاضرة

في وعيه ولاوعيه باستمرار، وقد فرض حضورها فرضاً على زواره، عبر واجهته الزجاجية الواسعة التي لا تفتأ تحدّق في دمشق وتحدّق دمشق فيها. قال سميح بعد فترة من الصمت:

– بعد أن بدأ الفريق الزمني ببث حلقاته المتسلسلة عن آدم وحواء، لم يصدر عنه إعلان ينطوي على هذه النبرة من الإثارة التي غلّفت إعلانهم لهذا اليوم.

قالت لمياء:

– فعلاً، بعد أن قدّموا ما قدّموه أية إثارة يمكن أن تكون ما زالت لديهم.

قال طارق:

– تتجاهلون أننا بانتظار إعلانين لهذه الليلة، أحدهما في تمام الحادية عشرة والثاني عند منتصف الليل.

قال رياض:

– لأن التشويق في الإعلان رافق الخبر الأول فقط.

قال جورج شماس:

– حسبُ الإعلان الآخر من توقيته تشويقاً، فلمنتصف الليل مدلولاته الخاصة به دائماً.

قالت لمياء:

– أعتقد أن التشويق الحقيقي سيكون غداً في المؤتمر الإعلامي المرتقب.

قال طارق:

- لا أستطيع أن أصدّق أن رحلة التساؤلات التي طرحوها منذ مقدمهم ستجد لها أجوبة شافية في مؤتمر الغد.

وعلّق خالد بقوله:

- إن غداً لناظره قريب.

التفتت لمياء صوب طارق وقالت بنبرة حاسمة:

- هل تريد أن تلهينا بموضوع الخبرين الزمنيين عن موضوع العشاء؟

تحلّق الحاضرون جميعاً حول جهاز الكومبيوتر، مترقبين انقضاء الثواني الأخيرة التي تفصلهم عن تمام الساعة الحادية عشرة ليلاً. لا يُخلف الفريق الزمني موعداً ففي اللحظة الموعودة ظهر الخبر على موقعه الرسمي:

"لكل أبناء كون المسافة الذين شاركونا محنة موت مواطننا ميثاق، وقدّموا فيه أحر أشكال العزاء ما كان له كبير الأثر لدى كوننا الزمني برمته، لكل هؤلاء نعلن أن رفات مواطننا بعد عودته إلى بيئته الأولى، واستعادة شروط وجوده الفيزيائية قد عادت إليه الحياة، فسمة كوننا هي الحياة الخالدة، ولا وجود للموت طيّ الثقافة الزمنية. وبناء على رغبته وما نظنه رغبتكم أيضاً سيكون معنا في مؤتمرنا غداً."

خيّم الصمت والوجوم فوق رؤوس الساهرين في قاسيون، صمت

قطعته قهقهات عبثية أطلقتها لمياء قبل أن يقول نجم الدين:

- هل يمزحون؟!

قال طارق:

- لم نعرفهم من قبل مازحين.

استبدت في رياض روح "خمارة جورية" فانفلت من مقعده بخطوات راقصة وهو يهتف:

- ميثاق حي! ميثاق حي! رحم الله إياد الطيان لو كنا في صالونه الآن لدارت أنخاب الشامبانيا.

قال طارق:

- لا عليك يا رياض، ستدور أنخاب الشامبانيا.

قالت لمياء:

- ولكن حذار أن يفقد أحد رشده.

علّق سميح:

- كي لا تستفيق دمشق غداً على فاجعة جديدة.

أردفت لمياء:

- بل كي نتمكن من متابعة خبر منتصف الليل.

تدانى رويداً رويداً موعد منتصف الليل بكل مدلولاته ورمزيته، اللحظة

الفارقة التي تفصل نهاية يوم عن بداية يوم آخر، وقد تفصل نهاية شهر عن بداية شهر آخر، أو سنة عن سنة، أو حقبة عن حقبة، أو حتى وهم عن حقيقة. اللحظة التي تجمع ما بين مصطلحات البشر الافتراضية وحقائق الطبيعة الفعلية. فعلى الطرف الآخر من الأرض تقابل هذه اللحظة لحظة أخرى هي لحظة منتصف النهار، حيث تكون ظلال الأشياء أصغر ما تكون، أي يتقلص الوهم إلى نهايته الحدية الصغرى، هذه النهايات الحدّيّة الصغرى التي تبلغ بدورها نهاية حدّيّة لامتناهية الصغر عند دائرة الاستواء، حيث تنتعل الأشياء ظلالها، فيغيب الوهم تماماً، ولا يتجلى إلا وجه الحقيقة. عند هذه اللحظة، عند تمام الساعة الثانية عشرة ليلاً، ظهرت على موقع الفريق الزمني على الإنترنت المقالة التالية:

مقاربة حول البداية

{وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ من بَنِي آدَمَ من ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ } الأعراف١٧٢

سديم غبشي يغطرس طاوياً أصقاع الوجود، يترامى بين لانهايات محايدة، الألوان محايدة رمادية مغبرّة قليلة التباين، والحرارة محايدة، والرطوبة أيضاً، حتى الحركة محايدة تتوهمها حاسة الرؤية ولا تقاربها حاسة اللمس، الصمت سيد الموقف لولا طنين خافت ومستمر يكاد لخفوته واستمراريته ألا يكون

محسوساً. موجودات غبارية مطموسة المعالم يكاد يشفّ عنها ذاك الغبش السديمي، تمتلك هامشاً ضيقاً بين حدّي الرغبة والمحاولة لإرسال ذبذبات يجهل مرسلوها إن تمّ إرسالها أم لا. الهواجس تنسرب من تلك الكائنات على شكل كثافات متدرجة التباين، تتبدد ذراتها شيئاً فشيئاً إلى أن تتماهى مع ذلك السديم الغبشي. الإمكانية الحركية اللامحسوسة المتاحة لتلك الموجودات الغبارية، تمكّنها من التهادي وسط السديم، حتى إذا بلغت مسافة مرصودة عن أقرب نظيرة لها، استدارت ونظيرتها مولية إحداهما الأخرى الأدبار، فإن حاولتا الإمعان بالاقتراب أكثر فأكثر، تحركتا ظهراً لظهر متناظرتين على محيط الدائرة المرصودة. السأم يملأ مسامات السديم، يغلّف ذراته، يتماهى مع كل مكوناته، ورغم ذلك فهو ليس على قائمة المدركات هناك، ففي العاقلة لا تعريف ولا تصور ولا مقاربة لأي مصطلح لا وجود لنقيض له، فلن يفهم أبداً معنى الارتواء من لم يذق أبداً طعم الظمأ.

خاضعة لحتميتي التكيّف والتطور، بدأت الهواجس المنسربة من هذه الكائنات عبر الحقب المحايدة، تتجمع وتتلاقى لتستحيل كياناً متمايزاً ذا حضور خاص به معبّراً عن كل الكيانات التي انسرب منها، وعندما امتلأ به كأسه، سال عن حواف الكأس بوحاً مطلبياً مكتمل النضج مستمداً من الثقافات المحايدة التي انبثق منها، فلا هو سفّ في ذل التوسّل والتسوّل، ولا هو جاوز حدود اللياقة، ما زاغ بصره يمنة ولا يسرة، ولا طغى إلى ما لا حق له به، فأدركت ذاته أنه قاب قوسين أو أدنى من بلوغ أربه. واعياً لما يفعل أو عن غير وعي منه حقق كل شروط الاستجابة. ورأت العناية المدبرة لأسرار الوجود بعين قدرتها أول تطوّر وتحوّل ذاتي نتيجة برمجيات التطوّر الكامنة في

خفايا كل شيء أوجدته، فأخذت ترقب بحياد تام الخطوات التالية في أول دراما تفاعلية يشهدها هذا الوجود.

الأحداث العظيمة تأتي نتاجاً لتراكمات طويلة لكنها في النهاية تحدث ذات فجاءة لحظية، هكذا وفي لحظة فارقة، انطوى السديم الغبشي وانبلج كون التمايز، وأمام ثراء الواقع الجديد واسع الطيف كان لا بد لهذا الكائن قيد التخلق والتشكل أن يستشعر فجيعة أنه خسر كل امتيازات سديمه، ألحت عليه رغبة البكاء والصراخ كمولود يخرج من ظلمة الرحم إلى رحابة الكون الفسيح، لكن إحساسه بمسؤوليته اللحظية تلك كان أقوى من تلك الترهات. كان أمامه طيف خيارات لا سقف له لنموذجه الجديد، وذلك نتاجاً لاستجابة غير مشروطة لمطلب حقق كل شروط الاستجابة. كان من الممكن له أن ينحاز إلى نماذج تجعله فوق المطالب والحاجات، وأن يجعل من نفسه يتمتع بمزايا الكمال المطلق والسيادة التامة، كان من الممكن له أن يستحيل ضوءاً أو عطراً أو نغماً، بل كان من الممكن جداً - ولعله كان الأسلم - أن يمدّ لسانه لكل صخب الوجود، ويسلك درب الفناء إلى فلوات العدم فيغدو نسياً منسياً. لكن وطأة الحرمان المزمن تفرض وجودها لحظة القرارات المصيرية، وتزيد من رونق الرغبات الضئيلة والباهتة التي كانت وطراً بعيد المنال في عالم بالغ المحدودية. لذلك وجد نفسه متجهاً صوب إشباع رغباته المجهضة في حياته السابقة. تفنن في اختيار حواسه وفي تجييش عواطفه، وانتقاماً من كل أشكال الحياد التي كانت مفروضة على سديمه السابق اختار أن يكون مخيّراً في كل شيء، وأن يضع نفسه تحت طائلة المساءلة عن خياراته وتصرفاته. وأهم من كل هذا فإنه ثأراً من السأم المغلغل في مسامات كينونته

المنصرمة، وانتقاماً من وحدته وانعزاله وحرمانه من التواصل مع أفراد نوعه، فقد اختار أن يكون كيانه الجديد مزدوجاً، وأن يحقق معجزة أن يكون الواحد منه اثنين. وشاء فكان. ووقف نموذجه الأول بشطريه وجهاً لوجه مقدّماً نفسه للوجود:

- أنا "آدم وحواء" كيان واحد بجسدين.

كيان واحد بشطرين اختزل في كينونته مليارات الموجودات الغبارية في السديم الغبشي، وتشكل من هواجسها المنسربة عبر سحيقات الحقب، هواجس موجودات معصومة عن الخطأ بطبيعتها، عاجزة عن اقترافه نتيجة محدودية إمكانياتها، عندما امتلأ بها كأسها وجد انسجامها طريقه عن غير وعي إلى فضاءات الاستجابة. لكنه اختار الصيغة الصعبة، افتتنه بهرج خياراتها وألوانها دون أن ينتبه أنه بمجرد دخول هذه الصيغة قد فقد انسجامه ومعصوميته.

أخذت المكونات التي لا عدّ لها ولا حصر، المشكّلة لهذا الكيان، والتي بات لكل منها خياراته وتوجهاته تعزف كل منها نغماتها الخاصة بها، حسبها للوهلة الأولى مجرد خدر في أوصاله، لكنها كانت تنمو وتتكاثر ويتحرك كل منها على محوره، استشرت كما البكتريا في تفاصيل كيانه، وتحولت أحلاماً متناقضة وهواجس مريبة وشكوكاً تنازعته يميناً ويساراً وإلى الأمام وإلى الخلف. وبدأ الكيان الواحد يتشظى من الداخل ويتداعى تحت ضربات تناقضه. وبدأ الواقع الجديد الثري والخصب يتحوّل لعنة تصب شواظها عليه، وتتخذ من الخيارات التي انتقاها منطلقاً لتفخيخه وتفجيره. حاول

إعادة ترتيب مفرداته وتنظيم مكوناته، ليحقق حداً أدنى من الانسجام يمكّنه من التفكير وفق محور محدد، ولكن هيهات لمن كانت طبيعته التناقض والتشظي أن يدرك سبيل الانسجام والتناغم. كان مشوّشاً لا يدري من أين تنبثق أفكاره، ولا إلى أين تمضي، ولا كيف تتبدد. تبدأ الفكرة لديه بالتشكل ذات عمق ما وفي مكان ما، ثم تبدأ بالظهور إلى العلن على مسافة ما من مركز تخلّقها، ما يجعل من بؤرة تشكلها مكاناً مجهولاً تستحيل معرفته، ثم تكبر وتكبر كلما اقتربت أكثر فأكثر من ساحة مقاربتها أو شبه إدراكها، تماماً كموجة تتعاظم كلما اقتربت أكثر من صخور الشاطئ، وتماماً كتلك الموجة تتكسر تلك الفكرة باصطدامها بالصخور الصلبة، وتنكفئ مرتدة إلى العمق من جديد، كابحة من جماح الفكرة التالية، ومساهمة في تكسيرها وارتدادها هي الأخرى. في عمق العمق من عاقلته كانت فكرة تتشكل وتتعاظم ثم تتقدم نحو صخور شواطئه كجيش جرار، تقضي بأن يتوقف تماماً عن التفكير. ولكن شأنها شأن سابقاتها من الأفكار، تكسرت وارتدّت متلاشية على صخرة قناعة مناقضة، أعلنت بحسم أن العناية المدبرة لأسرار الوجود ليست مسرفة بهذه الطريقة المبتذلة، كي تخلق عقلاً لا ينبغي له أن يعمل. ولكن أنّى لهذا العقل أن يصل إلى الحقيقة ما دام كل جزء منه يعمل على اتجاه، وما دامت الأجزاء الضالة منه تحرف الدفة صوبها عن كبد الحقيقة.

- إن لم تنتظم مكوّنات عقلي بعضها مع بعض سأصاب حتماً بالجنون.

عليه إذا أن يستبق جنونه بتحقيق قفزة نوعية، تنقله إلى سوية معرفية أعلى، توجّه دفّة تفكيره نحو الوجهة الصحيحة.

من قاع بؤسه وعجزه، ومن حلكة يأسه وخذلانه، تبدّت له فسحة أمل خلّب:

- "المقامرة"!!

وعلى صهواتها علا صوته ملء آذان الوجود:

- أيتها العناية المدبرة لأسرار الوجود، أسفري عن وجهك، وأميطي حجب الغموض عن حقيقتك، فأنا ابن الحياة المختار الذي يليق به الوصول إليك واكتناه أسرارك، ومعك وبك سأبلغ محجة رسالتي وغاية مجدي.

ومن جديد، وبحياد تام، شخصت عينا العناية المدبرة لأسرار الوجود إلى برمجيات نظامها الكوني، وهي تتعاطى مع التجاوز الأخرق بما يليق مع صرامة نظامها وتعاليه عن العاطفة والانفعال.

تبادل آدم وحواء - لأول مرة - النظر أحدهما إلى الآخر بصفتيهما كائنين منفصلين، نعم لقد شطر الكيان المزدوج وخسر ثنائيته المميزة، وها هما يهبطان إلى سوية أدنى على سلّم التطور الذي حرقا مراحله، عبر استجابة أتت نتيجة تحقق شروط دقيقة في سديم يفتقر إلى كل شيء عدا التناسق والانسجام.

طاعناً في السن والندامة جلس آدم على صخرة منفردة، مسنداً رأسه الأشيب العجوز إلى عكازه، شارد الذهن والنظر، مستعرضاً حيناً من الدهر انتزعه من مسار الحياة المرسوم لها عبر دعاء مستجاب، ومن مسار الرغبة المستجابة عبر خطيئة قاتلة. حيناً من الدهر كان بمثابة شجرة زمنية ملعونة، أثمرت أحداثاً شوهاء ما اطمأنت لها الحياة، وما استساغت طعم مرورها،

فعملت على ترقينها، ليستحيل صانعوها ملفات مخفية في مجلدات ذاكرة الحياة. كيف حدث كل هذا؟ كيف غدا ابن الحياة المدلل طريد خطيئة يدفع ثمنها لعنة لعنة، وارتداداً واغتراباً ومنفى؟ لقد هبط درجة على سلّم ارتقائه بعد أن كان قد حرق المراحل كلها ليحظى بالصيغة التي يريد.

انشطر كيانه الثنائي المنشود إلى جزأين أعجفين يعانيان النقص والاغتراب عن الذات.

تزوج من شطره الآخر وهو لا يدري أصواباً ما فعل أم خطيئة.

أنجب ولدين وأنفق زهو شبابه في تنشئتهما إلى أن اشتد عودهما قضى أحدهما قتيلاً على يد الآخر.

كانت الصدمة أقسى من أن تحتملها الأم المتصدعة فسلكت طريق الهروب الأبدي ولحقت بابنها القتيل.

هام الابن القاتل على وجهه في أصقاع الأرض، ونفسه تعلم أن لها موعداً لن تُخلفه أبداً.

وجد آدم نفسه مرغماً في مراحل عجزه وشيخوخته أن يتتبع خطوات ابنه الهائم على وجهه في مسالك الأرض ومتاهات الحياة.

أصاب الابن مسٌّ في عقله، فسقى نفسه من الكأس التي جرّعها أخاه منتحراً أمام عيني والده العجوز.

انسكبت الدموع في أخاديد وجه آدم المغضّن دون أن يرتسم على الوجه أي تعبير، ها هو يعود إلى نقطة البداية برصيد خيبة مريرة، ووصمة عار،

ومثقلاً بخطيئة فاجعة. أغمض عينيه مرهقاً فآنست الجفون ببعضها وبقيت مغمضة إلى الأبد.

مغامرة حياة كاملة طويت صفحتها خلال جيل واحد، خبرت كل ما يمكن اختباره: الحب والزواج والإنجاب، الحسد والحقد والقتل، الندم والانتحار والموت.

من جديد عاد السديم الغبشي يغطرس في أصقاع الكون، وعادت السمات المحايدة تفرض سلطة الحياد على أرجائه المترامية الأطراف.

عادت الموجودات الغبارية تعيش وحدتها وسأمها وبدائيتها، وإن كانت قد أصبحت تعلم إلى أي مصير ستصير. فالعقاب الذي نزل بنموذجها الأول لن يلغي بأي شكل من الأشكال مفاعيل استجابة سلفت من عناية مدبرة، ولا كلمة سبقت فكانت لزاماً وأجلاً مسمّى.

أجل سترتقي تلك الموجودات عبر الحقب الآتية سلّم تطورها وفق البرمجيات الموضوعة، إلى أن تصل إلى المثال الذي سبق لها أن رسمته لنفسها، وحظي بموافقة عناية ليس من خُلقها النكوص أو التراجع، ولتصل في النهاية إلى كيانات مبثوثة من الكيان المزدوج "آدم وحواء"، فتكون بمثابة "أبناء" له لكنها لم تتحدّر من صلبه. كيانات لن تعاني تناقض النموذج الأول وتشظيه لأن كلاً منها يمثل فرداً واحداً من السديم السابق. وهكذا وُجدنا نحن أبناء الكون الزمني.

نعم، نحن أبناء الكون الزمني، نحن ورثة نموذج آدم وحواء، آدم وحواء ما قبل المعصية، نحن نموذج "أحسن تقويم". أما أنتم يا أبناء كون المسافة،

فأنتم نموذج ما بعد الخطيئة، نموذج ما بعد الانشطار، أنتم نتاج سفاح القربى، نموذج "أسفل سافلين".

أصيب مرصد قاسيون بالدوار ففقد حواسه أو كاد أن يفقدها:

– هذا تناقض صريح. ما الذي تابعناه معهم إذاً في سلسلتهم الوثائقية؟

– " مغامرة حياة طويت صفحتها في جيل واحد"! وساهير؟ وسارة؟ وأبناؤهما؟!

– إنهم يخلطون الأوراق كلها.

– بل يقلبون الطاولة بما عليها على من حولها.

قالت لمياء:

– إنهم يستبقون الأحداث ويمهدون لمؤتمر الغد.

تقاطر إلى دمشق مندوبو الفضائيات والصحف ووكالات الأنباء من كل حدب وصوب لتغطية المؤتمر الإعلامي الذي سيعقده الفريق الزمني. كان ثمة ارتياح عام في العالم بأجمعه لدنو انتهاء هذه المهمة، وبالتالي عودة البروفسور شيث من حيث أتى، فقد بات وجوده يمثل عبئاً ثقيلاً ضاغطاً على كل فعاليات العالم. حتى الأفراد الذين استهوتهم في البداية اللعبة الغرائبية، وأسعدتهم مناكفته للمرجعيات الدينية والسياسية في العالم، حتى هؤلاء الأفراد بدؤوا يحسون بالقلق من تبعات وجوده، ويخشون نتائج لها

تخرج عن نطاق السيطرة. فلا شيء يعدل نعمة الأمان والاستقرار واليقين، تلك النعم التي بدأ الآن العالم بأسره يشعر أنها باتت عرضة للخطر، إن لم تكن قد أصبحت في مهب الريح وانتهى الأمر. وإلى جوار هذا الارتياح كان هناك شوق لرؤية ميثاق العائد إلى الحياة، أما أحبه كل أبناء المسافة وتعلقوا به؟ وبكوه وقدّموا واجب العزاء فيه، ثم إن حدث عودته إلى الحياة، بما يكتنفه من دغدغة لأحلام البشر بالخلود منذ مغامرة جلجامش أيام أسلافنا الأقدمين وحتى أيامنا هذه، كان مشوار حلم ومحجة آمال عبر تاريخ البشر، ولا أحلى من رؤية الأحلام تتحقق حتى وإن كان تحققها سيخرجها من دائرة الأحلام ويجعلها مجرد أحداث عادية. وأهم من هذا وذاك، كان التلهف لسماع إجابات واضحة كما وعد الفريق الزمني على كل التساؤلات التي طرحت سابقاً، والتي طرحت مؤخراً بعد المقاربة الصادمة لقصة آدم وحواء، وتناقضها الصارخ مع ما تم بثه من أفلام وثائقية عنهما.

كانت الإجراءات الأمنية كما في المرّة السابقة تحقق أرقاماً قياسية لم تعرفها أولمبيادات الأحداث الأمنية الكبرى في التاريخ من قبل، لا لشيء، ولا لأن أحداً في العالم يتوقع حدوث خلل أمني لن يجرؤ أحد على اقترافه، ولا على تحمّل تبعاته على الجهة التي اقترفته، بل لأن تلك الإجراءات صارت جزءاً لا يتجزأ من متخذيها، يشعرون بنقص يعتورهم إن لم تكن موجودة بينهم وعلى أكمل وجه. وظهرت على منصة المؤتمر الإعلامي الدكتورة لمياء بأناقتها وجمالها المألوفين، لكن لم يفت أحداً أن يلاحظ أن خيلاء الفخر الذي كان يجلل وجهها في المرّة السابقة قد خبا كثيراً، فما أصاب الآخرين أصابها أيضاً، فقد أرهقت واستنفدت طاقاتها، وباتت تنتظر هي الأخرى

النهاية. رحّبت براحيل وحزقيل بود وحميمية، ولكن كما يرحب المرء بصديق يعرفه ويحبه، لا كما قدمتهما في المرّة السابقة بوصفهما معجزة تتحقق في زمن انحسار المعجزات، معجزة تُحوّلها كمقدمة لهما إلى ما يشبه المعجزة. بدورهما حزقيل وراحيل ظهرا على المنصة كمن هو بين أهله وناسه، وإن كان فيهما شيء من الفخر الذي كان يجلل وجه الدكتورة لمياء في المرّة الماضية، لَمَ لا؟ وهما سيقدمان للناس ميثاق العائد إلى الحياة، ميثاق الذي شُغل بضياعه كون المسافة كله، كما شُغل بخبر وفاته، كما هو مشغول الآن بعودته إلى الحياة، كما سيشغل به خلال قادمات الأيام.

تصدى للبدء في الحديث هذه المرّة حزقيل، أمعن النظر في وجوه الحشد من حوله، اختزن في ذاكرته كل تعابير تساؤلاتهم ودهشتهم وترقبهم، ربما ليقدم لهم تعابيرهم هذه ذات يوم وثيقة من وثائق هذه الأحداث الدراماتيكية التي تحدث بأسرع مما كانوا يتوقعون، ثم قال:

– لن نلعب معكم لعبة التشويق والإثارة، بل سنبدأ معكم بأكثر ما أنتم تتلهفون إليه وتترقبون لقاءه. يسعدنا أن نستبق مؤتمرنا الإعلامي هذا بتقديم مواطننا "ميثاق" المتلهف جداً لإلقاء التحية عليكم.

علا التصفيق الحاد والصادق في كل أرجاء المكان ترحيباً بميثاق وتحية له، إلى أن تخافت التصفيق رويداً رويداً، إذ ذاك تباعد شطرا البروفسور شيث يمنة ويسرة مفسحين المجال لميثاق كي يظهر على المنصة، في حين حدّقت كل فضائيات الأرض بالباب الذي سيخرج منه. وظهر ميثاق، ظهر بشطريه، وكادت كاميرات المصورين أن تسقط مغشياً عليها من هول المفاجأة، بدا

للجميع أن المؤتمر الصحفي المنتظر قد انتهى قبل أن يبدأ، تلاشت كل التساؤلات وتهلهلت كل الاحتجاجات، وبدا للجميع أن البشرية برمتها أشبه ما تكون بفتاة تعرف في لحظة حقيقة فارقة أنها مجرد لقيطة لا حق لها بشيء مما تملكه، أو بشيء مما حولها. كل صراعات الأمس وتناقضات اليوم وأحلام المستقبل فقدت مبرراتها ومشروعيتها وجدواها، وغدت محض هراء. قلبت صفحة وطويت راية وتشظّت حقيقة. فلم يكن شطرا ميثاق إلا "آدم وحواء". وعلى منعطفات الحقيقة ومفارق المصير تسقط كل البروتوكولات، وتنكفئ كل المجاملات والترتيبات، ولا تنفلت من عقالها إلا الرغبات الفطرية، والتساؤلات العفوية. من غير استئذان وبدون أي نظام يرتفع صوت من الحشد متسائلاً:

- لِمَ كذبتما علينا؟ لِمَ قلتما لنا إنكما آدم وحواء؟

ويجيب الشطر المذكر من ميثاق:

- ما كذبنا عليكم، إنهما اسمانا الحقيقيان. فكياننا المزدوج يحمل اسم ميثاق وشطراه يحملان اسمي آدم وحواء، تماماً كما يحمل شطرا البروفسور شيث اسمي حزقيل وراحيل. فيما بعد أتى أنبياؤكم فحدثوكم عن آدم وحواء الأزليين، وأنتم من خلط بين ما حدثكم عنه الأنبياء وما تحمله ذواكركم من أمرنا. إن اسمينا وظروف انتقالنا من كوننا إلى كونكم، كل هذا أوحى إلينا أن نسمي ولدينا قابيل وهابيل، وتشاء المقادير أن يقتل قابيلنا هابيلنا كما حصل في الحدث الأزلي.

- ألم تخبرونا أنكما أتيتما من الجنة؟

– قطعاً. لقد حدثناكم عن كوننا الزمني ببهائه وخلوده، وحدثكم الأنبياء عن الجنة فخلطتم بين هذا وذاك.

ويرتفع سؤال موجّه إلى حواء:

– هل تشعرين نحونا بعاطفة الأم تجاه أولادها؟

وبدون تردد تجيب:

– نحن الآن من هيولى مختلفة تماماً.

ويسأل أحدهم البروفسور شيث:

– هل أتيت إلينا لاستعادة رفات شخص مات منذ مئات آلاف السنين؟

– كما قلنا لكم سابقاً لا أهمية لمرور زمنكم بالنسبة إلينا، فللزمن عندنا سيرورة أخرى ولكنكم لا تنصتون. هذا من جهة ومن جهة أخرى إنه ليس رفاتاً كما ترون.

– وأين وجدتم الرفات الذي لم يعد رفاتاً الآن؟

– في مغارة الدم، هذه المغارة هي المكان الذي احتضن جسدي ميثاق خلال مرحلة موته.

– غزوتكم الأولى لنا متمثلة بميثاق أسفرت عما أسفرت عنه. ترى عمّ ستسفر غزوتكم الثانية هذه؟

تتصدى راحيل للإجابة قائلة:

– لم يكن لكم يدٌ في نتائج ما أسميته غزوتنا الأولى، فلتصنعوا الآن بملء

قراركم نتائج الغزوة الثانية.

ثم تابعت وهي تتحسس بطنها المنتفخ:

– ها نحن أولاء سنعود إلى كوننا، وفي أحشائي مشروع غاز مسافي سيغزو كوننا لا نعرف حتى الآن كيف سيكون حدث ولادته وماذا سينتج عنه.

– إن كنا قد خلطنا في أذهاننا ما بين كونكم الزمني وما بين الجنة، هل يعني هذا أننا نخلط أيضاً ما بين الجحيم وما بين الكون الكتلي؟ وهل علينا أن نتوقع غزوة كتلية لكوننا على غرار غزوتيكم يحمل لواءها أحد الأبالسة؟

ويجيب حزقيل:

– لا حق لنا بالإجابة بدلاً من الآخرين. لهذا وعلى طريقتنا في مؤتمرنا الأول معكم سأجيب على السؤال بسؤال: أإلى الآن لم تشعروا بالغزوة الكتلية لكم؟

***

أشرقت شمس اليوم التالي للمؤتمر الإعلامي على عالم لا أثر فيه لشيث أو لميثاق، لكأنهما تبخرا أو كأنهما لم يكونا أصلاً. ولكنه كان بالتأكيد عالماً ليس كعالم ما قبل الغزوة الزمنية. لم يقلبا صفحة ويبدأا صفحة أخرى، بل وقفا على منصة واحدة بأجسادهما الأربعة ليردا عجز السجل بأكمله إلى صدره ثم يبدداه هباء كأنه لم يكن. أعادا العقل البشري إلى نقطة البداية، وأزالا من حوله ما يعيق توجهه صوب الحقيقة، ومنحا العالم فرصة البدء من جديد. سخرا من مشوار حضارتنا الزائف القائم على المغالطات والترّهات، وأعلنا

لنا أن لا قدسية لمفهوم لمجرد أنه موغل في القدم، بل أكثر من ذلك فالزمن كله محض هراء. الدول والمجتمعات والأحزاب والأفراد خُيّل إليها أن كلاً منها مضى لشأنه، ولكن لم يعد هناك في كون المكان شأن لشأنه، بل الشؤون كلها انسحبت إلى ما قبل نقطة البداية ليعاد تشكيلها من جديد. الكل مضى وهو يتحسس على كيانه ندوب هذه الغزوة وعقابيلها، مدركاً في ذاته أن تلك الندوب ستتحول إلى كيان آخر، يقوم بطي الكيان السابق وهماً من عدم تمثّل حيناً من الدهر كأنه هو الحقيقة. لقد كان مما لا شك فيه أن عصراً جديداً قد ابتدأ وأن أحداً اليوم ليس كما كان بالأمس.

قالت لمياء وهي تمسح الغبار عن زجاج طاولتها:

– عدنا والعود أحمد.

أجابها طارق:

– سيصعب علينا التأقلم من جديد مع هذا المكان بعد أن اعتدنا أجنحة فنادق الخمس نجوم.

لقد عادا إلى مركزهما الذي لا يعدو كونه شقة صغيرة من غرفتين، خصصت إحداهما لرئيسة المركز ومعاونها واللذين يشكلان كل طاقم العمل، في حين خصصت الغرفة الثانية للأجهزة الحاسوبية. عادا ليضطلعا بدورهما الذي لا دور فيه، بعد مغامرة مجنونة انطلقت من هذا المركز بالذات لتهز أسس العالم ومرتكزاته. قالت لمياء:

– ضع إبريق الشاي على السخان يا طارق ريثما أتصل بالفرن ليحضر لنا

بعض مناقيش الزعتر.

سبقها طارق إلى سماعة الهاتف قائلاً:

- مهلاً، مهلاً، لا يليق بنجمة عالمية كلمياء أن تتصل بفرن مناقيش الزعتر.

قالت وهي تتناول إبريق الشاي وتضعه على السخان:

- يا للهول، كدت أنسى ذلك. ولكن هل يليق بنجوميتي أن أصنع الشاي بنفسي؟

- تبدين متصالحة مع نفسك، متفهمة لقوانين النجومية في مدّها وانكفائها، في وهمها وحقيقتها. إحدى المغنيات الشهيرات تحدثت يوماً عن نوبات البكاء التي تصيبهن إثر الحفلات الجماهيرية الصاخبة. فهن يعجزن عن المواءمة بين نجاحهن الجماهيري الساحق وبرودة حياتهن في بيوتهن، خاصة أولئك اللواتي يعاملهن أزواجهن ببرودة ولا مبالاة. فهن يصدّقن خديعة النجومية ويعانين جراءها ويدفعن فواتيرها.

ومع مناقيش الزعتر الشهية وكوبي الشاي الساخن قال طارق:

- تعالي نُعد قراءة المغامرة من جديد.

- إنني أصغي.

- الآن وقد أصبحنا خارج الجملة المتحركة، أصبح بإمكاننا رؤيتها بوضوح أكثر، برأيك ما سبب الزيارة؟

"خارج الجملة المتحركة"! راق لها التعبير الذي لم يطرق أسماعها بعد أيام الجامعة:

- خارج الجملة المتحركة أم داخلها، سواء أكنت مراقبة نيوتن أم مراقبة دالامبير، لا أرى سبباً للزيارة إلا البحث عن ميثاق واصطحابه.

نظر إليها نظرته إلى شخص خانه ذكاؤه هذه المرّة ثم قال:

- رغم إعلان شيث عن نفسه، وعن زيارته، وعن غايتها، ورغم تربص كل آليات التجسس في العالم به وبحركاته، فقد وجد رفات ميثاق، واصطحبه، ونقله إلى كونه، ثم أعاده، ثم غادر وإياه، دون أن نحس بأي شيء. أما كان بإمكانهم الحصول على ميثاق دون كل هذه الجلبة؟

أمعنت في الأمر قليلاً، فرأت أنه ما اجتنب الصواب في كل ما قاله. محتارة ومشوشة تساءلت:

- وماذا إذاً؟

- أرى أنهم أعلنوا عن أنفسهم وعن زيارتهم وهدفها ليكشفوا لنا ما كشفوه، لقد كان هذا هدفاً وليس نتيجة.

- وما الذي كسبوه جرّاء ذلك؟

- لا شيء، لعلها كانت رسالة سماوية.

أطرقت لمياء في الأرض وضحكت ثم غمغمت:

- النبي شيث . . . عليه الصلاة والسلام!

أردف طارق بطريقة تشي أنه لا يهذر بكلامه كيفما اتفق، بل يتحدث بما فكر فيه ملياً واقتنع به إلى حد ما.

– لا داعي لأن يكون البروفسور شيث نبياً، هي رسالة سماوية عصرية أتت في عصر تراجع دور الرجل الفرد، رسالة سماوية بدون نبي.

– رسالة سماوية تقلقل سكون العالم وثباته!

– وما الذي فعلته سابقاتها؟

ثم تابع بجدية أكثر:

– أحقاً كان العالم ساكناً وثابتاً؟

عندما لمست لمياء جدية نبرة طارق، فكرت بدورها بشيء من الجدية ليتمخض تفكيرها عن إحدى أكثر الحقائق ثباتاً في حياتنا:

– لم أعد أثق بشيء.

– لوثتان لا تبرأ منهما عقولنا أبداً تصديق أخرق و تكذيب أرعن.

سادت فترة طويلة من الصمت، انتبه طارق في نهايتها أن لمياء تجلس وقد احتضنت رأسها بين كفيها.

– تبدين مرهقة.

– مرهقة جداً.

– هل ترغبين بقرص من السيتامول؟

ابتسمت ابتسامة أقرب إلى البكاء وقالت:

- بل أرغب بقرص من الانتماء أو اليقين أو التشبث.

لم تكن بحاجة لمزيد من الشرح والإطالة فما يوجعها يوجعه. كثيراً ما نزهد بأمور نتمتع بها دون أن ندرك أهميتها بالنسبة لنا أو مدى حاجتنا إليها إلا عند فقدانها، ولعل اليقين والانتماء هما من أبرز هذه الأشياء، فكم يبدو فراغهما هائلاً في زمن تداعي القناعات وتخلخل العقائد. وعلى طريقة اليائس والعاجز عن تقديم أية مساعدة قال طارق:

- يستحسن أن تذهبي إلى البيت فتنالي قسطاً من الراحة.

- سيكون الوضع أكثر سوءاً يا صديقي. فأنا منذ الآن أفكر كيف سأمضي نهاري غداً الجمعة وحيدة في البيت.

مضى إلى أقرب عقاقير العلاج لديه وأكثرها جدوى:

- ستكون فرصة طيبة أن نتجول معاً في شوارع دمشق غداً، فهي جميلة جداً أيام العطلة، إذ تخلع عنها زحامها اليومي الذي تعاني منه بقية أيام الأسبوع.

أشرقت عينا لمياء وهي تتمتم:

- فكرة معقولة جداً.

جنباً إلى جنب سارا عبر شارع النصر، بعد أن ركن طارق سيارته في مرآب الشارع ثم اتجها شرقاً. كانت وجوه العابرين مكفهرة "عليها غبرة"

أو ربما بدت لهما كذلك، بل بدت دمشق بأكملها كأن صداعاً يثقل رأسها ويشّل تفكيرها، لكأن الجميع عبر صمتهم وإطراقهم كانوا يتجاذبون أطراف الحديث ذاته، الذي ألغى حضوره كل ما سواه، وعندما بلغا بوابة سوق الحميدية، كاد طارق أن يلج في السوق الشهير بطريقة عفوية، لكن لمياء اعترضت قائلة:

- دعنا نسر في طريق القلعة، أريد أن أستمد منها شيئاً من الرسوخ الذي أحتاجه.

على يمين الطريق بدا باب في جدار القلعة يفضي إلى تجويف مظلم، تأملته لمياء باستغراب وهي تقرأ اليافطة المعلّقة فوق الباب "جامع أبي الدرداء"، ثم نظرت صوب طارق قائلة:

- هل تصدّق أنها المرّة الأولى التي يلفتني هذا الجامع! من يكون أبو الدرداء؟

- أحد الصحابة.

- لم أسمع به من قبل.

ابتسم طارق وقد وجد مدخلاً لموضوع بدأ يلح عليه مؤخراً، ولا يعرف كيف يصوغه ويطرحه على الآخرين، ولا يجد السؤال جواباً له أبداً طالما هو عاجز عن طرح نفسه.

- جميل جداً! فلنتعامل مع كل معتقداتنا السابقة بهذه الطريقة، وكأننا لم نسمع بها من قبل.

لم يطل صمت لمياء قبل أن تجيب، فكأنما ما طرحه طارق قد سبق له أن جال في ذهنها لكنها ما استطاعت الركون إليه:

– كفى تسطيحاً للأمور يا طارق، هل يمكننا أن نقول لشخص متزوج ولديه أولاد، دعك من أولادك وكأنك لم تنجبهم أصلاً.

على يسارهما بدت المكتبتان الظاهرية والعادلية متقابلتين، المكتبتان اللتان طالما أحسا حيالهما أنهما كنزان توءمان، يزخران بأنفس التحف وأندر المقتنيات، ها هما الآن تبدوان لهما وكرين من أوكار الأكاذيب التي عاشا عليها، والتي ناء بحملها كاهل الزمن، وشقيت بها في بطون كتبها عقول أبنائه. أعرضا عنهما وانعطفا يميناً. وهناك دخلا في الفناء الذي يحوي مرقد القائد صلاح الدين الأيوبي. أعمدة وتيجان أعمدة رومانية كانت تستلقي على الأرض، إنها بقايا معبد جوبيتير. قال طارق:

– انظري كيف يهزم التاريخ نفسه بنفسه، المعبد الوثني يتحول إلى كنيسة والكنيسة تغدو مسجداً.

– لمَ لا نسمي هذا سيرورة الزمن، ولولا هذه السيرورة لما عرفنا بهاء الجامع الأموي.

نعم لقد كان المدخل الشمالي لجامع بني أمية الكبير إلى جوارهما تماماً. وعلّق طارق قائلاً:

– دعينا الآن من الجامع الأموي، سندخله بعد قليل، فنحن لم نفرغ بعد من مرقد صلاح الدين. قائد تاريخي عاش بعد وفاة الرسول بنحو من ستمائة

عام، ما مبرر هذه السمة الدينية لمرقده؟ ولماذا علينا أن ندخله حفاة الأقدام؟ يقال فيما يقال في بداية الأمر وضعت حراسة على مدفنه خشية انتقام الناس من عظامه، ومع تقادم السنين تولى الجيل الذي عايشه، وأتت أجيال أخرى تغيرت نظرتها إليه باطراد إلى أن وصلنا إلى وقتنا هذا.

- ولماذا ينتقم معاصروه من جثمانه؟

- لفرط ما بطش بالناس، أباد الانتماء الفاطمي في مصر عن بكرة أبيه، إضافة إلى ما يروى عن مجازر له في حلب وسواها من مدن الشام.

- ألأسباب طائفية؟

- لا، لا، كانت ضحاياه من كل الطوائف.

- كأنك تبالغ قليلاً أو كثيراً يا طارق، لقد قرأت عنه في مراجع غربية تحدّثت عن مرحلة الحروب الصليبية، ووجدت أنه موضع تقدير حتى من كان يحاربهم واحترامهم.

- هنا المشكلة، لقد كان رحيماً بأعدائه جباراً على قومه. ورحمته بأعدائه هي ما دفع دانتي أن يضعه في كوميدياه الإلهية في "الليمبو" مع هوميروس وفرجيل وأرسطو كواحد من أجلّاء التاريخ الذين ما فازوا بنعمة المعمودية.

- ما بك يا طارق؟ كأنك تعيد قراءة صلاح الدين من جديد!

أطرق مستسلماً لكآبته، ولم يشأ أن يلقي على مسامع صديقته ما يعرف أنها تعرفه، إنهم يعيدون قراءة أنفسهم من جديد، وهم يتلعثمون كلما أعادوا القراءة.

تأبطت ذراعه ومضت مولية المرقد ظهرها، ودخلا معا البوابة الشمالية للجامع الأموي حيث تنتصب مئذنة العروس.

قالت لمياء:

– والآن يا طارق هل سنعيد قراءة الجامع الأموي أيضاً؟

– إنه كتاب مفتوح نحن من لم يشأ أن يقرأ إلا بعض صفحاته، هل تذكرين زيارتنا له صحبة حزقيل وراحيل؟ لقد تجولنا في مصلاه الفسيح، وتقاصرنا رغماً عنا تحت قبته الشاهقة، ولمست أصابعنا بتهيب ووجد منبره المرمري، ثم توقفنا وتوقفنا عند مرقد يوحنا المعمدان، كدنا ننظم المعلقات حول ما ينطوي عليه وجوده ضمن المصلى من تسامح ديني، وتآخ بين مكونات المجتمع الكبير، لكننا متواطئين مع نفاقنا ونزعتنا نحو تضليل أنفسنا، غضضنا البصر عن وجود مرقد آخر في فناء الجامع، هو مقام رأس الحسين عليه السلام. سبط الرسول يُقتل في كربلاء، ويُحز رأسه هناك، ويُنقل إلى دمشق ليستمتع بمرآه أمير المؤمنين فيها. وكلنا يعرف ذلك، وينظر إليه وكأنه لا يستحق التوقف، أو إعادة النظر بالخلافة، ودولها، وشخصياتها التي ما زلنا نُكره الله أن يرضى عنهم كلما ورد اسم من أسمائهم على ألسنتنا مشفوعاً بلقب "سيدنا". تمتع الخليفة بمشهد القتل كان تقليداً من تقاليد الخلافة، فطيّ الثقافة والأعراف في دول الخلافة كان هناك ما يُعرف ب "النطع"، كان يُفرش أمام الخليفة كي يُنفذ حكم الإعدام فوقه وتحت ناظري أمير المؤمنين أو أحد ولاته، كي يتسنى لهم التمتع بمشهد القتل دون أن يتلوث ديباجهم وطنافسهم بدم القتيل. وأدهى ما في الأمر أن المتخبط بدمائه فوق نطع

الخليفة هو غالباً الوزير أو النديم وأحياناً الأخ الشقيق.

ربما متأثرة بطريقة الفريق الزمني باستعادة أحداث الماضي، وجدت لمياء نفسها تمضي عبر أدغال القرون. تعملقت لديها شريعة الغاب التي سادت وتسيدت في تلك الأدغال، وتماهت في مسامعها حشرجات الطرائد المستضعفة بين أنياب الوحوش الكاسرة مع همهمات الأرواح واختلاجات الأجساد على نطع الخليفة. أمام حقيقة النطع الراسخة يتلاشى كل زيف البشر وادعاءاتهم، تخلع الوجوه أقنعتها ويتخلى الكبرياء عن وساوسه. تزاحمت في أذنيها عبارات التوسل والاستعطاف مع مفردات الاعتذار والندم مع الصرخات الهستيرية التي تشبه غمغمات الفرائس، ومن خلال كل تلك الأصوات لم تسمع صوتاً واحداً يقول "ملعون يا جسدي إن انتفضت ألماً فوق نطعه".

– ربما أخطأت إذ فاقمت كآبتك يا لمياء.

– لا، لا. تجاهل الأمر لن يلغيه، علينا أن نواجه الحقيقة كما هي.

– وعلى أي وجه ترينها الآن؟

أطرقت قليلاً قبل أن تقول:

– في لحظات المروق أقول "قد أكتشف أنني كنت أخادع نفسي" لكنني أعود فأقول مطمئنة "أما نجحت حتى الآن بعدم اكتشاف ذلك".

قال ساخراً:

– نعم النجاح نجاحك والله.

قال طارق وهو يأخذ مكانه خلف مقود السيارة:

- لا تقولي لي إنك تنوين العودة إلى البيت.

- وماذا إذاً؟

- سنذهب إلى مكان كنت أرتاده دائماً أيام الجامعة، ثم نتناول غداءنا في أحد مطاعم الربوة ثم نعود.

- الربوة؟ ولكنها بعيدة!

- المكان الذي نقصده على طريقها.

عبرا بسيارتها ساحة المرجة، ثم توجها غرباً عبر شارع شكري القوتلي صوب ساحة الأمويين. قالت لمياء متسائلة:

- هل نمضي إلى حديقة تشرين؟

- أبعد منها بقليل.

تجاوزا ساحة الأمويين، ثم انطلقا عبر شارع جواهر لال نهرو صوب ساحة ذي قار، وهناك ركن طارق سيارته في موقف قريب من الساحة ثم قال للمياء:

- والآن، هل ما زالت لديك همة على صعود السلالم؟

ضحكت لمياء متضجرة بسعادة هزيلة:

- إلى حديقة النيربين! كنت ألهو هناك عندما كنت طفلة.

– فلنعد أطفالاً، من يدري قد ننفذ ونحن نلهو صدفة إلى الكون الزمني!

من مقعدهما في الحديقة المعلقة على جبل قاسيون، حيث كانا يلتقطان أنفاسهما بصعوبة بعد أن صعدا ما صعدا من السلالم، كانت دمشق تحت مدى بصرهما تمتد وتمتد وتمتد. تتبعا معظم المعالم التي تنقلا فيها في الآونة الأخيرة منفردين أو بصحبة حزقيل وراحيل. لا يتوه الراصد من قاسيون عن مآذن الأموي، ولا عن قبة النسر، كما لا تخفي نفسها عنه قلعة صلاح الدين، ولا أبنية الجامعة العريقة. لكن المَعلم الأكثر وجعاً، والذي لعب دور البطولة في تقويض قلاع قناعاتهما، كان يفغر فاه في الجهة المقابلة غير المرئية من الجبل. قال طارق:

– ها نحن الآن على قاسيون من جديد، على ارتفاع يوازي تقريباً ارتفاع مغارة الدم، ولكن على طرف آخر من الجبل. لقد تعمدت أن أوحي إليك أنني أرغب باستعادة ذكريات أيام الجامعة، ولكن الحقيقة أنني أمضيت هنا سهرة أمس وحتى ساعة متأخرة من الليل. كنت أفكر بمغارة الدم، وبميثاق الذي قدمنا واجب العزاء بوفاته التي مضى عليها مئات آلاف السنين، ضحكت من نفسي وضحكت حتى بكيت. بعد كل هذه العصور، يريد الآن ميثاق بشطريه آدم وحواء أن يزيح من مستقر يقيننا آدم وحواء جبلة يدي الله. تمخّض خيالي ليلة أمس عن ميثاق آخر ربما يكون هو الحقيقة وما سواه أوهام. فطالما فُتح باب التكهنات فإنه لن يُغلَق أبداً.

– ومن يكون ميثاق الجديد هذا؟

– مخلوق مكوّن من عقل ووهم لا كيان مادياً له، انفصل عن مركز

الوجود ذات أمد سحيق، منطلقاً عبر أصقاع الكون، على مسار حلزوني بسرعة خاطفة للوعي، إلى أن بلغ المسار الذي هُيّئ للدوران عليه، انتظمت سرعته، وشيئاً فشيئاً بدأ يستكشف وعيه ووهمه اللذين يشكلان كل وجوده.

- ثم ماذا؟

- كتبت مقطوعات شعرية حول هذا الموضوع.

- أسمعني ما كتبت.

- المقطع الأول يقول على لسان ميثاق:

" شيء يدورْ

حولي يدورْ

على مدار من مدار من مدارْ

تفيض عنه بؤرة الأزلْ

ويبعد المدى

وتهرب السُبلْ

أحس بالدُوارْ

بقوة تذودني عن مركز الوجودْ

كأن لي مسارْ

يشدني إليهْ

لا يعرف الحدودْ

أحس أنني أدورْ . .

أنا أدورْ؟!

أنا أدورْ!

أنتْ؟! أنتَ قبلاً لم تكنْ.

تساءل المضفور من عقل وظنْ.

بقوتيه قد درى

بأنْ وجوده اعترى

ما كان قبلاً وحده الوجودْ".

– وما علاقة ميثاق الجديد بميثاق القديم؟

– بعقله وخياله اللذين لا يملك سواهما، يبدأ ميثاق باستكشاف الكون من حوله، ويستنتج بعد ذلك أنه ليعيش في كون مادي فإنه يحتاج كياناً مادياً يعبّر عنه.

– أسمعني ذلك شعراً.

– المقطع الثاني يقول:

" قبلاً أنا ما كنتُ

إني الآن كائنْ

يستوعب الزمانْ.

ولي مدارْ

يشدني إليهْ

يستكشف المكانْ.

كي أعبر الزمانْ.

كي أشغل المكانْ.

لابد من كيانْ.

. . توهّم الكيانْ".

– أي أننا فصول من أوهامه؟

– نعم، توهّم كياناً بمواصفاته المادية والمعنوية، فكانت مواصفاتنا هي ما دار في خلده. أعطى بوهمه هذا الكيان حرية الحياة والحركة، ثم رصد عقله ما الذي يمكن أن يحدث، فتوالت في وهمه أحداث الحياة كما تقتضيها المواصفات التي توهّمها لنفسه ولسلالته، وما زال جفناه ساهمين يتابعان النتائج.

– ولئن استفاق من شروده ماذا سيحصل؟

– حتى وإن استمر في شروده، فقد لا تعجبه النتائج التي تابعها فيغيّر قليلاً أو كثيراً في قواعد اللعبة.

- أي أننا على كفّ عفريت.

- بل على جفن حالم، حالم لا يملك حتّى الجفون.

أطرقت في الأرض قليلاً ثم ابتسمت بحيرة وهي تدندن:

- "فوّتني بطريق ما شكلا بتودي"

أجابها بدوره بأغنية أخرى:

"بخمّارة جوريّة

ليليّة ليليّة

ولا تفضى القنينة

بخمارة جوريّة "

- فعلاً لن تفرغ "القنينة" بعد اليوم، وطالما تخلخلت قناعاتنا القديمة فخمّارة جوريّة ستتحفنا كل يوم بجديد. عد بنا إلى قصيدتك.

- يقول المقطع الأخير:

" لعله يكونْ

وجودنا وهما

أو ربما يكونْ

زماننا حلما

معلّقونْ

على رموش كائن يريد أن يكونْ

تناثرت أوهامه في ناظريهْ

وقبل أن يرتدّ طرفه إليهْ

وفي شرود لحظة مسافرةْ

كنّا . . وكانت هذه المغامرةْ . . . "

تمت